

بإشراف إدارة الثقافة العامة
كتاب
وزارة التربية والتعليم بمصر
الأرض والتطور البشرى
تأليف
لوسيان ديڤيڤر
٤
ترجمة
الدكتور محمد السيد غلاب
مراجعة
الدكتور ابراهيم رزقانه
الجزء الثانى
٥١٢٩٥


جامعة الاسكندرية
المكتبة



(الجزء الثانى)

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (١٤٩)

الأرض والتطور البشري

(الجزء الثاني)

ألفه

لوسيان فيفر

ترجمه
دكتور محمد السيد غلاب

راجعه
دكتور ابراهيم أحمد زرقانه

الناشر
الدار المصرية للطباعة والنشر
٥٩ صفيه زغلول : ت ٢٤٧٧٠ اسكندريه

هذه ترجمة الجزء الثانى من كتاب

La Terre et L'Evolution Humaine

تأليـــف

Lucien Févre

— ٢ —

تعريف الامكانيات

والآن فنلحص ماسبق أن فصلنا — لقد ضيقنا مجال المشكلة بخطوات متتابعة. فلم تصبح الاقاليم الطبيعة سوى مجالات لامكانيات الجماعات البشرية. ولكن اذا كانت هذه الامكانيات تكون نظرة محدده ثابتة فما جدوى نقاشنا ألا تشبه نظم الامكانيات مجموعة من القوى سبق أن تحدثنا عنها ؟ أليس معنى هذا أننا احتفظنا بنفس الشيء مع تغيير فى الاسماء؟ أليس معنى هذا أن هذه الامكانيات قد ضيقت الخناق على الانسان ؟ وحكمته بيد من حديد ؟ كلا - حيث أنه لا يوجد شيء حتمى ضرورى مقدر على البشر من الأزل - بل تنوعات متغيرة باستمرار وطفرات جديدة منبثقة على الدوام ، فترات من السبات ثم يقظة مفاجئة وكلها ترجع الى النشاط البشرى . ولكن كيف تدرس تلك الامكانيات على أساس علمى إذا كانت لا تلعب سوى دوراً قصيراً متقطعا فى حياة البشر ؟

نستطيع الآن أن نحدد المشكلة الحقيقية بدقة . انها تتكون أولا من تحليل فكرة « الامكانية » تحليلا دقيقا . وثانيا من تقسيم الأقاليم حسب ترتيب اتساع امكانياتها أو ضيقها . أو بالاحرى إذا أردنا أن نكون أقل طموحا أن نلخص ترتيب الامكانيات فى الأقاليم الطبيعية. وتختلف الاقاليم الطبيعية فى مجـــال الامكانيات الذى تقدمه وفى وضوح هذه الامكانيات

وقيمتها. ولما كانت هذه الامكانيات لا تظهر ظهورا ذاتيا آليا فانها كلما كانت عديدة واسعة المجال فى اقليم ما كان الاحتمال اكثر فى ظهور بعضها فى زمن ما. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نبنى النظام التصاعدى الذى أشرنا اليه. ولكنه لايزال صعب البناء نظراً لصعوبة تعريف الامكانيات

* * *

أهم الاحتياجات الطبيعية الأساسية اللازمة لتكوين مجتمع انسانى ونموه هى بيئة غنية بثروة حيوانية تكفى مطالبها. ولكن هل تكفى هذه القاعدة مجرد حساب رياضى بسيط له نتائج آلية لعدد الأنواع الحيوانية والنباتية التى تقع تحت تصرف البشر ؟

إننا لانستطيع أن نستنتج فوائد الاقليم أو مضاره لجماعة انسانية بمجرد تقييم ثروته الحيوانية والنباتية. وبمعنى آخر أننا لانستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن غنى اقليم أو فقره بمجرد دراسة قائمة لنباتاته وحيواناته وقد يبدو متناقضا ـ نقول يبدو فى الظاهر فحسب ـ أن الغنى الفاحش فى هذه الثروة ينتهى بنفس النتيجة التى يحملها الفقر المدقع فيهما بالنسبة للاقليم. ففى بعض الاقاليم التى تمتاز بغنى الحياة النباتية والحيوانية لا يستطيع الانسان أن يجد له مأوى ويشق طريقة بصعوبة فيها. فالغنى الزائد يتساوى عمليا فى نظره، بالفقر المدقع، وكأن الحياة الزاخرة من حوله قد شلت حياته يدل على هذا ملاحظة أى اقليمين متجاورين كالاقليم القطبى ودون القطبى من ناحية والاقاليم التى تقع بين المدارين من ناحية أخرى. ومن العبث عقد مقارنة بين هاتين الحالتين، ففى حالة الاقليم القطبى الشمالى

والجنوبى تواجه الانسان عقبات عديدة لاقبل له بهـا ، نظرا لفقر موارد هذين الاقليمين النباتية والحيوانية ، أما فيما يختص بالاقاليم التى تقع بين المدارين فان البحث يعوزه الدليل .

لقد كانت العادة تجرى من قبل فى وصف الثروة النباتيه والحيوانية للاقاليم المدارية بحماس كبير. فكانت تسمى بأرض المعاد، حيث تجود الطبيعة بخيراتها وتغرق الانسان فى فيض برها ، فوفرت عليه الكد والنصب وجنبته مشاق العمل ، فلا حاجة له فى أن يعمل ليكسو نفسه أو يبنى مسكنه أو حتى يطعم نفسه، تحيط به أشجار الفواكه العديدة المغذية فما عليه إلا أن يمد اليها يده ليقطفها . والطبيعة تقدم له ألواناً عديدة من الغذاء المفيد الشهى ، ثم أقيمت نفسية كاملة للبدائى اللطيف فى هذه البيئة الحارة ، قائمة على هذه المقدمة المضللة ، ولكن هل حل محل هذه الخرافة القديمة شىء آخر قائم على أسس واقعية سليمة؟ ان علماء النبات وقد تأخذهم الحماس لعملهم قد رسموا صورة عاجلة (١) للغابات الاستوائية التى تدعو الى التقاعس ، فى حوض الأمازون والكونغو هناك يعيش الانسان فى اجازة دائمة ، فهذه أماكن الصيف الدائم حيث تنمو النباتات الاستوائية العظيمة .

هناك يعيش الانسان بدون نصب اذ يكفيه محصول شجرتين أو ثلاث مئونة الكد طول العام ، حيث يجد أنواعا عديدة من الفاكهة والطعام الشهى حيثما اتجه . بل أكثر من هذا فقد دعا هذا الوصف بعض الكتاب الى أن يشير الى هذه المنطقة كالوطن الأصلى للانسان، فهنا يستطيع

(١) مقدمة الكتاب ١٠٥ وما بعدها

الانسان الأول أن يعيش ، دون أن يتعرض للموت جوعا ، كما قد يتعرض له فى الاقاليم الباردة ، ومن المحتمل جدا أنه نشأ فى هذا الاقليم الحـــار الاستوائى ومنه انتشر الى بقية أنحاء العالم [١] وسنترك أحلام كاتب هذه العبارة ـ كوكانى ـ اذ أنه وقع فى أخطاء بلغت من الضخامة حدا لا يحتاج الى مناقشة، بل يكفى أن الحقائق التى حملها العلماء والمكتشفون حديثا ترد عليه بما فيه الكفاية .

ان الغابة الاستوائية اقليم صعب لحياة الانسان ، هذا هو ما أجمع عليه كل من رحل اليها وعاش وسط تلك الغابات الكثيفة المتشابكة ، التى ترتفع إلى كبد السماء ، والتى تتشابك أغصانها فتحجب السماء عن السائر فيها، وتكون شبكة سميكة من النباتات المتسلقة والأحراج والنباتات الطفيلية التى تحاول أن تصل الى الضوء ، الذى تحجبه الأشجار الشاهقة [٢] ولذلك كان من المتعذر على الانسان أن يتحرك فى هذه الغابات الا اذا كان من أهلها الأصليين الذين يعرفون طرقها وممراتها .

هذا كلام معاد. فعهدنا بستانلى وخطاباته الى الديلى تلغراف من مانيمينا فى جنوب افريقيا ليس ببعيد، اذ أنها ترجع الى أول نوفمبر ١٨٧٦، وقد استطاع ستانلى أن يبدد سراب الغابة العذراء التى تثير فينا الشوق ونحن نراها عن بعد ، من فوق قمة تل ، ولكن ما أن نحاول أن نقتحمها حتى تبدو لنا على حقيقتها ، موحشة مقفلة أمام الانسان ، وكما يقول ستانلى فى أحد خطاباته ،

---

(١) قارن هذا الرأى بما ورد فى بول (١٦) ١٩١٦ مجلد ٢٧ ص ٤٩٨

(٢) كونستانتين ١٠٤ ص ١٩٤ وما بعدها

معجزة فى صمتها وسكونها وبعدها عن التناسب والاتساق وبعدها عن الاقتراب من الانسانية. ولا ريب أن معلوماتنا عنها قد تقدمت منذ أيام ستانلى ، وقد استطعنا الحصول على معلومات دقيقة عن هذه الغابات بعد رحلات شيفالييه Chevallier وكوماندات ، برتين Bertin ، ورحلة كونت دى بروى J. de Broy الى مايامي ، وقد بينوا جميعا أن كثافة الأشجار فى الممرات المؤدية الى الغابة تخدع المسافر كثيرا، وأن الغابة تحتوى على مساحات كثيرة مكشوفة من النبات ، وأن أماكن الأحراج القصيرة أوسع مما نتصور ، فهناك فى الواقع تداخل بين اقليمى الغابات الاستوائية والسافانا ، وبهذه الطريقة تعدلت فكرتنا عن هذا الاقليم فلم يصبح قفراً تماما من السكان كما كنا نظن وكما يوضحه أطلس بارثلميو عن الجغرافيا الاقتصادية فى خريطة توزيع السكان فى العالم [١] وبالرغم من هذا كله فان أحد الرحالة الحديثين الباحثين فى قبائل أواسط افريقيا وهو دكتور كورو [٢] لايزال يردد أقوال ستانلى من قبل وربما كانت هذه الدراسة مسرفة قليلا فى الخضوع للنظم العلمية والترتيب المنطقى وربما كانت مجهدة شيئا ما ولكنها فى مجموعها تحتوى على معلومات مفيدة. فربما كان من الصعب التفرقة بين السهل المكشوف وبين الغابة كما فعل. فالغابة العذراء متشابكة ساكنة نائمة متجانسة غير ملونة ، اللون العام لها هو الأخضر الداكن ولون التربة أسود

---

(١) بارثلميو ١٠ لوحة رقم ٧ حيث يظهر من الخريطة كثافة السكان فى الغابات الاستوائية الافريقية ١٠ — ٢٥ نسمة فى الكيلومتر المربع (٢٦ — ٦٤ فى الميل المربع) بينما هى أقل من نسمة واحدة فى الكيلومتر المربع فى البرازيل .

(٢) كورو ٧٩ ص ٣٠

ضارب الى الحمـــرة الداكنه واذا دخلتها فانت تحت سقف من الخضرة الكثيفه التى تعذبك تحت وطأتها وتحت وطأة الحرارة الشديدة والرطوبه المرتفعة . فتكون لك هذه الخضرة الداكنه اليابسه سوط عذاب ثم تبدأ العقبات تظهر لك واحدة بعد أخرى، تجعلك تقفز من فوق الجذور الضخمه التى تعترض طريقك بينما قدمك تغوص فى بساط كثيف من أوراق متساقطه أو فى الجذور المتعفنة ثم يقارن الكاتب بعد ذلك بين ساكن السهول المكشوفة وبين ساكن الغابه الذى يعيش فى حذر دائم وغموض شامل داخل الغابه. فاذا خرج منها بهرته الأضواء الساطعة كما يعيش الخفاش فى ضوء النهار(٣) ولكن «رجل الغابة» فى رأى الحتميين يمتلك كل السبل للرفاهية وقد أعطانا الدكتور كورو Cureau فكرة جيدة لحياة سكان الغابات القلقة المبتسرة ولا يرجع هذا الى غنى الحياة النباتيه الفاحش وحجم الغابات الضخمة وصراعها نحو الضوء فحسب ، بل الى الخطر الذى سجله كل مخلوق مهما كان ضئيلا صغير الحجم ، الطفيليات المهلكة والحشرات النهمه التى تشير الى حياة حيوانيه زاخرة والنتيجه لهذا كله أن هذه البيئه خاليه من البهجه والسعادة اذ أن الطبيعه تمثل دور امرأة الأب بالنسبه للانسان فهى قد حرمته أول مطالب الحياة وهو الطعام. حيث أن الأشجار تحمل ثمارها على ارتفاع شاهق كما أن الصيد مسألة تتوقف على الحظ. وهى تحرمه من الشمس مصدر الصحه والعافيه. وليس هنالك عود من الحشائش يملأ ناظريه جمـــالا أو عشبا يريح عليه أطرافه المتعبه .

* * *

---

(٣) نفس المرجع ص ٣٠ و ص ٣٠٢

هذا عن افريقيا فاذا سألنا من هم على علم بأمريكا[١] الجنوبية وغابات الأمازون فانهم يرددون نفس الاجابة . أول ماينطبع فى الذهن عن هذه الغابات وفرتها النباتية التى لاتنفذ . الارض حارة رطبة والنتيجة لذلك نمو النباتات ونضوجها بسرعة وبدون توقف كما يقول ريفيه[٣] ولكنه بعد أن يدرس الاقليم يعيد النظر فى حكمه ويقول أن خصوبة الغابة أمر ظاهرى أكثر منه حقيقى . ويوافقه ليكوانت[٢] فالتربة فقيرة رملية طينية أو صخرية فوقها طبقة رقيقة يمكن أن ينمو عليها النبات. وهذه تكتسحها الأمطار بسهوله اذا قطعت الأشجار من فوقها . ومن الواضح أن هذه البقاع ليست الا صحارى مغطاة بالخضرة تنتظر دورها لكى تختفى . هذه ولاشك طبيعة نباتية لاتجتذب الانسان اذ لاتقدم له أى مورد طبيعى . ولذلك كان سكان وسط افريقيا يعيشون فى مجاعة دائمة . ان كل مايحلم به الزنجى هو أن يأكل حتى يتخم [٤] ياله من تناقض ! سكان الغابه العذراء التى تزخر بالحياة يعيشون فى شبه مجاعة دائمة . ولكن هذا أمر يسير الفهم فالصيد قليل ، قوية الشكيمة متوحشة مفترسة مثل الفيلة وأفراس النهر والثور الوحشى أما تربية الماشية فمتروكة للماشية نفسها. اذ انهم لايعنون بها ولذلك كانت الماشية صغيرة الحجم ضئيلة لاتشبع ولاتغنى عن جوع ولاتوجد ماشية ثقيلة نظرا لتفشى الأمراض المعدية بينها[٥] والزراعة جزئية قليلة القيمة

---

١ — نفس المرجع ص ٢٩ — ٣٠
٢ — ف . «١٦» ١٩٠٢ ص ٨٣
٣ — مناخ الأمازون (١١) ١٩٠٥
٤ — كبورو «١٧٩» ص ٢٥٢
٥ — نفس المرجع ص ٢٥٨

بعض الحقول من الكسافا والسرغم والدخن والبطاطا حيث يمكن تنظيف الغابة واعدادمكان للزراعة. ولايرجع هذا الى بدائية الزراعة فحسب ، فحتى أساليب الزراعة الراقية لاتستطيع أن تفعل شيئا فى هـذه البيئة . فجهود الأوربيين فى ميدان الزراعة لم تأت بعد بنجاح فالاعداء يتربصون بالنبات من كل مكان ، الى جانب الصعوبات المناخية اذ قد يتوقف المطر مرة واحدة فتهلك الزرع أو قد تسقط الأمطار بغزارة فتقتلعه من جذوره والموارد الطبيعية للتربة هنا تتكون من الجذور والدرنيات وهى (أطعمة مجاعات) كما يقول شفاليه[1] اذ أنها تحتوى على الجيلوكوز بشكل يتطلب اعدادا طويلا قبل أن تكون صالحة للأكل ولاتزخر الطبيعة الا بالديدان والضفادع والحشرات والنمل والفراشات. وكلها نهمة فى تناول الطعام حتى لقد قيل أن أشد الأحياء افتراسا وتوحشا فى الغابة الاستوائية هى الحشرات[2] ولكن قبائل البندا والمانجا وغيرها تعيد التعادل فى الطبيعة بأن تصطادها وتجمعها ملء السلال وتأكلها فى فصل الشتاء وهذه الحشرات تمدها بالمادة الدهنية اللازمة لها .

ومن ثم فلا عجب أن كانت المجاعات تجتاح هذه الاقليم من حين إلى آخر وان التوحش وأكل لحم البشر لا يزال فى بعض قبائله . إذ أنها ترتبط دون شك بمشكلة الطعام وربما نشأت فى الأصل على شكل طقوس دينية وكان الغرض منها تقمص صفات الشخص بأكل بعض أجزائه أو اكله كله

---

١ — شيفالييه «١٧٨» ص ١١٢

٢ — شيفالييه «١٧٨» ص ٨٩ — ٩٠

٣ — كيودرو (١٧٩) ص ٢٥٣

ولكن مما لاشك فيه أن قبائل الباندا مثلا التى تعيش فى أوبانجى كانت تضطر كما رآهم شيڤالييه إلى اصطياد جثث الموتى والتهامها إذا عضها الجوع بنابه. ويقول دكتور كورو أن احد حكام أو بانجى اضطر إلى إقامة حرس على المقبرة ليدفع عنها هجمات الجياع الذين لا يتورعون عن نبش القبور لأكل جثث الموتى، وهم لا اعتراض لهم على ذلك لأنهم كما يقولون لا يأكلون رائحة الجثة بل لحمها .

الا ان الغابة ليست كل الاقليم المدارى. أليس من الضرورى أن نفحص تربة اللاتريت ذلك الطين الذى تكون من تحلل الصخور القديمة مثل الجرانيت والنيس والديوريت بفعل الأمطار القوية الغزيرة لكى نتبين ما عسى أن يسهل الحياة للجماعات البشرية هنا ؟ ألا تزدهر الجماعات البشرية فى التربة الحمراء فى الدكن والهندالصينية ومدغشقر والكونغو ؟ ويقول إميل جوتييه الذى قام بأبحاث فى مدغشقر أن التربة هناك لها صلابة وخصب الطوب التى اشتقت اسمها منه ويقوم السكان بحفر حفر صغيرة فى التربة وغرس البذور ولكن ليس معنى عدم وجود الغابة وجود اللاتريت ولكن إذا سقط على هذه التربة النهمة كميه كافية من الأمطار هل يتغير الوضع وهل تكون هناك امكانيات للاستقرار ؟ نعم ولكن فى نطاق الاقاليم المعتدلة التى لا تقارن بالاقاليم المدارية فى غناها الموهوم أو بالاقاليم القطبية وما دونها فى فقرها الحقيقى

---

(٢)

بيئات البشر : السهول ـ والهضاب ـ والجبال

لقد تحدثنا عن المجموعة الاولى من العناصر التى تحتاج الى تحديد إمكانياتها . إذ أن إمكان قيام مجتمع إنسانى يحتاج لتوفر أمرين الأول توفر ثروة نباتية وحيوانية كافية لكى يؤسس حياته عليها تأسيسا سليما ، والثانى سهولة الاستفادة من الموارد الطبيعية الموجودة فى تناول يده ، ولا سيما من ناحية الحيوان والنباتات حيث ينبغى أن يكون فى استطاعة المجتمع الاستفادة من هذه الثروة بسهولة استفادة تعود عليه بالنفع . أى ينبغى أن لا تكون من الغنى والتنوع بحيث يعجز الإنسان عن ضبطها . ومعنى هذا أننا لانهتم بإحصاء تلك الأنواع النباتية والحيوانية احصاءاً رياضيا .

ففكرة الجغرافيا عن غنى الاقليم وفقره تقاس من ناحية مختلفة تماما كما بينا بحيث لا يمكن أن نبنيها على الظروف المناخية فحسب . بل أن المجتمعات الانسانية تحتاج لظروف طبيعية يمكن لها فيها من أن تحاول البناء والتعمير إذ أن هناك أنواع نباتية وحيوانية تعوق النشاط البشرى ولا يستطيع الانسان أن يغزو المملكة الحيوانية أو المملكة النباتية ويسخرها لمصالحه وحاجاته إلا بعد أن يؤسس قواعد خاصة يقيم عليها جهوده ونشاطه وفكرة نقطة البدء هذه point d'appui فى غاية الأهمية من حيث المنهج والمادة ونقطة البدء تستمد من الصفات الضارسبة للاقليم وهى تخرجها من رقابة فكرة الاقليم المناخى النباتى والحدود بين هذه الأقاليم

وتعطى هـذه الاقاليم المناخية النباتية تنوعا وغنى فى الأمكانيات . ولكن الصعوبة تواجهنا عندما نحاول أن نبرز هذه الفكرة ونحللها ونعطيها تعريفا واضحا محدودا .

* * *

تقسيم سطح الكرة الى جبال وسهول وهضاب تقسيم تقليدى قديم وهى فكرة ورثها الجغرافيون المحدثون عمن سبقهم ولم يهجروها . وربما كان ذلك خطأ . لأنهم لا يزالون يستعملون الالفاظ القديمة ويكتفون بتحليلها وتوضيح مدلولاتها ، ثم أضافوا نوعا جديدا من التضاريس وهو الأحواض والمنخفضات وبذلك أصبح عدد الأقسام التضاريسية أربعة ولا تزال التعريفات القديمة فى غموضها ومدلولاتها العامة .

ولنأخذ أحد الكتب المدرسة التى تعالج هذا الموضوع وهو كتاب تطور الارض والانسان لمؤلفه ليسبانيول Lespagnol (١٩٠٥) وهو كتاب وسيط بين الكتب المطولة وبين الكتب الابتدائية فى موضوع الجغرافية العامة. وهذا الكتاب يقسم التضاريس الى أربعة أقسام [١]

ويقسم الجبال الى جبال تكتونية وجبال التوائية وجبال تراكمية والأولى تنقسم الى جبال التوائية وجبال انكسارية وجبال أتت عليها عوامل التعرية والتحات وأصبحت سهولا مموجة .

وقد يبدو أن هذا التقسيم سينتهى بنا إلى اختصار فكرة الجبل وقصرها

---

١ — ليسبانيول ٧٩ الفصل التاسع ص ٢٦١ وما بعدها .

على نوع واحد ليس هذا هو الواقع . فالجبال كما يقول المؤلف تمثل أجزاء من سطح الارض ارتفعت عن المستوى العام ارتفاعا كبيرا وهذا تعريف غامض جدا وما هو المستوى العام ومن أى ارتفاع يبدأ ؟ هل هو يقصد الارض التى تحيط بالجبال أو سطح البحر ؟ هناك جبال الالب والبرانس والهالايا والجورا والمورفان وجبال ثورنجيا والفوج والغابة السوداء كما أن هناك ريمس [١] (٢٨٨ مترا) ولاؤن (١٨١ مترا) وكاتس (١٥٨ مترا) ومونت كاسل (١٠٦ مترا) ثم بعد ذلك الجبال المستوية وهى جغرافيا سهول أو هضاب [٢] وهناك أيضا كثبان الصحراء الرملية التى قد ترتفع الى ٢٠٠ مترا . هل هذا يدل على استقرار فى البحث أوالتعريف فاسم الجبل قد اطلق على التلال المنخفضة التى لا ترتفع أكثر من ٢٠٠ متر إذ أنه من الصعب تحديد الارتفاع الذى يتحول فيه التل الى جبل صغير فارتفاع الجبل مسألة نسبية تتوقف على ارتفاع الجبل عن المستوى الذى يطل عليه [٣] .

كذلك تأثير الهضبة ليس دقيقا فقد شاهدنا أن هناك جبال من ناحية التركيب ولكنها أصبحت سهولا من الناحية الجغرافية. فما هى الهضبة من الناحية الجغرافية ؟ إنه اسم يطلق على مساحة من الأرض ارتفعت ارتفاعا منتظما . إذا فارتفاعها لم يحدد وفى العادة يحدد أقصى ارتفاع السهل بنحو ٢٠٠ متر ولكن هناك سهول على ارتفاع يفوق هذا الارتفاع كما أن من

١ — نفس المرجع ص ٢٧٩

٢ — ص ٢٧٨

٣ — ص ٢٨١

ناحيه أخرى لا تصل هضبه اللورين الى هذا الارتفاع وقد رأينا أن بعض المرتفعات التى لا تصل الى ٢٠٠ مترا تسمى جبالا فى جهات مختلفه من العالم ونحن لانستطيع أن نقبل أن الهضبه شىء وسط بين الجبل والسهل كما أن الهضاب المرفعة التى تتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ متر مثل هضبة التبت لا تمثل مطلقا سطحا مستويا .

وأخيرا السهول فهذه هى المناطق الأدنى ارتفاعا وبعضها سهول فيضية وبعضها ساحلية وبعضها داخلية . ولكن ما هى الظاهرة التى تفصل حقيقه بين السهل والهضبه فمثلا ماذا يفصل هضبه لبرادور فى الشمال عن سهل لبرادور الذى يطل على خليج هدسن هل هو الارتفاع النسبي أو التركيب الجيولوجى كل هذا لم يحدده الجغرافى وتركه غامضا مختلطا .

المنخفضات هى المناطق التى تقع تحت سطح البحر وهنا على أى حال نجد المقياس واضحا ولكن هناك مناطق قد انخفضت نتيجه للانكسار والهبوط بحيث أصبت دون المستوى العام للأقاليم المجاورة لها .

فهل هذه مجرد هضاب هابطه ؟ هذه الحاله تظهر فيها يختص بالحوض الكبير فى الولايات المتحدة الذى يمكن أن يقارن بهضبه تاريم فى وسط آسيا . وتوجد مناطق لذلك فى آسيا وافريقيا واستراليا هبطت بفعل الانكسار عن المنسوب العام لما حولها . وهذه صفه مريحه للمنخفضات وعلى أيه حال فهذه بعض أمثلة تدله على تعدد أشكال الهضاب أو السهول أو الجبل الموجودة فى العالم

* * *

يجب الا يخطىء القارىء غرضنا فنحن لانريد أن نسخر أونقذع فى النقد والواقع أن الجغرافيين المحدثين تقابلهم مشكلة كبيرة ، اذ أنهم يحاولون أن يوفقوا بين ماتوارثه الجغرافيون من نظريات تقليدية قديمة وبين مايصلون اليه من البحث العلمى والتحليل المنطقى الدقيق ودراسة أصل التكوينات والبنية والتضاريس.ونحن نرى من واجبنا أن نلفت النظر الى عدم الدقة فى التعبير الذى يقع فيه الجغرافى ، ولاسيما الجغرافى الطموح الذى يحاول أن يضع نظريات جغرافية تاريخية .

والآن فلنذكر أثر الجبال والسهول والهضبات الذى نحن بصدده وأول مايلفت نظرنا أثرالتضاريس فى المناخ . فالجبال تجتذب الأمطار كما أننا فى ارتفاعها الجبلى من قاعدته الى قمته نمر فى الواقع بعدة مناطق مناخية ونباتية وحيوانية مختلفه . فمثلا قمة جبل روزا التى تصل الى ارتفاع ٤٥٠٠ متر يعتبر تلخيصا وافيا لأقاليم أوربا المناخيه والنباتيه من لابلاندا الى البحر الأبيض المتوسط . بينما تتمثل جميع أقاليم آسيا المناخيه فى سفوح افرست التى تصل الى ٨٨٤٠ متر من الاقليم المدارى الى الاقليم القطبى تتابع اقليم بعد آخر فى اضطراد وانتظام . أما عن الهضاب فهناك صعوبه ناشئه من عدم تحديد هذا اللفظ وكل ما يمكن أن يقال عنها أن مناخها يمتاز بالقسوة نظرا لارتفاعها .

غير ان العلاقه بين التضاريس والمناخ ذات أهميه كبرى بالنسبه للانسان فمنها ننتهز الفرصه لكى ننتقل من النبات الى الانسان وأن نقارن من مختلف وجهات النظر بين حياة المجتمعات البشريه فى الجبال والهضاب وبين السهول

على أعتبار أن كل من هذه الوحدات أساسيه للاحتمالات المختلفه غير أننا لم نتفق على ترتيب أهمية هذه التضاريس (.وليس هذا بغريب) لغموضها منذ زمن ليس بالبعيد كتب اليزيه ركلوس فى مؤلفه عن الأرض La Terre[1] يقول أن أهم الظاهرات التضاريسية فى تاريخ البشرية هى الهضاب .وقد أوضحها كظاهرات بارزة [1] وسط السهول التى تحيط بها، بكل ما تمتاز به من نبات وحيوان خاصين ومناخ بارد دائما أكثر جفافا من مناخ السهول وباختصار كانت الهضاب فى نظره نظاما خاصا فريدا .

ولكننا عندما نبدأ فى تحليل هذه الظاهرة التضاريسية والأهمية الكبرى التى علقها بها نجد أن الهضاب تتراوح فى أهميتها باختلاف المكان والزمان وأن الدور الذى يقول أنها تقوم به أحيانا ليس سوى دور سلبي وأحيانا أخرى دورا ايجابيا .

فمن ناحية ينظر الى الهضاب أو الى بعضها بوصفها موانع فهى كما يقول عوامل عزلة بين الشعوب ، أشد من عمل المحيط الذى يمكن عبوره بالسفن فى الوقت الحاضر .

أما هضاب الاقاليم المعتدلة فهى ليست موانع فاصلة بين الشعوب فحسب بل أن بعضها فيافى صحراوية بسبب فقر التربة وقسوة المناخ البارد . ففى أمريكا الجنوبية لايجسر الناس على اختراق هضاب الأنديز التى تقع بين شيلى

---

١ — ثالث طبعة له ظهرت فى سنة ١٨٧٦

٢ — نفس المراجع ١٨٧ المجلد الثاني ص ٦٣٣

وبين الأرجنتين . حتى في فرنسا من الخطر اختراق ممرات فلورات وليفيزو وكفا لارى في فصل الشتاء . ولكن من ناحية أخرى هناك هضاب تناسب معسكنى الانسان ولا سيما الهضاب التى تقع فى الاقاليم الحارة ، حيث يخفف الارتفاع من حدة الحرارة ويعمل على تلطيف الجو فكأنها حدائق غناء معلقة تصل فى أرتفاعها من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ أو ٥٠٠ متر، فوق أعمدة من المرمر أو الجرانيت كما هى فى الحقيقة قطعة من الاقليم المعتدل فى مناخه ومحاصيله وسكانه النشطين ١) .

هذه هى هضاب الحبشة فى أفريقيا وبيرو فى أمريكا الجنوبية وطن الانكا وكولومبيا حيث يسكن قبائل مويسكاس وغيرها من قبائل الهنود الحمر، وهضاب جواتيمالا وانهواك وشبه جزيرة يوكاتان مراكز حضارات أمريكية قديمة. ومن الممكن أضافة عدد آخر من أسماء الهضاب الى ماذكره ركلوس مثل هضبة تمبلاوس* فى المكسيك التى ترتفع من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ متر بين تيرا كالنتس وتيرا فرياس والهضبة الاستوائية الافريقية التي ترتفع فى بعض الأماكن الى ٢٠٠٠ متر ولاسيما كتلة أدماوا فى الكاميرون التى تنمو فيها حشائش السافانا فى قلب المنطقة الاستوائية. وهذه بعض أمثلة فائدة الهضاب فى الأقاليم الاستوائية والحارة. ويلحق بها أيضا هضبة ايميرينا فى جزيرة مدغشقر التى تعتبر بيئة صالحة للعمران خالية من المستنقعات الموبوءة التى تملأ السهول المحيطة بها .

وهكذا نجد أنه بينما يكون لظاهرة الهضاب أثر تكوين بيئة صالحة

---

٣ — ص ٦٣٥

* Tierras templadas, Tierras calientes, Tierras frias.

لسكن الانسان فى مكان ، يكون لها أثر عكسى فى مكان آخر بحيث تصبح بيئتها مستعصية على أى محاولة لانشاء مجتمع انسانى بل لمجرد وجوده فيها بينما هى جزر صالحة لازدهار مجتمع انسانى فى بيئة صعبة فى مكان آخر .

لم يبق إذن شىء فى فكرة الهضبة كمصدر خاص لنشأة مجتمع انسانى له صفات خاصة يحمل طابع الهضبة . « إذ أن الهضبة إما أن تكون بيئة صالحة أو غير صالحة لسكن الانسان ، حسب طبيعة الاقليم الذى يحيط بها » ذلك رأى ركلوس منذ وقت بعيد (١) . وكان بذلك يستدرك ماقاله من قبل من أن « المضاب ذات أهمية كبرى فى تاريخ البشرية » . وكأنه كان يعنى أن لكل هضبة ظروفها الخاصة ، ويجب أن تدرس على حدة ، وليس هناك قواعد عامة ، وأكثر من هذا ليس هناك قاعدة عامة بظاهرة « الهضبة » التضاريسية .

* * *

وتنطبق نفس هذه الملاحظات على الجبال — فقد قيل الكثير عن أثر الجبال على المجتمعات الجبلية ، حيث أنها طبعتها بطابع خاص جعلت أهل الجبال يمتازون به عن أهل السهول ، لأنهم تحت وطأة بيئة خاصة .

ومنهج البحث سهل ، نختار مثلا معينا لمجتمع جبلى ، ونلاحظ أهم مايمتاز به أفراد هذا المجتمع ، ونهمل صفاتهم الاصلية ، ثم نضع قاعدة مستقاة من هذه الملاحظات .

ولنأخذ أندورا مثلا ، لأنها اقليم منعزل ، وبلغ من عزلته أنه احتفظ بنظام سياسى خاص درس دراسة وافية ، وعرفت جميع مميزاته (٢) .

---

(١) ص ٦٣٥

(٢) Brutails, La coutume d'Andorre, Paris 1904

تشق هذا الاقليم الجبلى عدد من الأودية ، قطعتها التعرية الجليدية، وقد وضع سكانه نظاما معينا لمحلاتهم ، فجعلوا السفوح الظليلة (ubach) التى لافائدةمنها أرضا بورا[١]، تغطيها الأحراج الصنوبرية، أما السفوح المشمسة (sala) فأفردوها للزراعة عند قاعدة الجبل، وللرعى عند السفوح المرتفعة .

ولا تمكن الزراعة إلا حيث حفظت التربة من الانهيار ، وأمكن ايصال ماء الرى إليها [٢] . ولكن أفضل الأراضى القابلة للزراعة تمتد حيث لا يكاد يسمح المناخ بممارستها ، وحيث يتعذر السكن فى الشتاء ، ولذلك تركت مراعى .

وأكثر من هذا ، فان الماشية هى مصدر الثروة ومعيارها التقليدى ، وهى تمضى الشتاء الطويل القاسى فى حظائر خاصة تقع فى بطن الوادى، أو على أولى درجات سفحه ، بينما يقطعه السكان فى الانهماك فى صناعات منزلية صغيرة ، يقتلون بها الوقت الذى يضطرون فيه إلى البقاء فى منازلهم وما أن يذوب الجليد حتى يخرج الناس من منازلهم وتبدأ جولة أخرى فى حياة المراعى . فتساق الماشية إلى أعالى السفوح حيث تقابل قطعان أخرى ساقها أصحابها من السهول المنخفضة ، وتبدأ القطعان فى الرعى ، تنتقل من مرعى إلى آخر ، فى نظام معين ، حتى يكفيها أطول مدة ممكنة ، وفى الخريف تفرز القطعان ، فتستبعد الماشية الغريبة، ماشية أهل السهول ، وتستبقى ماشية أهل الجبل ، التى تبدأ رحلة أخرى نحو بطون الأودية حيث مشتاها . وما أن يأتى فصل الشتاء حتى تكون كل الماشية فى حظائرها مرة أخرى .

(٣) سور « ٢٣٠ » ص ٤١٥

(٤) نفس المرجع ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

ويوجد عدد من نطاقات المنازل، لكى تقابل احتياجات هذه الحركات الفصلية، فمنازل الشتاء تضمها القرى وهذه تزدحم بكل ما يمكن أن تزدحم به، لتأوى الناس والماشية والطعام والوقود فى أضيق مساحة ممكنة[1]. وأما منازل الصيف (bordes, cortals) فهى تتناثر على ارتفاع يتراوح بين ١٦٠٠ — ٢٠٠٠ متر يحيط بها حقول الشيلم والبطاطس وهى حقول فقيرة تحدد الحد الأعلى (فى الارتفاع) للزراعة.

أما أعلى من ذلك فلاتوجد سوى أكواخ الرعاة (orrys) حيث كانت جبن الضأن تصنع من قبل.

ويهاجر الناس هجرة فصلية، فى منازل الشتاء إلى أكواخ الصيف وراء قطعان الماشية، من الحظائر أسفل الوادى إلى المراعى أعلى السفوح، وهذه الحركة الفصلية تؤثر فى السكان تأثيرا خاصا، فهم يعيشون فى عزلة، عصمت بلادهم الصغيرة من براثن الدول الكبرى التى تحيط بهم، وحفظت لهم نظاما خاصاً يعيشون فيه، أوليجاركية تحت ستار الديمقراطية، يربط أهل أندورا بعضهم ببعض كأنهم بنيان مرصوص. إذ أن وطنيتهم قوية عميقة الجذور بلغت مداها فى النمو[2]، وإذا درسنا كذلك نظمهم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كما فعل بروتال، فاننا نجد أن مجتمعهم يمتاز بالتماسك والقوة تحفظ نظاما حكومياً ثابتاً. ولاسيما تلك التى تتعلق بملكية المشاع وحقوق الرعى،

---

(١) نفس المرجع ص ٤٦٢

(٢) سور «٢٣٠» ص ٤٥٣.

وأخيراً فأهل أندورا يمتازون بمظهر الجد والوقار وتمسكهم بأهداب الأخلاق إلا أن صدورهم تنطوى على أحر العواطف ، وهم يخضعون للتقاليد المرعية تستعبدهم وسائل الحياة القديمة، ويتمسكون بالخرافات التى يحترمونها لقدمها ولاتصالها بالعادات القديمة وهم يعتزون بتراثهم الأخلاقى ، وباختصار فهم جميعاً يخضعون لما توارثونه من عادات وتقاليد لا يخرج عليها إلا القليل .

هنا نجد نظاماً ريفيا مزدوجاً ، ونظاماً سكنياً مزدوجاً كذلك ، اقتران الزراعة القليلة المعرضة للأخطار بنظام رعوى تام ناضـــج ونشاط صناعى مؤقت غير ذى أهمية. ونجد تـكراراً فصلياً ، لحياة تتذبذب بين رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، بكل مايتعلق بها من مؤسسات سكنية ومنازل وحظـــائر للماشية أو للضأن ، أسفل الوادى وأعلاه. ونلاحظ جماعة تعيش حياة مستقلة خاصة بها ، تحترم التقاليد وترتبط بالوطن الأصلى وأفق محدود . هـذه إذن هى مجموعة صفات لا يمتـاز بها أهل أندورا أو اقليم أندورا وحده ، فهذه الصفات جميعاً تظهر فى الأقاليم الجبليـة المتشابهة فى الارتفاع وفى الظروف الجغرافيـة المختلفـة فى البرانس مثل مناطق سردينيا ، كابشير وكـاركاريت مع اختلاف طفيف يرجع إلى اختلاف الظروف المحلية ويقول سور « إذا درسنا بيئات البرانس فاننا نجد تشابها فى صفـات البيئة البشرية بينهـا وبين أندورا، ونجد فى البرانس نفس الهجرات الفصلية التى نجدها فى الـكربات التى درسها دى مارتون، كما أن برون وجيراردين درساً التغييرات الاجتماعية فى وادى انيفير، كما درس أنواع المساكن المختلفة فى منطقة ترنتينو ، الكاتب مارنيللى . ويلخص سور ذلك بقوله « إننا لانجد مناصا من الاعتراف بأن

حياة اندورا ليست إلانوعاً فصلياً من الحياة قد انتشر فى جميع بيئات أوروبا الجبلية ، حيث نجد تشابها فى الظروف الطبيعية وتشابها فى الظروف البشرية، وبالرغم من بعد الشقة واختلاف السكان[1] فى كتابه عن برانس البحر الأبيض المتوسط .

* * *

لن نحاول مناقشة تلك الحقائق التى اكدها هذا العدد من العلماء ووصلوا اليها بطريق على منطق . ولكننا نحتفظ ببعض التعليقات التى نراها هامة ولنحصر أنفسنا فى الحدود التى يحصر فيها الجغرافى سور نفسه، ولكننا نلاحظ أن الحقائق الاندورية لاتقتصر كلها على أهل هذا الاقليم وحده، لأن زراعة الطباق المنتشرة فى أودية اندورا ليست من خصائص البيئة الجبلية وحدها ، كما أن صناعة التهريب التى يوقف لها كثير من أهل اندورا جهودهم ، ليست قاصرة أيضا على سكان الجبال ، فمن الخطأ أن نقول أنها من خصائص حياة البرانس .

قد نسلم بأن هذه هى صفات الحياة الجبلية نفسها ولكن ينبغى علينا اذن أن نقتطع من الجبال مناطق البرانس التى تقع بين سهل روسيلون الساحلى ، وامبروان ، واقاليم البرانس المرتفعة مثل كابشير وكارليست واندورا وسردانيا — كما يجب أن نقتطع منها الوديان الوسطى فى قطالونيا

---

(١) نفس المرجع ص ٤٨٠ — ٤٨١

بجداولها المتدفقة ومروجها اليانعة وكرومها ومناجمها ومصانع نسيج القطن ومدنها الصناعية الأخرى ثم هل نستطيع أن نهمل شأن العنصر والسلالة ؟ فلنسلم بأن الاندوريين جبليون ، ولكنهم قبل ذلك قطالونيون فى العنصر وفى اللغة وفى الميول والعواطف ، وفى الثقافة والصفات وانهم يشتركون فى معظم صفاتهم وأخلاقهم مع القطالونيين الآخرين والفرق الوحيد بينهم وبين القطالونيين الجبليين ان هذه الصفات فيهم أقوى وأبرز . ويعترف بذلك سور إذ يقول « ان الاندوريين من طراز القطالونيين الجبليين[1] »

فماذا لو تخطينا أكثر من ذلك النطاق الذى حصرنا أنفسنا فيه ، وحاولنا أن نعمم ونوحد صفة عالميه واحدة يتصف بها سكان الجبال عموما كنتيجة لسكنى بيئة طبيعية واحدة وهى بيئة الجبال . لو فعلنا ذلك لوقعنا فى خطأ جسيم .

هل نستطيع أن نتحدث عن شيء مجرد مثل الجبال مثلما تتحدث مس سامبل وغيرها من الكتاب الذين لايعبئون بالفروق المحلية ، التى توجد بين منطقة وأخرى ؟ وعم نتحدث ، عن الكتل الجبلية أو عن الوديان المنعزلة فى أعطافها كالجزر الضائعة وسط المحيط ، حيث تنشأ أشكال معينة من النشاط البشرى ، كانما نشأت فى نفس السكان وتطورت فى نفس البقعة على رأى هؤلاء الكتاب . وكيف نستطيع أن نغفل الفروق بين أقاليم أقل تقطعا من غيرها ، وبين أقاليم أكثر عزلة من غيرها وبين أقاليم تقطعها طرق كبرى

---

(١) سور « ٢٣٠ » ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣

فتتلاقى عندها تيارات ثقافية مختلفة وتيارات من هجرات بشرية متعاقبة الواحدة أثر الأخرى على مر العصور ؟

ما هى الصلة بين منخفض الموهوك أو فتحة كامبرلاند وبين بقية جبال الابلاش؟ وماهى العلاقة القياسية بين ممر برنروبين الاقاليم الجبلية المدهشة التى تحيط بها ؟

ثم من هو «الجبلى» ذلك المخلوق المجرد المثالى العالمى - الانسان المحدود الأفق - بالضرورة - لوجود عائق جبلى يفصل بينه وبين جيرانه ، العبد الخاضع منذ ولادته للتقاليد ، المحافظ الذى يرتبط بالماضى بأواصر قوية ، حامى حمى التراث المادى والثقافى الذى تركه له الأقدمون ، إذ أنه لايوجد جديد يثير فيه أى رغبة فى التغيير ، عادات قديمة ، ملابس تقليدية ، لغات قديمة ، مذاهب دينية قديمة ، اليست هذه صفات الرومانس سكان انجادين والباسك وما يمتازون به من ملابس تقلبدية والفودا Vaudois ومذهبهم الدينى الخاص ، والاندورا وامتيازاتهم الخاصة ، ثم الالبانيون ولهجتهم الخاصة واسلامهم ؟ أما فيما عدا ذلك ، فالجبلى (من الناحية النظرية التجريدية) نشيط شريف ، يحيى حياة صحية داخل نطاق الأسرة الأبوية ويرتبط بها ارتباطا قويا دئوب على العمل لا يمل ، خشن يتحمل المشاق ، لايعرف الترف ، ولا تهمه الراحة ينقطع الى عمله فى غير كلال ، منافس خطير لأهل السهول ومن ناحية أخرى فلا هو عالم ولا هو فنان ، فالبيئة أقسى من أن تنجب مثل هذه العبقريات . ولكننا نلاحظ أن سكان

الابنين من نفس العنصر الذى يتكون منه التوسكانيون ومع ذلك فهناك عبقرية فى الابنين وخشونة فى التوسكانيين .

ومهما يكن من شىء فلنسلم بهذا ، ولنتساءل هل حقا الجبل متأخر بالنسبة لسكان السهول ؟ أن هذا لن يرضى روسو أو كروبتوكين من بعده ، دفاعا عن أهل الجورا الجبليين ، هل سكان دوفينيه كما يقول ستناهل أقل ذكاء ودهاء من أهل بوسيرون؟ وهؤلاء اللذين هاجروا إلى كل بقاع الأرض من سكان الجبال، هل هم أشد الناس التصاقا بارضهم وأضيقهم أفقا ؟ قد يقال أن الفقر دفعهم الى الهجره ولكن الفقر ليس أسما من أسماء البيئة الجبلية ، ومع هذا فاقيمة القوة الدافعة، أننا نهتم بالنتيجة وأخيرا فاننا أيضا نستطيع بنفس السهولة التى يضع بها النظريون تلك القواعد العامة أن نقول أن ساكن الجبل بحكم اشرافه من فوق قمم المرتفعات أكثر حبا ورغبه فى الأفق الواسع مثله فى ذلك مثل البحار نفسه ،وهذا منطق ازاء منطق وليس أحدهما أفضل من الآخر . . وأما عن العبقريه العزيزه الى قلب الاب ديبورا ، فأننا نقول أنها ليست واقعه فى نطاق الجغرافى ، حتى ولو كان جغرافيا بشريا . .

هناك فكرة جغرافية خاصة بالمدنية وهى تختلف عن فكرة المؤرخ أو الفيلسوف (١) كما صورها جيزوت وكما قبلها الكتاب فى فرنسا تمتد وتشمل

---

(١) من هذا الموضوع الواسع المرجع الى

Niceforo, les indices numériques de la civilisation et d progrés, Paris, Flammarion, 1921, m-8.

حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والجمالية والاخلاقية والدينية . أما فكرة الجغرافى عن المدنيه فهى محدودة تشمل نشاط المجتمع فى تنمية موارده مما تحت يده من موارد طبيعية وما عسى أن يكتشفه، وهى تكاد تكون خاضعة للقياس ، أى قياس درجة استغلال الامكانيات الطبيعية للاقليم . وأما دراسة علاقة هذا الاستغلال بالبيئة الطبيعية فسيعقد المسألة ويصعبها . . وخير لنا أن نعترف بذلك من أن نخوض فيما لانعرف . والا سنقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من تناولناهم هنا بالنقد . أو نقول مثلا أن جوستاف كوربيه المصور المشهور كان من أهل جورا وان ستندهال الكاتب كان من جرينوبل أى من دوفيه مثل برليوز . . ولو قلنا ذلك لطلب منا أن نبحث ما إذا كان هذا الرسام قد تأثر ببيئته الجبلية فى لوحاته او أن الكاتب ستندهال كان يعبر عن نفسية الكوخ الجبلى المنعزل أو أن أورنان فى وادى لوى ، مسقط رأس كوربيه أو جرينوبل على ضفة نهر ايزير كانت على حق فى تمثيل البيئة الجبلية .

الحق أنه لا يوجد مطلقا وحدة خاصة بالبيئة الجبلية ، توجد فى بقعة من سطح الأرض ارتفعت عن مستوى سطح البحر ، كما لا يوجد طراز واحد من بيئة للهضاب ، أو بيئة السهول ولكن هناك احتمالات قياسية تقابلها فى جهات جبليه مختلفه من العالم وان هذه الاحتمالات لفتت اليها الانظار ، بما تحمله من طابع مدنى معين ، يمكن مقارنة مظاهره فى جهات العالم المختلفة ، إذا غضضنا النظر عن الاعتبارات الفردية المحليه .

عندما تتجمع لنا دراسة وافية عن البيئات الجبليه فى انحـــاء العالم كما تجمعت عن البيئات فى أوروبا ، ربما استطعنا أن نستخلص بعض الاساليب الخاصةالتى يتبعها الانسان فىهذه البيئات، ليلائم نفسه معها ويكيفها لاغراضه، ولأمكن لنا أن نستخلص أيضا الامكانيات التى تقدمهـــا أنواع البيئات الجبلية المختلفة . . وهذه الدراسات لم تستكمل بعد ، فمن الخطأ اذن أن نضع قواعد عامة قائمة على دراسة ناقصه .

الفصل الثانى

الاقاليم الطبيعية الصغرى وحدودها

البيئات الجـــزرية

سوف لا نعبأ بنقد هذه الفكرة نقدا كاملا ، فمن العبث أن نقدر مجال الامكانيات التى تحتلها الجبال أو السهول أو الهضاب أو المنخفضات أو مجمل الوسائل التى تضعها فى خدمة البشر ولكن هلانستطيع أن نحلل هذهالوحدات الزائفه الى عناصرها وتناقشها ؟

كلمة جبل ، كلمة واسعة المدلول غير محددة المعنى ومن ثم كانت الفكرة التى تحملهـا غامضة وتحليلها سيئا . بل ان لغـات أوروبا العديده لتعجز عن التعبير عن التنوعات المختلفـة التى تدخل تحت هذا اللفظ ، بحيث يمكن أن أن تضع تعبيرا لكل أنواع الجبال والبيئات الجبلية ، ويقال أن فى لغة الطوارق[1] خمسة عشر تعبيرا مختلفالجميع أنواع التلال التى يرونها ، كل تعبير يدل على شكل التل أو عن طبيعة صخوره أو عن لونه أو عن غـــير ذلك من التفاصيل .

ومن الغريب أن الجغرافيين يلجأون عند وصف المناطق الجبلية الى

(١) شودو (١٨١) الجد الثاني س ٢٠

استعارة الالفـاض المحلية التى يطلقها أهل البـلاد المختلفة والتى التقطها منهم الرحاله على هـذه البيئات وهذا الاسم فى الغالب يطلق على منطقة او أقليم مثل الـكريت (crêts) فى جورا ، بوى (puy) فى أوفيرن وباللون (ballons) فى الفوج وهكذا من الأسماء المحليه [١] .

ليس الجبل وحدة والا فماذا يـكون الوادى الجبلى ، اليس طرازا لوحدة جغرافية حقيقية ، وحـــده فى السكان أو فى الزراعة وفى المدنية ، وعندما ننظر الى أوديه الالب أو الجوار أو البرانس أوالأبنين أو القوقاس أو الهملايا الانجدأنفسنا أمام تجمعات جغرافية حقيقية يمكن أن نعقد مقارنات مفيده بين احداها والأخرى ؟

ولـكن ألسنا أيضا بقادرين على أن نجـد على ضفاف الأنهار الـكبرى وحدات مشابهه واضحة الحدود من السهل التعرف عليها من الوهلة الأولى، فهى واضحة بدائيـة فى بساطتها وفى مظهرها الخارجى وفى تـكوينها الداخلى وفى كل صـفاتها المميزه ؟ ألم تجتـذب اليهـا مستعمرات بشرية متقـدمة عديدة ؟ ثم كونت ما يمكن أن نسميه سلالة برمائية ؟ [٢] .

وألم يحدث نفس الشىء على ضفـاف البحيرات وعلى سواحل البحار ، حيث اكتظ السكان من طراز معين ، وطبعوا بطابع بحرى على مر العصور

---

(١) جونيير له اراء فى هذا الموضوع فى (١٨١ ب) المجلد الأول ص ٢٠١

(٢) برون (٦٦) ص ٩١ ــ ١٩٢

وفى جميع البيئات البحريه منذ عصر حضارة فضلات المطبخ الدنماركيه إلى يومنا هذا من الدنمارك الى الكورنيش والريفيرا ؟

وعلى العموم ، ليس هناك حدود طبيعية من طراز بسيط لمجتمع انسانى يظهر للباحث من أول وهلة بحيث يستطيع أن يميزه من خريطة كنتورية ، مما يسمح لنا بدراسة نشأته ونموه من ناحية علاقته بالظروف الجغرافية التى شكلته ، هذه هى فكرة الجغرافى الذى أوقف فصلا من كتابه « الجغرافية البشرية »[1] لباب بعنوان (الجزر) وهو لايعنى جزر البحر . التى يهملها لأن غيره من الناس لاحظوها وكتبوا عنها منذ زمن بعيد ، ولكنه يقصد جزر الصحراء أى الواحات ، والجزر التى تقع فى عالمنا الآهل ؛ وهى الجبال والأودية الجبلية . ولا ريب أنه مستعد لأن يمد فكرة الجزرية هذه لتشمل السهول الساحلية الصغيرة ، الصغيرة المساحة المزدحمة بالسكان والتى تشمل أيضا بعض الدلتاوات ذات المميزات الخاصة ، وضفاف الأنهار التى تعتبر كالجنان وسط القفار والتى جذبت اليها من قديم الزمن الانسان فاستقر وأقام العمران وطيد الأركان ، مثل وادى النيل الأدنى فى مصر القديمة ووادى الفرات وما بين النهرين التى تعتبر بحق واحات كبيرة ممتدة وسط الصحراء .

ألا نجد هنا نقطة البدء الحقيقية التى كنا نبحث عنها ، ولكن ألسنا فى خطر مواجهة الأوهام القديمة التى كنا نصارع دائماً لتبديدها ، إن هذه إلا

---

(٤) فيدال (١٥٧)

الأوهام تظهر من حين إلى حين فى اصرار وثبات وفى هدوء وبلباقة بحيث تصبح خطراً حقيقياً . ولنر ما إذا كانت تلك الأوهام الجديدة لا تكمن فى الأذهان فيما يختص بدراسة وحدات أساسية مميزة وهى الجزر . ولنتخذ مثلا نموذجيا للبيئة الجزرية لا بمعناها الاستعارى ، كما فعل برون ، ولكن بمعناها الحقيقى ، جزر البحر . ونخشى أن تكون مناقشتنا مملة متعبة ، ولكن هذا أمر لابد للقارىء من معرفته .

١
الأثر الطبيعى للعزلة

إذا كانت هناك فكرة أكثر ضرورة من غيرها فهذه الفكرة هى مايتعلق بالمجتمعات الجزرية ، فالجزر هى أكثر البيئات تحديداً وهى إحدى البيئات المنعزلة ولذلك فهى وحدات أكثر بساطة من غيرها [1]، التى ذكرها برون فى كتابه الجغرافيا البشرية .

لم يكن النظريون المخلصون من أمثال بودان ومونتسيكيه هم الذين لاحظوا هذه البيئة بصفاتها الحقيقية أوالمفترضة ووضعوها على رأس القائمة فى كتاب . فقد اكتفى بودان بأن يقول فىالكتاب الخامس منالجمهورية أن أهل الجزر — طبقاً لمثل قديم — أقل الناس ائتماناً (Insulanos omnes inbidos habere) وعلى الحكيم أن يحذرهم « فالجزى ، تاجر أجنبى » رجل على استعداد أن يساوم مع زبائنه ويغشهم » . وكذلك مونتسكيه لم يفرد له إلا فقرة قصيرة [2] جداً لكى يذكرنا بأن أهل الجزر أكثر غيرة على حريتهم من أهل القارة ويقول أن تعدادأهل الجزر صغيربحيث لايستطيع أن يستعبد بعضهم بعضاً ، كما هى الحال فى الدول القارية الكبرى وهذه الفقرة على قصرها غامضة المعنى غيردقيقة المعلومات .

فكرة الجزرية اذن لم تشرح من قبل ، ولم يوضحها فى الواقع الا علماء التاريخ الطبيعى، الرواد لجغرافينا البشريين الحاليين، الذين تعلموا على أيديهم

(١) برون (٦٦) الفصلين ٦ ، ٧

(٢) برون (٦٦) ص ٧١

وعلى أيدى رحالة القرن الثامن عشر ، الذين اكتشفوا عالم المحيط الهادى للعلماء ، بما فيه من مئات الجزر المتعددة الغريبة ، ولذلك كان ميراثهم فى أعلى درجات التقدير والتقديس والصون .

وتظهر فكرة الجزرية فى كتاب والاس الذى يعتبر حجة عن « حياة الجزيره » (Island Life)[1] وهى قائمة على معلومات بسيطه للغاية فمها كان نوع الجزيرة ومهما كان الطراز الذى تنتمى اليه فهى تمد الاحيائى بمعمل كبير[2] وما عليه الا أن يفسر نتائج تجارب به .

ففى الجزيرة تؤثر عوامل البيئة مهما كانت غريبة ورتيبة على سلالات الحيوانات بشكل دائب منتظم مستمر ، وهذه السلالات منعزلة عن أنواعها الأصلية التى انحدرت منها ومنقطعة عن الاتصال بأقاربها من السلالات القارية ، ويفصلها عنها البحر . ولذلك فهى فى حمى عن أى منافس خارجى ولذلك أيضا فأى تنوع يظهر فى السلالات يقوى ويسود فى عدد كبير من هذا النوع من الحيوانات فى الجزيرة ويجب ان نلاحظ أن من أهم مميزات المجتمعات الاحيائية الجزرية قلة عدد الأنواع النباتية عن الحيوانية فيها . والملاحظة الثانية أن هذه الأنواع الأحيائية قد عزلت فى جزيرتها قبل أن تنفصل هذه عن جسم القارة . فلم تتمثل فيها إلا الأنواع الأحيائية القديمة ، ولم تتصل بتيار التجديد فى صفات الأنواع والسلالات التى تحدث فى القارة باستمرار. ومن مميزاتها أيضا أن أحياءها تمتاز بأنها متدهورة الصفات .قزمية

---

(١) الطبعه الثانيه ـ لندن ١٨٩٢

(٢) كينوت (٥٢) ص ١٩٤

صغيرة الحجم ، ولا تظهر هـذه الصفة بين الحيوانات المتوحشة فقط ، مثل دببة اليابان أو غزلان كورسيكا أو سردينيـا أو فرس النهر القزمى والفيل القزم فى جـزر البحر الأبيض المتوسط ، ولكن تظهـر أيضا فى الحيوانات المستأنسة مثل خيول البونى فى شتلندا وفولكلند وايسلندا والضأن الأسود والأبيض فى جزر فاروز وهبرديز وشانت واركنى وشتلند ..

والنتيجة لهذا كله هى أن تجانس الأنواع وقلة العدد والتقادم والقزمية أو التدهور الخلقى [1] ، هى النتائج المباشرة أو غير المباشرة للصفات الجزرية القوية وللعزلة وسط المحيط .

وتظهر الآثار العديدة المترتبة على هذه العزلة بأشكال عديدة واضحة ، منها فقدان المقـدره على الهرب من عـدد كبير من طيور الجزر وحشراتها [2] ، وهذا يرجع فى رأى المدرسة اللاماركيه إلى أثر الرياح المباشر حيث أن شدة الرياح وتكرار هبوبهـا يصيب اجنحتها بالعجز ، وفي رأى المدرسة الداروينيه يرجع إلى الانتخاب الطبيعى التى اختارت الأنواع العاجزة عن الطيران فقط ، حيث أن الأخرى القوية الطيران حملتها الرياح وأغرقتها فى اليم [3] ..

الانتقال من المناقشة بين الحيوان الى الانسان ، أمر سهل ، وقد سبق

---

(١) يعرض كينوت الحقائق ويشرحها فى ٥٣ ص ١٥٣ ، ١٨١ ، ٤٠٤ ، ٤٧٩ .

(٢) عن عدد الصفات الخاصة بالنبات الجزرية مثل نمو العائلات الشجرية .. الخ ارجع الى كوستانتين ١٠٤ فى (١١) ١٨٩٨ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٣) بون (١٩) المجلد ١٨

أن شرحنا فى مقدمة هذا الكتاب الأسلوب الذى اتبعه فى ذلك هبوليت تين وأتباعه ، وليس من الصعب بل ربما يكون من السهل الانتقال من الحيوان إلى الانسان فيما يختص بدراسة البيئة الجزرية . فهى منعزلة منفصلة عن القارات يحيط بها الماء ويمدها بالحماية ولا سيما فى الأزمنة القديمة عندما كانت صور وأرود فى جزيرتها الصغيرتين تستطيعان أن تتحديا الأعداء — أليس فى إمكانها أن تمد المجتمعات الانسانيه التى تلجأ اليها بظروف واحده لاتتغير ، ولا تمتاز بالتنوع من أسباب البقاء والموارد الطبيعيه على الأقل من ناحية الحيوان والنبات ؟ اليس من الطبيعى أنها توجد مجتمعات ذات طابع محلى يشبه بعضها بعضا شبها قويا ، ومن السهل الموازنة بينها لأنها جميعا تعتمد على موارد واحـــدة فقيرة وستظل الى الأبد تتأثر بنفس البيئـــة التى تطبعها بطابعها الخاص . .

لقد أوصى الرحاله والمكتشفون بهذه الفكرة للجغرافيين ولاسيما من دراستهم للميزات البيولوجية التى تمتاز بها نباتات الجزر وحيواناتها وكان من أهم هؤلاء كوك[1] الذى وصف فى كتبه مميزات جزر ماديرا وازورس وصفا رائعا . .

وقد كانت أهمية هـذه الكتابات والوثائق المحلية سببا فى إثارة الرأى العام العلمى فظهرت عـدة مدارس فى التفكير تضم عددا كبيرا من العلماء والمفكرين . فقال الاقتصاديون أن السواحل الجزرية مهيأة خصيصا للنشاط البحرى والتجارى . وتسابق المؤرخون فى كتابة تطور تاريخ الجزر

---

(١) كوك مجلد ١ ص ١٣ — ٢٤ ، مجلد ٤ ص ١٩٨ — ٢٠٩

البريطانية واليابانيةودرس القانونيون وعلماء اللغات نظم أهل الجزر ولغاتهم، ففي كتاب مس ساميل نجد أمثله غريبة (١) لقانون العقوبات في جزيرة مان الذى يميز بين عقاب السرقة لبعض الحيوانات دون غيرها وبين سرقة أشياء أخرى، وامثله للمفردات اللغوية التى يستعملها اهل الجزيرة والتى تختص بالبحر فقط دون سواه فالقاضى مثلا يحلف قائلا «أنه سيكون محايدا حيدة هيكل سمكة الرنجه العظمى» وهذا الهيكل يقع فى وسط السمكة تماما. لا ينحرف يمينا ولا شمالا، وهنا نجد مجموعه شيقه من النزهات والاوهام والسخافات، إذ انها لم تعالج الفكرة الأساسية للمسألة: هل نستطيع أن نستنتج من هذا كله أنه توجد فعلا مجتمعات جزرية ذات صفات خاصة يشبه بعضها البعض الآخر، بسبب جزريتها مهما اختلف المناخ، ومهما اختلفت العصور وبمعنى آخر هل هناك قسم من البشر ينضوون تحت عنوان «الجزيرة» مهما اختلفت الظروف ويستطيع أن يدرسها الجغرافى البشرى أو المؤرخ، فلندرس المسأله بدقه فانها تستحق الاهتمام..

(٢) ساميل الفصل الثاني

— ٣ —

السواحل الجزرية وأثرها

هناك ثلاث معان محددة مميزة فى معنى كلمة جزيرة العام، تنفع وتؤيد هؤلاء الذين يحبون التعميمات التى نعترض عليها . فالجزيرة تشتمل أول كل شيء على نطاق ساحلى، يحيط بشواطئها، ومن ثم كان طرازا كاملا للبيئة الساحلية، وثانيا على جزء من سطح الأرض يقع تحت تأثير العوامل الجوية، وأخيرا فهى شيء منعزل بكل ما تحمله العزلة من آثار بحكم موقعها الجزرى، هذه هى ثلاثة معان للبيئه الجزرية تتداخل بعضها فى البعض الآخر بسهولة، وتعتبر كلا منها خطوة للاخرى، ونرى أنه ينبغى فصل أحداها عن الأخرى حتى لا يختلط علينا تميز بعضها عن البعض . .

الجزيرة أولا نطاق ساحلى ، ولن نعترض على هذه الفكرة فى الوقت الحاضر ولكننا نقول أن هذا تحصيل حاصل ، وليس من التقاليد العلمية أن نجعل من السواحل قسما قائما بذاته، فالرجل الجاهل الذى يسيرفى بهومن القباب، ثم فى بهو من العقود المدببة ولايجد فارقا بين أحداها والاخرى لانه لايريد أن يرى هذا الفرق أو يشعر به، ربما كان هذا الرجل متمتعا بالحرية الشخصية ولكن جهله لن يعنى أن ليس هناك فارقا بين البهوين ولن يغير من قواعد المعرفة الآثارية شيئا . . ولكن أن نهمل محتويات الجزيرة ، ونهتم بأشكال السواحل لا يمكن أن يسمى أقتفاء لاثر البيولوجى لأنه يفـــرق بـين

أنواع الجزر تفرقة قائمة على محتوياتها وليس على أشكالها [١] فهناك من ناحية الجزر القارية التى كانت أجزاء مكملة للقارات،أو أجزاء من قارات قديمة ثم انفصلت عنها وأحاط بها الماء فكونت جزراً ، وهناك من ناحية أخرى الجزر المحيطية جزر بطبعها وبحكم تكوينها ، جزركانت باستمرار جزرا كالجزر المرجانية مثل برمودا ، والجزر البركانية التى ظهرت من قلب المحيط مثل جزر هاواى وجزر ما سكارين ، وأما الجزر الساحلية فأننا نضمها فى قائمة « السواحل »

ويؤكد الجغرافيون بل والاحصائيون والاقتصاديون وجود مجتمعات ساحلية مختلفة عن المجتمعات القارية .

ومن التعريفات الشائعة بينهم « أن شواطىء البحار تكون شعوبا من نوع خاص تسود بينها عواطف احترام الاسرة ، واحترام التقاليد مع حب التجديد والشوق الى التجوال كحب الرعاة الى التجوال » [٢] ولنؤكد ـ أن هذا التعريف على غرابته أكثر دقة من غيره ، وهذا لايهم كثيراً . . أنما النقطة الهامة أن نفهم تماما ماذا يعنى بالساحلية أهى تعنى الحياة الجزريه من ناحية أو هى تشمل الحياة الجزرية ـ فيا تشمل ـ لان الجزر تشتمل على أجزاء ساحليه ؟

والبرهان القاطع على أن سكان السواحل يكونون جزءا هاما من المجتمع البشرى هو دراسة خريطة توزيع السكان فى العالم ، فالسكان لا يزدحمون

---

(١) جوستاف ليبون ، الحضارات الاولى ، باريس ١٧٨٩ ص ١٤٤ .
(٢) ركلوس (٣٨٧) المجلد ٢ ص ٦٤٥

فقط على السواحل ولا يتركزون عندهـــا فحسب ، بل لوأننا رسمنا خطا بين داخلية أى أقليم وبين سواحله ، لوجدنا أن السكان يزدا دون كثافة كلما قاربنا الساحل بل أحيانا ـ ولاسيما فى حالة الجزر الصغيرة ، مثل جزر الأنتيل الصغرى أو جزر المحيط الاطلسى ، أو المحيط الهندى ـ يتركز معظم السكان على السواحل ، ويهجرون داخلية الجزر حتى ولوكانت ظروفها المناخية ألطف وكانت أحسن من ناحية ملاءمتها للصحة . وهذا دون شك يفرد الساحل بميزة خاصة ينفرد بها عن داخلية القارة .

هل هذه الوقائع صحيحة ؟ ، أحيانا ولا شك . فهناك مناطق معينة نستطيع أن نرسم لها خرائط توزيع سكان على مساقط تمتاز بالمساحة المتساوية التى ترجع الى روروباخ [١] فضل أكتشافها . ومن ثم أدت خدمة كبرى للجغرافية ويمكن فى هذه المناطق أن نجد تركز السكان بشكل واضح على السواحل . وقد لاحظ المؤلف [٢] من دراسة أحـــدى هذه المناطق على أساس تقسيمها الى مناطق عرض كل منها خمسة كيلو مترات (ما عـــدا المنطقتين الأولى والثانيـــة فالاولى على الشاطىء مباشرة جعل عرضها كيلو مترين ، والثانيـــة ثلاثة) ومع وضع متوسط الكثافة تبين وجود ما يلى :

---

(١) روبرت

La densité de la population en Bretagne calculée par zones d'égal éloignement de la mer.

(١٠) مجلد ١٣ ص ٢٩٤ — ومابعدها

(٢) R. de Felice, la Basse-Normandie, Paris, 1907, p.516

المنطقة رقم (١) عرضها ٢ كم الكثافة ١٧٧ كم مربع والسكان ١٩٠ر٤٨٧ نسمة

» » (٢) » ٣كم » ١٠٥ ك » » ٦٢٢ر٢٧٦ »

» » (٣) » ٥كم » ٨٠ ك » » ٦٥٥ر٢٩٥ »

» » (٤) » ٥كم » ٨٠ ك » » ١٣٨ر٢٤٢ »

وهذه الحالة — فى بريتانى — ليست فريدة فى نوعها فهى تظهر مرة أخرى فى الدول العريقة ، حيث تنشط المدنية الصناعية ، وترجح كفتها على غيرها من وسائل الاقتصاد القومى الأخرى كما أن كاتبا آخر درس نورمانديا السفلى وهى ملاصقة لبريتانى ، فى نطاق يبعد عن الشاطىء بنحو ١٥٠٠ متر فوجد أن كثافة السكان ١٧٧ فى الكيلو متر المربع على الساحل الشمالى لكونتان ، ١٥٧ للكيلو متر المربع على ساحل كالفادوس ، وأكثر من ١٠٠ على الساحل الغربى كما أن السكان يزدحمون شمال نهر السين على طول الاقسام الساحلية من كو coux (٢)

وسنقبل هذه الوقائع دون مناقشة ، على أنها مبرهنة . ولكن فلنلاحظ فقط أنه لاتوجد مطلقا قاعدة عامة ، فأذا كانت هناك سواحل أكثر أزدحاما فى السكان من هذا الطراز الذى يطلق عليه كاميل فالوفى كتابة عن البحر أسم « سواحل تجمع السكان » ، فهناك أيضاً سواحل أخرى يسميها

---

(٢) سيمون (٢٢٩) صـ ٤٣٢ ـ حالات مشابهة تركز السكان على الشواطىء بالنسبة لشواطىء بحيرة جنيف ، وماجيورى ٤٠٠٠ وقد لاحظ بروث (٦٦) ١٨٧ ـ ١٨٨

« سواحل تتشتت السكان » ونحن لانوافق على هذه التسمية ، لما تتضمنه من صور وتخيلات معينة ، وهى أقل أزدحاما بالسكان من الداخل ، لأنها بمثابة الحدود أو الجبهة الخارجية للاقليم وهـذا التناقض والتعارض بين طرازى السواحل ، يعتبر برهانا كافيا لخطأ التمسك بفكرة مبدئية عن السواحل باعتبارها مراكز اجتذاب السكان . ولو أننا نحينا جانبا هذا البرهان السلبى أو أخذنا الأرقام التى أقتبسناها ، وغيرها من كثفاقات السكان الحالية فهل يعنى هذا أن هنـاك أثرا قويا للساحل على السكان يجتذبهم اليـه ..؟ وبعبارة أخرى ماهى الصفات التى تؤهل السواحل العمران ؟

* * *

ليس العهد ببعيد منذ أن وضع رتر نظريته المشهورة عن العلاقات الساحلية وقد سبق أن نقدنا هذه النظرية فى غير هذا المكان . وبينا الاعتراضات البديهية التى يوجهها اليها النقد (١) ولكنها لاتزال موجودة بعد أن أعيد صياغتها أوعدلت أو باقية على صورتها الاصلية . . فتقدم الدول الاوربية وتفوقها يفسر — كما تفسر الكثير من التظاهرات المتضاربة — على أساس واحد هو كثرة الخلجان البحرية التى تحف بها . وطول سواحلها ، بمقارنتها بسواحل القارات الخمس الاخرى وعلى هـذا النحو أيضا يفسر تفوق اليونان القديمة أو كما يقول فليبسون (٢) العالم الايجى القـديم الذى كان يتكون من عدد كبير من الواحدات الطبيعية ، والاشكال الجغرافيـة

---

(١) انظر أعلاه الباب الاول ، الفصل الثانى

(٢) انظر رقم (١٠) ١٨٩٨ ص ١١٢
Philippson, Technique de l'Egeide

المتباينة .. فتلك البيئة مرتفعة تشقها الخلجان والالسنةالبحرية،ذات وسهول ساحلية صغيرة يانعة الخضرة تطل عليها صخور جيرية جرداء منظر رائع من المرتفعات التى تطل على زرقة البحر العميقة . .

قيل هذا كله وأكثر منه ، ورفض كل هذا بأمثلة مضادة [1] . لانه ليس صحيحاأن أعمق الألسنة البحرية من بين الخلجان والفيوردات ـ أكثرها أزدحاما بالسكان ، وليس صحيحا أن نمو القوة البحرية الألمانية ـ التى لاتقوم علىأساس ساحلى متعرج ، أو القوة البحرية الروسية ، أو قوة فرنسا البحرية ليس صحيحا أن نمو هذه القوى البحرية قائمة علىأساس من السواحل المتعرجة أو الخلجان ـ والالسنة البحرية ، كما هى الحال فى بلاد اليونان بل أن النرويج ـ حتى عصر قريب ـ كانت قد فقدت حماسها للبحر ، ذلك الحماس الذى أورثه الفيكنج فيهم وباختصار ليس صحيحا أن كل شاطىء متعرج يدعو الى النشاط البحرى ، وأن كل ساحل مستقيم يصرف سكانه عن هذا النشاط .

فى قلب أوروبا ، توجد جزيرة ، ذات سواحل مرتفعة متعرجة ، غنية فى مواردها الزراعية والبحرية ـ هى جزيرة كورسيكا ، التى كانت على اتصال دائم منذ فجر التاريخ باقدم المدنيات وأحدثها ، قريبة جداً من ساحل بروفنسال الفرنسى ، وتقف على أبواب ايطاليا ، مواجهة لسواحلها

(١) قارن هذا بما أورده ديبو (١١)
Dubois, du role des articulations littorale.
١٨٩٢ ص ١٣١ ومابعدها . فالو (٩٢) ص ٢٦ ــ ٢٧

الوسطى ، أرض وسط بين كل من فرنسا وايطاليا ولكنها لم تعرف قط النشاط البحرى ولم يظهر فيها تجمع ملاحى ولم يعرف من بينها ملاح واحد بل أن موانيها القديمة من وضع الأجانب عنها ، أسس التوسكانيون ميناء بونيفاكيو ، وأسس أهل جنوا ميناء اجاكسيو ولايوجد بها فى الوقت الحاضر سوى ١١٠٠ شخص يشتغلون بصيد السمك على ٣٠٠ قارب للصيد وهوعدد أصغر مما تخرجه ميناء بريتانى صغير[1] ولا يزال الكورسيكى جبليا ، راعيا أو فلاحا ، يولى ظهره للبحر بنفس عدم الاهتمام الذى يوليه أياه الالبانيون الذين عاشوا منذ أقدم العصور على الساحل الا يللبرى الالبانى ولم يستفدوا قط من موارده [2] فلا هم فلاحون ولاهم صيادو سمك ولا علاقة لهم بالبحر وليس لهم أى مواصلات تصلهم بالساحل أو الجزر الذى تحف به أو بالبر الآخر الادرياتى المقابل لهم ، ويقال أنهم مثل متناقض غريب للاغريق ولكن أليسو أغريقاً أهل لاكونيا الذين لم يعرف عنهم حب البحر اطلاقا ؟

وهل يريد أحد مثلا عكسيا بعد ذلك ؟ هناك ساحل منخفض مستقيم لاعوج فيه تحده الكثبان الرملية لاينمو عليه سوى غطاء رقيق من الحشائش تربته من الجدب بحيث أن أمهر الفلاحين وأكثرهم دأبا لايستطيع أن يقيم أوده منه هذا هو الساحل الفلنكى من كاليه الى مصب الشلدت كما يصفه لنا رأوول بلانشار . ومع هذا توجد سبع موان على جبهته الممتدة ١٣٠ ك.م

---

(١) برون (٢١١) ص ٤٧١ — ٤٧٢ . (٢) كوجيك (٢٢٣) ص ١٠٨

أى بمعدل ميناء كل ١٨ ك م[1] وهى كاليه ، جرافيلين ، دنكرك ، نيو يورت. أوستند ، بلاكنبرج ، وأخيرا زيبروج ، سبع فتحات ثغرية فتحت فى أصعب حاجز ساحلى ممكن .

فهل يمكن أن يقال أن فقر الأقاليم هو الذى دفع السكان الى اقتحام البحر ؟ هذه القاعدة ليست مضطردة لأن ساحل هولندا المجاور له سوف يأتى عليها من أساسها . فعلى طول ٨٠ ك.م من الهوك الهولندى إلى هلور لا توجد سوى ميناء وحيد صناعى ، مرفأ واحد (لقوارب الصيد) . هو ايمنيدن (ljmniden) ويبلغ طول ساحل جاكسونيا ٢٠٠ كيلو متر وليس به سوى مرفأ واحد لقوارب الصيد . فهل يمكن أن يقال أن الظروف الطبيعية فى مكان منها أحسن من أخرى لقيام الموانى ؟ وهل عزوف الهولنديين عن البحر يرجع الى توجيه ساحلهم الجغرافى غير المشجع ، مثل توجيه الساحل الفلمنكى الجغرافى ؟ وهل يمكن أن نصدق أنه بسبب اتجاه الساحل الفلمنكى بحيث يواجه الرياح الجنوبية الغربية التى حملت الرمال وجعلتها تتراكم فى خطوط متوازية من الكثبان الساحلية جعلت الشاطىء أبعد ما يكون صلاحية للعمران — وبالرغم من ذلك قامت هذه الموانىء العديدة ولم تتم فى سواحل أخرى كانت أفضل صلاحية منها لقيام عمران بشرى ؟

(٣) بلانشارد (٢١٧) ص ٢٢٤ .

كلا فمهما كان الساحل كثير التعاريج فانه لن يكون مغريا السكان بالاستقرار فيه، وبالازدهار فى جواره ما لم يكن هناك فائدة مرجوة، من ارتياد السواحل وركوب البحر. فالظروف الطبيعية للساحل لنشأة الموانى، ليس لها أى أثر حتمى فى قيام مجتمع بحرى وليس شكل الساحل فقط بالعامل الوحيد المغرى لذلك، فكم من سواحل قد هيأتها الطبيعة لقيام موانى بحرية ومع ذلك لم تقم بها أى ميناء. وهناك سواحل حرمتها الطبيعة من أى ميزة ومع ذلك قامت بها موانى. ولكن المهم هو قيمتها الانتاجية وقيمة العمل البحرى الذى يدفع اليه من الناحية الاقتصادية.

- ٣ -

السواحل المنتجة

للسواحل اكثر من فائده فهى منتجة للطعام ، كما أنها ذات فائده تجارية فاذا كانت تجتذب من الناس من يوقف نفسه لحصاد البحر كما يطلق الايطاليون على مهنة صيد السمك ، فانها ايضا تجتذب من يتخذها قاعدة للسفر بعيداً فى عرضه والارتحال الى آفاق بعيدة عنها . فقد كان الاغريق صيادى سمك الى جدما ، وملاحين الى درجة كبيرة . وكذلك كان الفينيقيون الذين كانت سفنهم تمخر عباب البحر فى البحر الأبيض المتوسط وتنتقل من ساحل الى آخر كما تفعل السفن السواحلية فى الوقت الحاضر . ومن ناحية أخرى كان البريطان أمة صيادى سمك أكثر منهم ملاحين . ولندرس الآن الحقائق الخاصة بالسواحل بوصفها مناطق لانتاج الغذاء . وهل هى تبرر الفكرة التى ندرسها دراسة ناقدة . عن وجود مجتمعات ساحليه معينة ؟

ونلاحظ بادىء ذى بدء أنه مما يدعو إلى الدهشه أن نجد أى تشابه كبير بين المجتمعات التى تستفيد من البحر ، ناشئا عن غنى المياه الساحليه حيث أن الرصيف القارى الذى يحيط بالقارات إلى عمق ٣٥ - ٤٠٠ مترا حيث ينتهى أثر أشعة الشمس يختلف اختلافا كبيراً فى الاتساع والغنى من أقليم الى اقليم .

وسواء اعتبرنا هذا الرصيف ـ حيث تتصل الحياة النباتية البرية أو

الحياة البحرية أو الساحلية كما يجب أن تسمى — التى تقع تحت تأثير المد والجزر (١) حيث يقل ارتفاع مد الماء أو المنطقه الاكثر عمقا التى تتلوها ، فان الأنواع البحريه التى تعيش فيها تختلف وتتنوع تنوعا كبيرا حسب تنوع شكل الساحل نفسه ، سواء كان صخريا أو رمليا أو طينيا . وحسب تنوع قوة الأمواج وحسب تراوح المد عاليا أو منخفضا، وحسب توفر البلانكتون، وحسب المياه نفسها ، رائقه أوغير رائقه ، والسماء صافية أوكثيرة السحاب ، واختلاف درجات الحرارة فكيف اذن ونحن إزاء هذه الظروف الساحليه المتنوعة نجد مجتمعات بشرية متجانسة متأثرة بالبحر مصبوبة فى قوالب معينة .

ثم أن الساحل خط يفصل بين البحر وبين اليابس كما أنه الجبهة اليابسة التى تهبط تحت الماء . فهناك وجهتا نظر للساحل ، إما أن يكون جزءا من اليابس وإما أن يكون جزءا من البحر حسب الوجهة التى تراها منها .

ومن الواضح أن الساحل إذا كان صحراويا فانه سيظل قفرا إلا فى حالات نادره ، اذا كان هناك مورد غذائى كاف من البحر . وكذلك الحال بالنسبه لساحل منطقة غابات كثيفه لا تصلح للعمران البشرى أو غير ملائمة كوطن للانسان . وأحيانا لايعوض غنى البحر فقر الساحل وعقم تربته التى لا تجتذب الانسان . وهذه السواحل قليلة نسبيا على كل حال وعلينا أن

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه الاختلافات

Jobin, La vie dans les Oceans, Paris, 1912, p. 162.

وكينوت (٥) ص ٩٢ وبعدها .

نتساءل بعد هذا عن الأسباب التي أدت الى اجتذاب السكان الى السواحل الآهله بهم . وهل هي ترجع الى توفر الموارد البحرية أو البرية في ظهرها ؟

* * *

فلنأخذ خريطة توزيع السكان فى فرنسا ولنتساءل هل السكان يزدحمون فى اقليم لانجدوك على الساحل ؟ ان ازدحام السكان كما هو فى الخريطة لا يدل على ازدهار اقليم الكروم ،[1] . وليس هناك تدرج فى كثافة السكان بين الساحل نحو الداخل مثل هذا التدرج الذى لاحظه روبرت فى بريتانى فليس هناك مناطق متجانسة تقل كثافة كلما توجهت نحو الداخل إنما كل الاختلافات فى كثافات السكان ترجع الى الزراعه [2] . ومن الصعب ولا شك الاهتداء الى أثر البحر فى كثافة السكان هنا . وتبلغ كثافة السكان على السواحل وبصفة أخص الساحل الشمالى لا يتسانج دى شاو التى لا تختلف فى شىء آخر عن سهول لانجدوك المجاورة ، حوالى ١٧٠ نسمة للكيلومتر المربع وهذه السهول الساحليــــة تحمــــل تأثير البيئة البحرية التى تقوى أثر السهول الخصبه فى الوقت نفسه . وتحت أيدينا دراسة قام بها سابد عن صناعة صيد السمك على سواحل لانجدوك بين آجد وبين ايج مورت . وقد بين فيها تنوعا كبيرا فى نشاط السكان المشتغلين بالصيد ولا سيما حول ست . ولا يوجد بينهم صياد وسمك بمعنى الكلمة أى من الصيادين الذين يقاومون فى البحار إلا مجموعة صغيرة

(١) انظر رقم (١١) مجلد ١٦ ، ــ ١٩٠٧ ص ٤١٨

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٠

معظمهم من الأجانب المهاجرين الايطاليين من كلابا ريا ونابولي وجنوه[1]، الذين استقروا على جزء من الساحل الجنوبى . أما سكان الساحل الثانى المكون من بحيرات داخلية متقطعة على الساحل الداخلى الصغير على بحر ثاو الصغير بمياهه العميقة الهادئة والجزيرة الصغيرة التى تحمل نفس الاسم وحيواناته المتعددة الصالحة الأكل ، من أنواع السمك والقواقع . . . الخ هؤلاء السكان لا يختلف أسلوب حياتهم عن الزراع أو أصحاب كروم الفاكهة فى بقية الاقليم . وليس هناك اختلاف بينهم وبين الزراع بل بينهم وبين صيادي السمك فى عرض البحار . وهؤلاء السكان جميعا يجمعون فى حياتهم بين صيد السمك فى عرض البحار والزراعة فى قطع صغيرة متناثرة كلما أمكن ذلك . واذا اشتد عليهم الفقر يهاجرون الى المدن ويشتغلون كحمالين أو يهاجرون الى حدائق الكروم وقت جمع المحصول . أو يجمعون قواقع البحر وما اليها .

وليس هناك شيء غريب فى أسلوب الحياة هنا فقد وصف كاميل فالو إقليما مختلفا عن هذا كل الاختلاف ، مستعملا لغة أخرى ، وهذا الاقليم هو بريتانى . فهو يبدد الفكرة القديمة الشائعة عن أقليم مكون من الجرانيت والشيست والصخر الرملى تربته فقيرة سواحله معرجة متنوعة تطل على بحرين ، يوجد به شعب بحرى بل انه يقول أنه لا ينبغى لنا أن نتصور بحارا فى أقليم بريتانى السفلى (Bas Breton) فهم فى الحقيقة فلاحون زحفوا الى الساحل ليقوموا ببعض الأعمال البحرية ـ وكونوا مستعمرات صغيرة

---

(١) انظر رقم (١١) ٢٣ ـ ٢٦ ص ٣١ وما بعدها

تضم صيادى الأسماك ، وهى قليلة العدد جدا بالمقارنة مع سكان أموريكا ، ويكونون عنصرا ثانويا صغيرا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للاقليم [١].

وأما البريطانيون الذين يعيشون على البحر فقط فعددهم نادر . فكل السكان فلاحون وملاحون فى نفس الوقت ولا يستثنى من ذلك الا أهل بيمبول الذين يغامرون إلى البحار البعيدة وحقول الصيد فى نيوفوندلاندا وايسلندا والبحار العليا وصيد التونه عند جزيرة دى جروا . أما غير ذلك فهم فلاحون صيادون [٢] أو صيادون فلاحون فكل قطعة أرض يزرعها الفلاح لأنه مضطر إلى ذلك أو تقوم زوجته مثلا بها بينما هو غائب فى صيد البحر . أما حيث التربة فقيرة لاتكفى فى انتاج المواد الغذائية ولاتمكن الصياد أن يكون فلاحا فى نفس الوقت كما هى الحال فى جزيرة مولين حيث يقوم ٦٠ . نسمة بصيد سرطان البحر . فان المجاعة تحدث وتنتشر ولابد حينئذ من ارسال المؤن والمواد الغذائية للسكان المتضورين جوعا فى قوارب خاصة [٣] .

هذا مثل أخذ من بين شعب متمدين ، ولكن هل من يصدق أن نفس الشىء يحدث أيضا فى شعب بدائى ؟ فكم من الآراء الخاطئة التى كونت عن سكان المحيط الهادى مثل البولونيزيين والميلانيزين «أبناء المحيط» كما جرت العادة على تسميتهم. هؤلاء السكان الذين وفدوا مهاجرين من أراضى بعيدة ،

(١) فالو (٢٣١) ص ٢١٩ ــ ٢٢٠

(٢) نفس المرجع ص ٢٣١ وما بعدها

(٣) ص ٢٣٣

الذين تسود حياتهم البيئة المحيطية. وهناك مجال واسع للعمل فى هذه المناطق لصيادى السمك والملاحين بل وللزراع البارعين ، حيث أن موارد الطبيعة عديدة ومهمة ولا شك أن البولونيزيين صيادو سمك ماهرون وملاحون بارعون ولكن هل يعتبر وجود الجزر المرجانية ، التى ينمو عليها من نخيل الجوز (Coco nucifera) حقيقة بحرية ؟ فهم يستخدمون من السائل الموجود داخل هذا الجوز شراباً زيتيا مستساغا مفيدا ، ويستخدمون محارها كمواد قابلة للنسج وجسم الجوز نفسه غذاء مفيد . وهو أمر لاحظه الرحالة والمكتشفون الأول . ولهم فى الثمرة وفى ساق النخله مآرب أخرى . منهـا يصنعون أثاثهم ويبنون منازلهم ويصنعون قواربهم وليست هذه هى الشجرة الوحيدة الكبيرة الفائدة لهم بل هناك شجرة الخبز (Artocarpus incisus) وشجرة نخيل الساج (colocasia succulenta) وغيرها من نباتات منطقة المحيط الهادى . وكل هذا لم يمنع البولونيزيين أو الميلانيزين وهم أفقر من الأولين فى المواد النباتية الطبيعية ، من أن يوقفوا نشاطهم للزراعة ويبرعوا فيها ومن الخطأ أن نعتبرهم صيادى سمك من نوع خاص متميز تماما فى صفاته كما يتميز طراز رعاة الضأن .

* * *

لا يطغى أثر البحر على اليابس طغيان أثر اليابس على البحر ، حتى ولو كان أثر البحر قويا ومرغوبا فيه . فمثلا فى بريتانى ، وفى سواحل موربيهان لا يجمع السكان السماد البحرى الذى يحتوى مواد فوسفاتية وجيرية تكونت بتحليل الصخور البللورية الا من نطاق لا يزيد عرضه على ١٥ ــ ٢٠ كيلومترا

على الاكثر [١] كما أن الفـــلاح النورماندى يستمر فى حصد سنابل القمح صيفا بعد صيف لايعبأ بالبحر ولا بما يقع وراءه

وأخيرا لا بد أن نتأكد من نقطة أخرى . فهنـاك حديث طويل عن قوة جاذبية البحـر ، وثروة السكان الذين يعيشون على السواحل وأن هـذا يفسر اتجـاه الانسان نحو البحر ، والهجرة الى السواحل ولـكن فالو وهو يستعرض ما كتبه روبرت عن « الحزام الذهبى » [٢] (Ceinture Dorée) لبريتانى يرى أن ليس للبحر أى اغراء فى جذب السكان نحو ساحله . إن أهل بريتانى يهاجرون ولـكن ليس من الداخـل الى الساحل فزيادة عدد السكان ترجع إلى زيادة المواليد . ولـكن من يتردد فى أن يقول أن هـذا يرجع الى الظروف الجغرافية [٣] .

ليس الانسان مجموعة غرائز وشهوات ، ولا تفسر الحاجة الى الطعام كل سلوك الانسان . كلا ! فليس السمك أو القواقع البحرية هى السبب فى تزايد عدد السكان كلا ولا كثرة الخلجان والمتعرجات الساحلية . فالانسان لا يقل تأثرا بآرائه عن تأثره بحاجاته . فهو يأكل كلمـــا يحب كما أنه يأكل ما يحب فهو ربمـا يأكل فاكهة البحر (frutti di mare) بسرور . أو

---

(١) شوفو (١١) ١٩٢٠ ص ١٧ ؛

(٢) Vallanx, Apropos de la Ceinture Dorée, p. 457,
Robert, La Ceinture Dorèe existe-t-elle ?

(٣) عائلات صيادى السمك على سـواحـــل شاو ، سابد وغيرهم (المرجع السابق) (ص٣٨)لاتزيد عدد أفراد الواحدة منها على ثلاثة أطفال فى المتوسط مثل العائلة الفرنسية

ربما كان لا يقبل على اكل السمك كما يقول بودان مؤلف الجمهورية فى أحد فصوله الممتعة . أن الفرنسيين يعزفون عن أكل السمك لدرجة أن السمك يأكل بعضه بعضا لأنه لا يجد من يأكله .

واكثر من هـذا فإن هناك مانعا قويا يحول دون تبرير زيادة السكان على أساس مادى ولنا فى هذا مثلان . مثل خريطة توزيع سكان داهومى[1] التى يلاحظ فيها أحد الباحثين أن عدد السكان يزداد كلما توجهنا من الداخل الى الساحل، هل هذا أثر اجتذاب البحر ؟ كلا أن هذا يرجع الى أن العناصر المغلوبة على أمرها لجأت الى الساحل بعد أن فرت من وجه قاهريها القادمين من السافانا الشمالية وذلك أصبح ترتيب السلالات من الداخل إلى البحر ، حسب حداثتهـــا وقدرة بطشها وأصبحت أقدم السلالات وأضعفها شأنا أبعدها من الداخل ، وأقربها إلى البحر .

ومثل آخر مفيد من مؤرخ درس المجتمع الغالى القديم الساحلى وخصوصا سواحل موربيهان ، الذى تتدخل فيه الخلجان العتيقة ، بتيارات مائية سريعة والذى يمتـاز بـكثرة الرؤوس والخلجان والاذرع المائية ، فانهـا تريد أن تمسك بالساحل بواسطة الف ذراع ، وتستولى منها على ضحاياها وقرابينها[2] وقد لاحظ هذا المؤرخ أيضا بصدد عدد كبير من الشعوب متجمعة على طول الساحل أن السكان القدماء ـ كما أظن ـ ظلت جماعاتهم عديدة مزدهرة فى أرموريكا ، وبعضها مثل أوسيسمى (Osisimii) تعيش فى فينيستير وترجع

---

(١) هوربرت (١٨٢) شكل ٨٥

(٢) كامبل جوليان (١٧٢) مجلد ١ ، ص ١٥٧

الى ما قبل الغزو الرووني (١) ويلاحظ أيضا وجود عدد كبير من النصب الحجرية ،والمعابد والمذابح الحجرية والأماكن الدينية فى هذه الأركان. وكأنما هاجرت أرواح الموتى القدماء من هذا العالم إلى صخرة تطل منها على البحر والمحيط ، قبل أن تغادر هذا العالم إلى عالم آخر ، يقع عبره ، حسب معتقدات الشعوب الأوروبية القديمة مثل السكلت والجرمان وما اليهـــا — ولذلك بنـوا معـــابدهم القديمـة قرب البحر لـكى يوفروا على الارواح جـزءا من رحلتها الـكبيرة .ومن المعروف أيضا أن ساحل البحر الأبيض المتوسط عامر بهذه الآثار الدينية القديمة لأشخاص خرافيين (٢) مما يمكن أن يسمى بالجغرافيا الميثولوجيه ، أو الجغرافيا الدينية للاقليم .

---

(١) نفس المرجع مجلد ٢ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

(٢) نفس المرجع مجلد ١ ص ١٥٨ .

– ٤ –

الملاحة الجزرية والعزلة الجزرية

لقد ميزنا الآن بين وظيفة الساحل كمنتج للطعام وبين وظيفته الملاحية . ولاحظنا أيضا أن سواحل البحر تجتذب من الناس من يستطيع أن يتخذها قواعد للملاحة البحرية والمغامرة فى سبيل كسب القوت فى عرض البحر . ولكننا لاحظنا من قبل أيضا أن الجزيرة هى الطراز المثالى لبيئة منعزلة وسط البحر فكيف نستطيع أن نوفق بين هذين الأمرين وقد نقول أنه ليس ثمة تفسير لأى تناقض ، وماعلينا الا أن نبين وجهى المسألة ، ثم نحاول أن نرى كيف نشأت فكرة العزلة الجزرية .

هناك ولاشك جزر مقصية فى عرض المحيط بعيدة عن الطرق الملاحية الكبرى الهامة مما كتب على أهلها عزلة تامة وقدر لهم حضارة أصيلة خاصة وساعد على تكوين صفات سلالية خاصة بهم مع مرور الزمن[1] هذه هى حالة الجزر الصغيرة المتناثرة فى المحيطات الهادى والأطلسى والهندى فى قطع صغيرة من اليابس ضائعة وسط محيط الماء مثل جزر تريستان دا كونها أو ترينداد ، والأندمان فى خليج البنغال وسكانها من الزنوج بل والأقزام والمنكوبى (Minkopi) وهم أقارب سكان ملاكا. وأهل جزر مارشـال وجلبرت وكارولين فى أقصى أجزاء المحيط الهادى، ولماذا نذهب بعيدا فعندنا فى حوض

---

(١) دى مارتونى (١١) ١٩٠٦ ص ٣٢٠

البحر الأبيض المتوسط جزر صغيرة مثل سكاربنتو أو كارباثوس القديمة بين كريت ورودس التى تدهش زوارها بطابع العزلة والانفراد الذى يمتاز به أهلها (١) وهذه القطع الصغيرة من اليابس كما فى رأى ركلوس، سجون أو منفى للشعوب التى تسكنها .

ولكن هناك أيضا جزر تقع على الطرق البحرية العالمية أماكن التقاء وتقاطع عدة طرق ملاحية وسط البحار والمحيطات ، مثل صقلية وكريت فى البحر الابيض المتوسط القديم ، ومالطة فى الوقت الحالى وجزر سندا وهاواى وبورتوريكو وكوبا ، فكيف نضع هذه الجزر بالنسبة لغيرها ؟ أن هذه الجزر فى جميع مظاهرها البشرية تعكس آثار أتصالاتها المستمرة الآمنة النشيطة بالعالم الخارجى فطغت عليها المدنية تلو المدنية والحضارة تلو الحضارة .

ولنضرب مثلا بصقلية التى توارد عليها بالتعاقب الفينيقيون ثم الاغريق ثم القرطاجنيون ثم الرومان ثم الغندال والقوط ثم البيزنطيون ثم العرب ثم النورمان ثم انجفان ثم الاراجوان ثم الاميريال ثم السوفو يارد ثم النمسويون.... إلى آخره . ولا نحتاج إلى أن نقول أن كل دولة كانت تغير معالم الحضارة والمدنية التى وجدت عليها أهل الجزيرة عندماتتولى زمام الأمور فيها . أو كانت تحدث انقلابات

---

(١) انظر

Karpathos, étude géologique, paléontologique et botanique, Stephani (c. de) Forsylh et Barbey, Lousanne, 1895.

سياسية واقتصادية أو تغير أساليب الحياة الزراعية أو المادية الاخرى . ولكن مما لاشك فيه أن كل موجة من هذه الموجات الحضارية كانت لاتنسحب من الجزيرة الا بعد أن تترك بعض آثارها فيها . فكل منها كان تجربة فى حد ذاتها فهل كانت هذه المجتمعات جزرية ؟ من يستطيع أن يقارن حياة أهل هذه الجزر التى تقع عند مفارق الطرق البحرية العالمية مع هؤلاء الجزريين المنفيين فى سجونهم وسط البحار والمنكمشين فى حياتهم المقفلة . وسلالاتهم الداخلية وعاداتهم ونظرتهم الاجتماعية الخاصة بهم . من يستطيع أن يقارن صقلية بموجاتها الحضارية المتتالية بكورسيكا وسردينيا المجاورتين .

* * *

هناك فروق عديدة بين الجزر وأشباهها المنعزلة وغير المنعزلة تعرض نفسها علينا لكننا سنقتصر على أكثرها أهمية . فكم من جزر تقع فى أطراف القارات وكم من أشباه الجزر تعتبر كملاجىء تأوى اليها الشعوب المنزوية تنتهى اليها آخر الموجات البشرية لتتكسر وتنتهى ، اليها يأوى المغلوب على أمرهم من سلالات بعد صراع شعبي أو سياسى أو دينى ولنضرب مثلا بجزيرة فورموزه ومافيها من شعوب بدائية وجزر كوريل وما فيها من شعب الأينو ، وجزيرة سيلان ومن فيها من البوذيين وجزر الفلبين وما فيها من الآيتا وجزر الكناريا وما فيها من الجونش وهم من أصل بربرى وأخيرا فهناك ايرلندا (وما فيها من سلالة البحر المتوسط وكاثوليك ـ المعرب)

ولكن من ناحية أخرى كم جزيرة تقع بالقرب من القارات الكبرى

وتختلف فى مميزاتهـــا عن الجزر السابقة . وتلعب دور أماكن التجمع والوثوب والتوسع وكان لها أثر فى نشر المدنية الى الاقاليم المجاورة ولنضرب مثلا باليابان ، فهناك تنوعات كامله تحل محل التجانس فى الظروف العامة ، فسكان الجزر يتجهون جغرافيا نحو القارة ويستخدمون سواحل الارخبيل اليـــابانى كنقط وثوب على الأراضى المجاورة كغزاة أو على الأقل قرصان ، مثل قراصنة بحر ايجه الذين وصفهم فكتور بيرار من الأوديسه أوقراصنة البحر الكاريبى (البحر المتوسط الأمريكى) وقراصنة تورتى Tortue كما وصفهم لوران [١] .

ولا نحتاج إلى أن نبين أن الجزيرة قاعدة دفاعية هجومية ممتازة فهذه سقيقة اكتشفت من عهد قديم [٢] اكتشفها الفينيقيون فى أورد بمنازلهـــا المزدحمة المتعددة الأدوار أو فى صور المعتصمة بالبحر ونذكر أيضا مميزات جزيرة كاليبو وطن الملاحين القدماء الممتازة بينابيعها العذبة وكهوفهـا التى كانت تستخدم كمخابىء للمحاربين وأسلابهم ، وكانت ملجأ أمينا يمكن أن تقاد فيها النيران دون أن يراها الاعداء ومخبأ يمكن أن يثب منه القراصنة على الرعاة والنساء عندما يريدون الماء ونقطة مراقبة يستفيد منها القراصنة ومن ثم كانت وطن القراصنة من قديم الزمن [٣] وكانت شبه الجزيرة التى تطل على الجزيرة لا تقل عنها استيحاشا مما يعوق حركات الجنود إذا قدموا من القارة للدفاع عنها [٤]

---

١ — انظر كابتيان ولوران (١ - ٢) ص ٣٢٧ .

٢ — ركلوس (Phénicie et les Phéniciens (Bull

٣ — بيرار (١١) ١٨٩٨ ص ٣٦٣

٤ — جوليان — ١٧٢ — مجلد ٢ ص ٤٩١ .

هذه قواعد حربية ممتازة لقوم لهم مآرب فى القارة فسكان صور وأورد كانوا يشرفون عل الساحل الفينيقى من جزرهم المواجهة له والشعوب البحرية التى كانت تقطن جزر فينستير كانوا أكثر اهتماما بانجلتره وايرلنـــده منهم بأوروبا التى تغطيها الغابات (١) ويصف ركوس وصفا جيدا تلك الجاذبية التى تستولى على سكان القارة نحو سكان الجزر القريبة التى تظهر على الأفق القريب منهم فى الأيام الصافية .

فجزر البحر الايجى جذبت ملاحى آسيا الصغرى الى أن يعبروا منها إلى اليونان كما أن الفينيقيين كانوا ينظرون الى قبرص كميناء عبور قبل أن يغامروا بالسفر فى البحر المجهول وقد وصف هنرى ڤجنود فى كتابه عن المغامرة الكبرى سنة ١٤٩٢ وفى كتابه الصغير عن كريستوفر كولمبوس تلك الجاذبية القريبة التى كانت تستولى على الملاحـــين عن المجهول والمرهوب عن جزر المحيط الأطلسى تلك الصخـرات الوسطى التى كانت فى الطريق المـــلاحى الكبير عبرها .

* * *

هذه أمثلة لأثر الانسان فى البيئة واثر البيئة فى الانسان وعبثا نحاول أن نجد قانونا عاما عن الجزر يفرض على سكانها ومجتمعاتها فرضا . بل اننا نجد باستمرار تنوعا كبيرا فى التأثر بالبيئة وفى تأثيره فى البيئة بل إننا نجد أن هذا التعامل خاضع لسنة التطور والتغيير المستمر .

ومنذ زمن مضى علق ريتر فى كتابه المشهور على التغيرات التى كان

---

١ — جوليان نفس المرجع ص ٤٨٧ و ٤٨٨

يمكن أن تحدث لقارة أوروبا لو لم يكن يحف بها بحر ايجه بجزره أو صقلية أو الجزر البريطانية والدور الوقائى الذى لعبته هذه الجزر كأماكن يلتجأ اليها وحصون اعتصمت بها الأمم الآريه واستطاعت عنها أن تحمى الحضارة والمثل الأخلاقية التى شيدتها فى القارة [1] . ولكننا نعلم أن هذه الجزر البعيدة لعبت ادواراً أخرى أقل شأنا من هذه ، فجزر الليدى الرملية لم تكن فى بادىء أمرها الا أماكن يلجأ اليها سكان المدن الرومانيه هاربين من وجه الفريولى (Friuli) ولكن لم يمض عليها وقت طويل حتى أصبحت مركزا ثقافيا وتجاريا لتوسع أهل هذه المدينة التى كانت فى الأصل مستعمرة لاجئين ولكننا نستطيع أن نؤكد أنه بالرغم من الفوائد الكبرى التى استفادها أهل البندقية من الظروف الجغرافيـة لمدينتهم فأنه لم يكن هناك قدر جغرافى يقدر على سكان هذا الجزء من البحر المتوسط أن يقيموا البندقية أو يلعبوا دورها فى التاريخ فهناك الكثير من سكان بيئات المستنقعات مثل (Poitivin) الذين وصفهم كلوزو لم يترك أهلها مهنة الزراعة أو يتركوا استغلال مواردهم المحلية سعيا وراء مجد تجارى كبير وراء البحر .

فللبحر اذن أقاليمه الجيدة وأقاليمه الفقيرة وله مياهه التى تجتذب السكان ومياهه التى لا تجذبهم وأما الأماكن المحظوظة التى اغدقت عليها الطبيعة مميزاتها هى تلك التى كانت تحيطها المياه أى الجزر أمام سواحل آهلة بالسكان مثل صور وقادش وقرطاجنة وبيريه فى الزمن القديم تلك الجزر التى كانت تقع وسط مسحطات مائية مفتوحة . ولكنها محمية فى الوقت نفسه . يشعر فيها

---

١ — قاورن — كلوس — ١٨٧ — مجلد ٢ ص ٦٤٧

الانسان . بالأمن ويقيم فيها بكل جرأة وبذلك يتلقى أولى دروسه فى التفوق البحرى [١] ولكن لابد أن يكون لدى الناس الروح البحرية، يجب أن يكونوا قد تعلموا فن الملاحة الذى يرى راتزال [٢] أنه كان وقفا على عدد قليل من الناس فى بادىء الامر ثم انتشر بعد ذلك الى غيرهم من البشر ببطء وبدون نظام معين وغير خاضع لأى قانون من قوانين القومية ففى فرنسا يعتبر ساحل بريتانى دون شك أحسن الاقاليم أن لم يكن الاقليم الوحيد ، الذى كان قمينا بأن يبث فى نفوس أهله حب الملاحة ولكنهم لم يكونوا يحبون المخاطرات الخيالية ومجال نشاطهم لم يختلف عن مجال نشاط فلاحى أركوت بل كان أضيق من مجال فلاحى الجبل فالبحار البريطانى لم يكن يحب أن يبتعد كثيرا عن الشاطىء حتى لا يفقد منظر القرية . . . وكان أكثر ارتباطا بالساحل من الفلاح بالأرض وكان لا يكاد يهاجر من قريته الساحلية .. والحق أنه ليس الفلاح الاكثر ارتباطا بالصخور الارموريكية [٣] ومن الغريب أننا نجد كما وجد قالو - أن المهاجر لم يكن من البحارة البريطان ولكن من الفلاحين (من بريطانيا السفلى) (Bas — Breton) فلم يكن الجوهر الذى جذب ملاحيه بل الأرض التى لفظت فلاحيها حيث أن البحر فى بريتانى السفلى لا يؤدى الى خطوط الملاحة الكبرى [٤] .

---

١ — جوليان ـ ١٧٢ ـ مجلد ١ ص ٢٨

٢ — راتزل Das meer als Quelle des Valkengrose, Munich, 1890

٣ — قالو (٢٣١) ص ٢٢٢

٤ — نفس المرجع ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦

أن الحقيقة رائعة تملؤها الحياة ، ولا يئد هـــذه الحياة إلا الملخصات العامة والأحكام المبشرة الجوفاء . ولننظر الى تلك الجزيرة الصغـيرة التعسة جزيرة كاربانوس (سكاربانتو الحالية) من جزر بحر ايجه . أنها بقعة منعزلة ملاحوها فى غاية الغلظة والبساطة عاداتهم قديمة جدا بشكل ملحوظ يحتفظون ببعض آثار المجتمع الأموى حيث أن الميراث تختص به البنت الكبرى ويسير فى الطريق الاناث جيلا بعـد جيل [1] . ويخرج منها كل الشبان والرجال كل الشبان والرجال كل ربيع [2] حيث أن التربة فقيرة جدا لا تكفى أودهم ليشتغلوا نجـارين للسفن فى الجزر الاخرى حيث أن أهم مورد فى جزيرتهم هو الخشب ، كما يشتغلون فى الصناعات الأخرى المتصـلة ببناء سفن الصيد ، وكعمال غير فنيين وبنائين وحمالين وقطـاعى أحجار ويمكن أن نجدهم فى كل الجزر التى تحيط بهم كما نجـــدهم فى ساحل آسيا الصغرى الغربى وفى مصر . هنا نجد عزلة وهجرة وسفر وتقاليد عتيقة ولا يجب ان ندهش من اقتران هذه الصفات التى تبدو متناقضة والا كنا راتزليين أو راتزليين حديثين نسىء تفسير القـانون الكبير العـالمى الدائم . قـــد يسـافر الرجل ولكن إذا عاد الى وطنـه الأصلى حيث تدير النساء والرجال العجـائز أموره وحيث يحافظ هؤلاء العجزة وتلك النسوة على تقاليده فأنه لن يغير من تقاليد هذا المجتمع بل أن المجتمع هو الذى سيحيط به ويوقعه تماما فى قبضته ويصهره مرة

---

(١) كارباتوس ص ١٨ــ ١٩

(٢) نفس المرجع ٩ ، ٣٥

أخرى فى بوتقته ويمحى من ذهنه كل تجاربه التى اكتسبها فى الخارج بل يجعله يراها كما لو كانت وهما من الأوهام . .

من الصعب تقدير دور علم النفس. واننا كلما رأينا بعض الكتاب يندفعون فى تصوراتهم وكتاباتهم على سكان الجزر الذين تدعوهم الرياح باستمرار الى البحر وكأنه نداء من المجهول فى مكان سحيق والذين قد وسعت الرحلات البحرية آفاقهم ، بينما هنالك كتاب يندفعون فى وصف آثار العزلة السيئة وأنانية اهل البندقية الذين لم يفكروا قط فى غير البندقية أو أفق الانجليزى الضيق الذى لا يفكر الا فى مصلحة انجلتره فأننا نقول لا تسألوا الجغرافية ولكن اسألوا علم النفس . . اذ ان أهم شيء هو المثل التى يعتنقها الناس — المجموعة السياسية — بالنسبة لموقع بلادهم الجغرافى وصفاته وفوائده ومضاره، مهما كانت هذه الآراء خاطئة أو لا تقوم على أساس من الحقيقة فمهما تبلغ الاسلحة الحديثه من قوة ومهما وصلت الطائرات من سرعة وسعة مجال فانجلتره ستظل جزيرة وسيظل نفق المانش مشروعا فقط . وهذا فى النهاية هو المهم .

* * *

(٥)

جزر الصحراء ـ الواحات

والآن فلنستمر فى تحليلنا للجزر ، وندرس الجزر الارضية ـ الواحات وهى ولاريب تستحق اسم الجزيرة لأنها منعزلة ومنقطعة عن العالم فى وحشة صامتة فى الصحراء ويخبرنا جوتيير أن كل واحة فى الصحراء نوع من السجن ومن يعيش فيها مسجونون لا يستطيعون الفكاك من أسرها لأنهم لا يعرفون طريق الصحراء . ولا الآبار التى تنتشر فيها ويخشون بطش قطاع الطرق فهم منحصرون تحت ظلال نخيلهم كأنما ربطوا اليها بسلاسل .

ويتفق الباحثون على أن ملاحظات جوتيير على واحات الصحراء الكبرى تنطبق أيضا على واحات أخرى مثل واحات تركستان وقد وصف بومبلى ـ وهو يقوم بعمليات الحفائر ـ واحة آناو وهى مدينة قديمة مهجورة بالقرب من اسكاباد . وهو يتفق مع جوتيير فى وصفه الحى لهذه الواحة مهما أختلفنا معهما فى نتائج ملاحظاتهما فهما يتحدثان عن عالم مقفل لم تصله الا أصداء بعيدة خافتة من زمن طويل ، ولا يمثل إلا انواعا محلية نادرة للحياة الاجتماعية الخاصة به [1]

---

(١) انظر (١٦) ١٩١٠ ص ٢٥٢

ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أيضا أن الامبراطوريات القديمة مواطن الحضارات والمدنيات الأولى نشأت فى واحات فى الصحراء ، كبيرة فى الصحراء الليبية وفى الصحراء السورية فعلى الرغم من أن جوتيير يقول أن كل واحة فى الصحراء نوع من السجن الا أنه يبدد الوهم القديم من ان الصحراء جحيم وعذاب مقيم ، اذ يكتنف بالواحة - ولاسيما - فى الصحراء الكبرى - مساحات من الأرض تمتاز بالتربة الخصبة مما يساعد على ايجاد علاقات بشرية متبادلة بين سكانها وبين أهل الواحة ، ويكتنف الصحراء أيضا ممرات مستقيمة من الأرض الرملية تتبعها القوافل بانتظام ويحف بهذه الطرق الطبيعية فى الصحراء تربة الريج (reg) التى تصلح لأشجار الحدائق وليس أفضل من هذه التربة لسير الجمل هذا المخلوق الذى يمتاز بأخفافه الكبيرة الاسفنجية التى تشبه الصنادل الكبيرة ، والتى يلائمها التربة الرملية الجافة للريح ، أحسن مما تلائم الحصان بحوافره الصلبة مثلا . كما أن هذه الارض صالحة تماما لحركة العجلات ونحن الغربيون متعودون على الطرق الممهدة لسير العجلات . ولكن فى الصحراء حيث تكون الريح تكون الأرض صالحة لسير القوافل ويقول جوتيير انى متأكد من أن الريح أوجدت أول الطرق المعروفة ، وهنا نجد الواحة نهاية العالم السجن المقفل تماما على العالم المنطوية على نفسها قد أصبحت ملتقى شبكة من الطرقات . حيث انه لايوجد فى فيافى الصحراء المتسعة المستوية السطح أى عقبة يمكن أن تلتقى عندها الطرق قبل أن تنحرف فى اتجاهاتها المختلفة. وفى نفس

الوقت فالواحة هدف المغير البدوى الذى يهدف إلى غزوها والسيطرة عليها بينما يعتصم أهل الواحة فى واحاتهم على أنها قاعدة تمدهم بالمؤن والعتاد وهم ينتقمون لأنفسهم بالسطو على قطعان الرعاة (١) .

تاريخ أهل الواحة السياسى ليس إلا سلسلة صراع بينهم وبين الرعاة الغزاة. وبهذه الوسيلة رغم أنهم منعزلون عن انحاء العالم بعيدون عن ممرات التجارة الكبرى التى تفضل طريق السهوب على الطرق القاحلة بعيداً عن ممرات الهجرات البشرية ، فانهم يجدون أنفسهم والرعاة على اتصال بأحداث العالم الخارجى الذى لا يعرفون عنه شيئا. وهذه صلة أقوى من صلة العلاقات الاقتصادية التى يقيمونها مع جيرانهم ، بالرغم من كل شىء ، بواسطة حيوانات النقل مثل ثيران الجارامانت . . . (Garamantes) القديمة فى الصحراء الكبرى هؤلاء الذين كانوا يشبهون البوير فى العالم القديم وحياتهم فى صحراء الترنسفال أو هذه الماشية السودانية ذات الظهر المحدودب التى لاتزال ترتاد مرتفعات الحجارة حتى الآن (٢) والخيل التى كانت تستعمل قبل اكتشاف السروج من زمن قديم والحمير حتى هذه التى تستعمل فى توات الجنوبية التى تحمل ظهورها بالتمر وتساق فى وادى مسعود الذى يستحق اسمه بجدارة من واحة توات إلى تاودينى (٣) وأخيرا الجمال التى دخلت الصحراء الكبرى حديثا بخطوها الوئيد الثقيل والتى لاتعوض مصاريفها الا قليلا..

---

(١) ويكوف (١٩٨) ص ١١٤

(٢) جوتيير ١٨١ ب مجلد س ١٣٦ — ١٣٧

(٣) جوتيير نفس المرجع ص ٣٦ ـ ٣٧

وإلى جانب تلك العلاقات الاقتصادية هناك علاقات سياسية بينها وبين العالم الخارجى وهى على وجه الدقة ليست الا آخر ذبذبات لموجات الاتساع السياسى لدول بعيدة عنها . فهى نتيجة اتصالات مباشرة أو غير مباشرة لهذه الذبذبات .

ولا يرجع ويكوف فى كتابه الصغير عن التركستان الروسية[1] غزوات البدو الآسيويين وتوغلهم فى وسط أوروبا وجنوبها الى حالة الجفاف التى قد تصيب أوطانهم بل الى ازدحامها بالسكان والماشية . فالجفاف حالة سائدة فى بلادهم فى وسط آسيا بل أنه اذا أخذنا بآراء بعض الكتاب — يزداد باستمرار بل هو حالة مناخية لا جدال فيها [2] . غير أن طوفان البدو الآسيويين إلى شرق أوروبا وغرب آسيا قد انقطع الآن..فقد استولت الصين على الأراضى المغولية كما أن سيبريا قد ازدادت عمرانا بالسكان بالتدريج ، فقد تقـــدم الاستعمار الروسى خطوة خطوة مع مد السكك الحديدية وانشاء المستعمرات فى سيبريا ، التى كانت خالية من السكان تقريبا فى زمن « اتيلا وجنجيز خان » . كما أن اعتناق المغول للبوذية كان أمرا له نتائجه اذ تحول ثلث الرجال أو ربعهم على الأقل الى رهبان — أو « لاما » لا يتزوجون . وهنا نجد الدين قد قام بدوره مرة أخرى فى تحديد النسل، وحل وسط آسيا محل الاحتياطات الفسيولوجية التى يلجأ اليهـــا الطوارق فى الصحراء

---

(١) ويكوف ١٩٨ ا ص ١١٣

(٢) عن هذه المسألة الكبيرة ارجع الى تلخيص هربيت فى ١١ مجلد ٢٣ و ٢٤ ١٤ — ١٩١٥ ص ١ — ٣٠

الكبرى [١] . وتتفق ملاحظات ويكوف بشكل غريب ولا سيما اذا أخذنا في الاعتبار اختلافات الزمان والمكان مع ملاحظات كورنوت في أماكن الرهبنة القديمة . وفائدتها في حفظ التوازن السكاني ازاء زيادة خصوبة المتزوجين [٢] . وهكذا كانت الهجرات البشرية الكبيرة وغزوات البدو التي غيرت مصائر التاريخ في حضارات قديمة مستقرة عديدة من العالم الجديد كانت تعتمد على حقائق تاريخية غريبة ، وان تغير بعض هذه الحقائق أثر في حياة السكان الذين يعيشون الآن في عزلة تكاد تكون تامة في وسط آسيا فوق الهضاب المرتفعة التي لم تجرؤ الخطوط الحديدية أن ترتفع الى منسوبها وانما اكتفت بأن تدور حولها من الشمال وربما أتمت دورتها من الجنوب عندما يتم انشاء الخط الحديدي من بنغال الى ايران وهذا أيضا أمر أكثر وضوحا فيما يتعلق بالصحراء الكبرى .

وقد بين جوتيير في أحد فصوله عن رحلته الى الصحراء الجزائرية موضحا كتابه بالأمثلة التي تميز طريقته في الكتابة الآثار التي ترتبت على سقوط غرناطه في ايدى الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ على عالم الصحارى . فقد تبعها انفجار من التبشير الديني وغزو المدنية البربرية القديمة وسحقها بلا رحمة ورجحان كفة الاسلام الذى لم تصبح له السيادة التامة الا في القرن السادس عشر أي بعد دخوله الى شمال افريقيا بثمانية قرون . وأدى هذا إلى تغير تام في السلوك والآداب والاراء والمثل والحياة الاقتصادية والاجتماعية كل هذا

---

(١) جوتيير ١١٨١ ص ١٧٧

(٢) Cournot , Souvenirs , p . 29 & 7 , 20.

نتيجة حادث حدث فى التاريخ الأوروبى لا شك لم يسمع عنه أهل توات أو جوراره « فها نحن بازاء سلسلة كاملة من الأحداث التى لم نتعلم فى تاريخ أوروبا أنها نتيجة مباشرة لدموع أبى عبد الله الأخيرة — ولكن هذا هو الواقع » وبعد هذا نسمع الكثير عن العزلة الصحراوية ..

وهناك ظاهرة أخرى تستحق الملاحظة فنحن نتحدث عن الواحات باعتبار كونها وحدات مثالية من صنع الطبيعة قدمتها للانسان لكى يتمتع بها دون كبير نصب . الا أن الواحات ليست وحدات سياسية فى الوقت نفسه ولكل واحة اسمها وشخصيتها الجغرافية وحدودها المميزة التى تنتهى بانتهاء الخضرة المنعزلة وسط رمال الصحراء. ولكنها ليست وحدة سياسية فلا يربط بين قرى الواحة الواحدة أى رباط سياسى . فمثلا تحتوى واحة توات على ١٢ واحة صغيرة لكل منها مروجها الخاصة من النخيل كل منها تكون وحدة كاملة مكتفية بذاتها . كما أن عدد القرى فى كل مرج يختلف باختلاف اتساعه عن عــــدد قرى المروج الأخرى فهناك ٢٦ قرية فى تيمى وقريتان فقط فى سباع وتختلف القرى فى عدد سكانها بعضها عن البعض الاخر . ويتراوح بين ٢٥ و ٥٠٠ نسمة ، ولكن لكل قرية جمعيتها الخاصة تحت رئاسة شيوخها الذين يحكمون تلك القرى ولا تتعدى سلطتهم القصر ، أى القرية الواحدة . واذا حدث خلاف بين هذه القرى فلاسبيل لتسويته الا باللجوء الى القوة فكيف يتفق ذلك مع عزلة الواحة ووحدتها الجزرية ؟

* * *

ولكن هل هناك شيء إسمه وحدة جزرية ؟ سواء أكان يحيط بها ماء

أو رمال فهى اقليم محدد المعالم متجانس ، وبالرغم من ذلك فهى لا تمثل وحدة سياسية ، فهناك جزر مقسمة سياسيا وظلت كذلك فترة طويلة من الزمن ولكن شكلها لم يدع الى خلق الوحدة قط . فانظر مثلا الى الجزيرة البريطانية فى العصور القديمة وتمزقها بين عدة ممالك وامارات الكورنوول والويلز والانجلوسكسون والاسكتلنديين ثم عبر البحر الى ايرلندا أو أبعد الى مدغشقر حيث مناخ مختلف وحيث ظروف حضارية ومدنيـــة مختلفة . وانظر الى العدد الكبير من القبائل والشعوب والعادات والتقاليد التى تعمر أجزاء مختلفة من الغابات فى نيوغينيا ، والتى تطلق عليها جميعا اسم البابوان ولكنهم يجهلون لهم اسما واحداً أو حياة وطنية واحدة . فالحروب الدائمة لا تفتأ قائمة بينهم وبعضهم يعيش فى شمـال الجزيرة فى أكواخ كبيرة يضم الكوخ أكثر من أسرة . وبعضهم يعيش فى جنوب الجزيرة فى أكواخ مقامة على أعواد الخيزران أو فوق أغصان الاشجار أو فى أكواخ مخروطة فى الارض ولايقوم أى رباط سياسى بينهم . ونحن بازاء جزيرة كبيرة حيث تعوق كثافة الغابات والاحراج نمو أى وحدة سياسية ولكن هناك جزر عديدة فى المحيط الهادى ، ولا تمثل وحدات سياسية بالرغم من صغر حجمها وبالرغم من هذه الامثله يكتب الكتاب كما لو كان البشر الذى يتحدثون عنهم قد كتب عليهم أن يسيروا فى خطوات مرسومة لهم منذ الازل ، وأن هذه الخطوات تساعد على املاء القوة الجغرافية العليا وكأن من يأت الى بيئة فعليه أن ينهج نهجا معينا ثابتا قدر له فى هذه البيئة منذ الازل . وأن هذه الحياة ليست إلا تلاؤما لظروف البيئة .

وليس نهر المنز وحده هو النهر الوحيد الذى يخترق هضبة الاردن وليس

الرأين وحده الذى يخترق مرتفعات خاصة به ، فهناك شعوب بشرية تخترق أيضا الفيافى أو القفار التى وجدت نفسها محاطة بها ، بكل وسائل عيشها ومظاهر مدنيتها المادية فى بيئة ليست بيئتها الخاصة الأصلية ، فهل من المنطق أن ندرس موضوع مدنيتها المادية هذه كما لو كانت من نتاج البيئة ؟ ولنعد مرة أخرى الى الصحراء الكبرى والى ملاحظات أميل جوتيير الدقيقة التى تدل على قوة تحليل بارعه . فأننا معرضون لكى ننظر الى الصحراء كأنها أزلية ، نوع من العذاب المقيم لفئة أبدية ألقيت على أقدار ساكنيها ولكن هل هذا صحيح أليست الصحراء الكبرى حديثة العمر ؟ أليست الآن فى بدء تطور انتهى بها الى الجفاف وقد شهده الانسان أمام عينيه منذ أواخر العصر الرباعى ؟ لقد رأى جوتيير نفسه كيف أن حركات الكثبان البطيئة تهدد الزرع فى الواحات بالهلاك ، هكذا تكونت الصحراء ولا داعى مطلقا للرجوع الى فكرة تغير المناخ أو تدهور الظروف المناخية (١) . ولكن من دراسة مدنية سكان الصحراء الكبرى الحاليين وجهادهم فى محاولة السيطرة على الظروف الصحراوية ومقارنتهم بسكان صحارى استراليا وكالاهارى فى جنوب افريقيا (٢) نستدل ما هو الدور الذى نرجعه الى الظروف القديمة والى الميراث القديم الذى حمله هؤلاء السكان قبل أن تسوء الظروف المناخية وتنتشر الظروف الصحراوية الحالية فى اقليمهم ؟ أننا ندهش لكثرة عدد أسماء الأعلام فى

---

(١) جوتيير ١٨١ أ مجلد ١ ص ٥٤

(٢) نفس المرجع ص ١٩

الصحراء الكبرى [1] ولا سيا على طول الدروب الصحراوية وتزيد دهشتنا عندما نجد هذه الأسماء مطلقة على أشد الأقاليم وحشة واقفاراً ألا يدل هذا على أن سلالات لا تجد من يمثلها فى الوقت الحاضر كانت تعمر اقاليم معينة ثم ازدادت ظروف هذه الاقاليم سوءاً فهجرها أهلها بعد أن استنفذوا جميع وسائلهم ، ومنها حفر الآبار واستنباط الماء من المستوى الباطنى ، الذين كانوا على علم به حتى غلبتهم الظروف الصحراوية القاسية على أمرهم ، فتفرقوا عنها بددا واعتصموا بالواحات ؟ هذا مجرد فرض لا شك فى هذا ولكنه قد يفسر الظروف المدنية الحالية لسكان الصحراء وتجعلها مقبولة منطقيا —

(١) نفس المرجع ص ١٨

— ٦ —

فكرة العزلة وقيمتها الجغرافية

والآن فلنناقش فكره العزلة ، ما هى ، كيف نشأت ، وعلام تدل ؟

ربما كانت هذه الفكرة واضحه نسبيا للاحيائى ، وهو ليس له أى رغبة فى الخوض فى عالم الآراء المجرده ، وكيفية ما يلاحظــــه فى عالم النبات والحيوان ، ويستطيع أن يصل إلى حلول لمشاكله عن طريق يسير ممهد . فهـــو يحصى فى جداول معينة عدد الحيوانات والنباتات من أنواع معينة موجودة فى المكان فى تاريخ معين ، قبل حدوث حادث معين ثم يعود فيحصيها مرة أخرى بعد حدوث هذا الحادث المعين، ويستنتج نتائجه المنطقية التجريدية .

للعزلة معنى خاص لديه ، فهو يعرف الموارد الطبيعية للكائنات التى يدرسها وقوتها فى التحرك والانتقال . ولكن هل فكرة العزلة فى مثل هذه البساطة والوضوح بالنسبة للجغرافى ؟ كلا مطلقا . العزلة بالنسبة للجغرافى البشرى فكرة معقده جداً ، وليست فكرة طبيعية بسيطة مطلقة . ولا يمكن ترجمتها إلى مجرد أرقام ، أو مجرد أبعاد وهى لا تعتبر فكرة ثابتة ، بل تتغير تغيراً نسبياً مستمراً كلما ازدادت وسائل المواصلات سرعة وسهولة وتعددا، ومن الممكن ايراد بعض الحقائق بمنتهى الوضوح والدقة ، مثل تاريخ مد خط سكك حديد سيبريا، أو فتح قناة بناما ، أو اكتشاف طائرة من طراز

قوى مأمون سريع ، كل هذا قد يقلب فكرتنا عن المسافات رأساً على عقب، مثل المسافة بين فرنسا واليابان ، أو من نيويورك إلى كالاو Callao .

ولكن أى مجلس ادارة لأى شركة من شركات النقل والمواصلات ، يستطيع — وهو داخل حجرة اجتماع المجلس — أن يغير المسافة الحقيقية بين دولة وأخرى ، وذلك برفع تعريفة المواصلات أو خفضها ، أو بتقدير سرعة البواخر والطائرات والقاطرات تقديرا يرفعها أو يخفضها ، حسبما يراه فى مصلحته ، وبمحض إرادته . فقبل الحرب العالمية الأولى ، كانت كاليه واوستند تتنافسان على النقل بين انجلترا وايطاليا . وقد كان الألمان يفضلون طريق اوستند ولذلك نظموا حركة النقل فيه بمنتهى الدقة . وكان مجلس ادارة سكة حديد الألزاس واللورين يهيء مواصلات خط اوستند بحيث لا يتعطل إلا بأقل قدر ممكن إذا تأخرت القطارات أثناء عبور ممر سانت جوثارد . ولكن مواعيد القطارات التى تغادر محطة كاليه ، الى ايطاليا عن طريق مولهاوس بلفورت كانت أيضاً لا تقل عن الأولى دقة وضبطا ، بل كان من مهمة كل ناظر محطة أن يلاحظ جزءاً من الطريق الذى يمتد من بحر الشمال الى ايطاليا (١) .

إذن فالعزلة تتراوح بتراوح بعد المسافات ، وتضطرد معها اضطرادا

---

(١) انظر مذكرات ايسمان فى

Les chemins de fer transalpin, Rev. des cours et confernces, 1914 pp. 390 et seq. (La methode)

منتظا ولا يمكن قياسها بالأميال، أو قياسها بالبوصلة ففيه متناقضاتها وغرائبها. وساكن الجبل فى قاع الوادى الجبلى — من جزيرته الجبلية — رجل منعزل، مخلوق سجين فى نطاق ضيق يفرضه عليه الحاجز الجبلى الذى يفصله عن بقية أنحاء الأقليم، ولكن هل يستطيع أن يصدق أحد أنه لا يغادر بقعته هذه ؟ أو أن يقضى حياته فى تلك الأغوار الجبلية لا يريم عنها؟ والا فمن اذن اكتشف تلك تلك الممرات الجبلية السهلة نسبيا، والتى تربط بين كتلة جبلية وأخرى، وتخترق قلب ذلك العالم المعزول، (وليست القمم الجبلية عادة مدببة، بل مسطحة، سهلة الانحدارات، حيث تمتد مروج الحشائش صيفاً، وحيث تصبح النزهة عندها نوعا من المتعة، لا من التعب) [١] ولا يتعب ساكن الجبل اذا كان يشتغل بالزراعة على المدرجات، أن يغير من ارتفاعه باستمرار يتنقل من مستوى الى آخر [٢]، وهو فى حركة دائبة، ولكنه لا ينافس الراعى فى ذلك قط، ذلك الراعى الذى يترك منزله وقطعة أرضه المنزرعة فى قاع الوادى، ويظل يرتفع مع سفح الجبل، من مرعى الى آخر، وكأن بينه وبين القمة سبب، يلبى دعاءها الخفى باستمرار، وهو يقضى جل وقته على السفوح المرتفعة، وليس فى بطن الوادى المطمئن كما أنه يتنقل من وادى.

---

(١) كل هذا مأخوذ عن دراسة كافاييه

Cavaillés : une federation pyrénéens sous l'ancien Régime (Rev historique, t. cv, 1910, p. 3 et seq

(٢)

Ch. Biermann. la civilisation en pays de montagne, xl, 1913 vol. xxII, pp. 270—82.

إلى آخر باستمرار وراء المرعى والكلأ ، فيقابل الناس من الوديان المجاورة وينشيء بينه وبينهم علاقات أو ينمى حياة اجتماعية ، ويكون بينهم حركة تبادل وتجاره وأخذ وعطاء

ولا شك أن هناك عزلة ، هى السبب فى نشأة وحدات سياسية خاصة ، تشمل المناطق الجبلية ، وتنتهى بنهاية السفوح التى تطل على السهول ، ولكن هذه عزلة نسبية . وكذلك العزلة التى تحدث كل عام فى فصل الصيف ، عندما يهرع الرعاة وهم يسوقون قطعانهم من وديان البرانس المنخفضة ، أو من شمال أسبانيا الشديدة الحرارة ، الى أعالى البرانس الفرنسية حيث المراعى خضراء يانعة ، وتلك القطعان الكبيرة من الضأن فى مرتفعات رومانيا ، وجبال الألب الايطالية ، وبروفانس ، وقطعان البقر والثيران فى مرتفعات تارانتيز Tarantaise ، والتى وصفها آربوس ، كل هذه الحالات من العزلة نسبية،[1] كذلك عزلة أهل الجزر الذين يهاجرون كل عام إلى القارات المجاورة عزلة نسبية ، ولكن لا يوجد اقليم عزلة بحكم طبيعة الأرض مثل وجود جبال تكتنف الاقليم ، أو جنة صحراوية جافة تتشقق صخورها من حرارتها الشديدة ، أو بحكم كونها جزيرة يحيط بها الماء ، مثل هذه الاقاليم المنعزلة وهم من الأوهام ، اذ أن هنالك سهول لا تقل عزلة عن الجبال نفسها .

---

(١) رقم (١١) ١٩١٢ مجلد ٢١ ، ص ٣٢٣ ، ٣٥٤

Arbos, " la vie pastorale en Tarentaise.

ويلاحظ كوجيك Cuijic في كتابه عن شبه جزيرة البلقان، عندما حلل الظروف المختلفة التي ساعدت على تكوين عناصرهـا البشرية [١] أن سهل المجر — الفولد — وهو سهل معروف، متسع الارجاء، لاتقـوم وسطه أى عقبة جبلية، لم يشترك مطلقـاً في المدنية الأوربية التي توغلت في البلقان .

« لقـد كان سهل المجر مجرد منطقة عبور، تعبر بأسرع ما يمكن، في الطريق إلى وسط أوروبا، ولكنه لم يكن قط منطقة استقرار » . ثم يقول نفس المؤلف « أنه حوض قـد هيأته الطبيعة لكي يكون حلقة وصل بين الشعوب، ومن ثم يساعد على انتقال المدنيات وانتشارها، وبالرغم من ذلك فقد ظل عقبة في سبيل أخاء الشعوب وارتباطها، وأكثر من هذا فان لغة هذا السهل المتسع المفتوح جغرافيا — لغة أجنبية تماما وغريبة تماما عن اللغات الأوروبية، وقد دخلت هذه اللغة الى سهل المجر، على يد غزوة حديثة، وضعت يدها على هذا السهل في عهد حديث نسبيا . وأقرب اللغات الأوروبية اليها هي اللغة الفنلندية، حيث يستطيع اللغوى الماهر أن يجد أوجه الشبه والقرابة بين تعابير كل من اللغتين، أليس هذا المثل وحده له دلالة كبرى، كي يهدم كل الاراء القديمة التي كانت تعتقـد أن الجبل وحده ووديانه هو مثابة اللغـات القديمة وأمنها، وهي المعقل الذى تعتصم فيه السلالات القديمة، والعادات والتقاليد العتيقة .

---

(٤) كويبج (٢١٣) ص ١٠٨

العزلة حقيقة بشرية ، وليست حقيقة جغرافية ، انهـا أمر يخص البشر ، فهى تتوقف فى حالة الجزر على الملاحة فى البحـار ، وهى ليست حقيقة طبيعية ، وفى اليـابس تتوقف على ارادة الانسان ، وعلى تقاليده ومعتقداته، كما رأينـا .

* * *

والنتيجة لهذا كله ، هى أننا نجد فى الاقاليم الطبيعية التى استعرضناهـا من الجبال ، والسهول والهضاب والوديان والسواحل والجزر والواحات — جماعات بشرية ، يمكن مقارنة بعضها بالبعض الآخر ، بل أن هنـاك تشابه بينها ، فكيف نشأ هذا التشابه ؟ إنه نشأ من وجود نفس الامكانيـات ، التى يظهر أثرها او لايظهر طبقا لاختلاف الظروف العامة أو تشابهها . بل أن نفس الامكانيات قد يظهر أثرها ثم يختفى ، ثم يظهر مرة أخرى ، طبقا لتوافر ظروف أخرى أو عدم توافرها ، ولكن ليس هناك ضرورة لا مفر منها مطلقا وأى تحليل للظاهرات الاجتماعية التى ندرسها ، يدل على تعقدهـا تعقيداً شديداً ، وعلى أنها حلقة من حلقـات تطور طويل المدى ، ولذلك يجب تتبع هذه الحلقات ، حلقة بعد أخرى حتى يمكن أن نفهمها .

إذن فما هى قيمة تلك الوحدات الطبيعية ، بل وما كنهها ؟ انها وسيلة وليست غاية وربما كان لها قيمتها الخاصة ، بأجلى معانيهـا ، إذا نظرنا اليها بمفهومهـا القديم الذى لم يستعمله فقط اتبـاع راتزل ، بل

الجغرافيون القدماء ، الذين كانوا أثقب نظراً ، وأعمق بصيرة من راتزل وأتباعه هؤلاء الذين كانوا يحجمون عن التعميمات الفجة بالنسبة لنا ، وهى ذات قيمة عملية ، فهى ليست الا وحدات لتيسير دراستها . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى نهتم بها من أجلها . وهى بذلك تساعدنا على اكتشاف حلقه من العلاقات الحقيقيه بين امكانيات البيئه وبين نشاط المجتمعات البشرية التى نعيش فيها .

الفصل الثالث

أساليب الحياة : صيادو البر والبحر

ليس هناك ضروريات ، بل هناك احتمالات فى كل مكان ، والانسان سيد الاحتمالات هو الحكم فى اختيارها . هذا المبدأ يضع الانسان فى مكانه الطبيعى ، الانسان وليس الأرض ، وليس أثر المناخ وليس الظروف الطبيعية للمكان .

والانسان ، كغيره من الحيوانات ، يعيش فى كنف الطبيعة ، فمن الطبيعى أن يتعيش منها ، ولايملك غير أن يستعير منها كل مقومات حضارته ، وهو يستخدم تلك العناصر التى يستعيرها بشكلها الذى وجدها عليه وهو بدائى ، أما عندما يرتقى فى سلم الحضارة فانه يحور فيها ويهذبها .

فكل شىء إذن يدخل فى تكوين الحضارة البشرية يمت إلى « الطبيعة » بسبب . ونستطيع أن نقول كذلك أن كل الظروف الجغرافية ، هى فى نفس الوقت ظروف انسانية . ولكن هذا القول لا يؤدى إلى شىء ، وربما كان من المهم لو أن الظروف الجغرافية لم تكن مادية فحسب ، بل كانت سيبافى نشأة المجتمعات أى لوأن ظروف (الستبس) السهوب كانت تملى حياة رعوية على الانسان ، أو لو أنها خلقت له هذا الأسلوب من الحياة أو لو أن المستنقعات استوجبت بناء المساكن على نظام معين ، فوق الأكوام الصناعية ، ولو أن

الطبيعة الجزرية هى التى أجبرت انجلتره على أن يكون لها أسطول تجارى وحربى كبير . ولكننا لم نصل إلى أى نتيجة حتمية كهذه . إلا أن تبديد الأوهام لا يكون بنقد أشياء تافهة ، بل بالدراسة والتحليل ، والواقع أن قوة العادة ، وفقدان المقدرة على الحكم الصحيح ، أو الملكة الناقدة ، تؤدى إلى وقوع أكثر الجغرافيين حيطة فى متناقضات عجيبة . فهذا كويجيك Cuijic ، فى كتاب ملىء بالمعلومات المفيدة عن شبه جزيرة البلقان[١] ، يبين فى أحد المواضع كيف أن الصقالبة والألبان لم يستجيبوا لدعاء البحر ، ولكنه فى موضع آخر ، يقول إن سهل الدانوب ، بالرغم من أن سلالة واحدة تسكنه ، وبالرغم من أنه سهل مستو وليس مقسما إلى أجزاء صغيرة مثل شبه جزيرة البلقان ، وبالرغم من أنه لا تغطيه الغابات ، بل هو واقع تحت نطاق السهوب ، فانه «جعل» سكانه الذين اشتهروا فيه منذ أوائل العصور الوسطى قوماً زراعيين وهكذا خلط السم بالعسل ![٢]

لقد أثبتنا أن مثل هذه الأحكام مبتسرة ، لأننا يجب ألا نقول أن الظروف الطبيعة قد شكلت المجتمعات البشرية ، لأن التحليل الدقيق للظروف الجغرافية تحعلنا نعتقد أن النشاط البشرى هو الذى شكل المجتمعات البشرية إننا نواجه نقاشاً ، بدرجة كبيرة من البراعة ، يسير على الأسلوب الآتى : فى وسط تسيكانا ، فوق التلال الضخمة التى تحتل الإقليم بين الأبنين وبين

(١) كوجيك (٢٢٣) ص ١٥٨ ، ٣٥٧
(٢) نفس المرجع ص ٤٦٨

ماريما ، نجد أن أهم طابع للإقليم هو غطاء نباتى من الأحراج والنباتات القصيرة ، والكروم ، وأشجار الزيتون . والتوت .

ولكن هذه النباتات هى « النتيجة الطبيعية لتضاريس الإقليم ، وطبيعة التربة والمناخ » . وأكثر من ذلك فانها ذات أثر اجتماعى معين « فى خلق مجتمع يقوم على أساس الأسرة ، وسلطة الأب ومراكزه التقليدية فيها » أى أن حقوق الملكية ونظام الأسرة نتيجة مباشرة للظروف الطبيعية [٣] . ولكن الكاتب نسى شيئاً واحداً فقط ، وهو أن هذه النباتات جميعاً التى يمتاز بها إقليم تسكانيا ـ وهى الحقيقة الجغرافية التى بنى عليها حكمه ـ ليست من صنع الطبيعة ، بل هى نتيجة للنشاط البشرى ، فإرادة الإنسان فقط ، وجهوده الطويلة المضنية هى التى أدخلت هذه النباتات إلى هذا الإقليم ، إذ أنها ليست أصيلة فيه ، وليس هو الوطن الأصلى للكروم أو الزيتون ومن باب أولى التوت ، الذى نقله تجار لوكا من صقلية الى تسكانيا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر .

إلى جانب هذا ، فربما كان من الصعب ـ ليس من الناحية الطبيعية ولكن من الناحية الاقتصادية ـ استغلال تسكانيا فى أى زراعة أخرى ، كما يجب أن نلفت النظر إلى أن الإمكانيات الاقتصادية . مميزة عن الإمكانيات الجغرافية ، ليست داخلة مطلقاً فى نطاق الجغرافيـة ، بل تنطوى تحت لواء النشاط البشرى . ومن الواضح أن الإقليم صالح لأنواع أخرى من المحاصيل

---

(١) روكس P. Roux (Les populations rurals de la tuscane science sociale, 55,1909 p. 3

الزراعية ـ من الناحية الجغرافية لا من الناحية الاقتصادية ـ اذ أن مناخها ملائم لها ، ويدل على ذلك وفرة الحبوب فيه . وإلى جانب الحبوب ، هناك حدائق الكروم أو الزيتون أو أشجار التوت ، ولا شك أنه لا يمكن أن يقال أن الحبوب محاصيل غير منفصلة عن الحدائق . فليس فى المسألة أى ضرورة ؛ ولكن الخطر فى الجغرافيا البشرية ، أنها تنزع الى أن ترفع الحقائق الى مرتبة الضروريات الحتمية . فالواقع أن المنظر العام لتسكانيا . منظر بشرى ، من صنع الإنسان ، وانتشار حدائق الزيتون والكروم والقوت فى تلال تسكانيا ، احدى حقائق المدنية الإنسانية ودراسة أثر هذه الحقيقة أمر جدير بالاهتمام ، جغرافى بطبيعته ، لأن الجغرافية فى نظرنا علم الوسائل والأساليب ، ومن المفيد جداً أن نبين كيف أن مجتمعين بشريين مختلفين ، فى اقليمين مختلفين ، قد تصورا أسلوباً معيناً لأرضاء حاجتهما ، وكيف أن كلا منهما ، تحت آراء ومعتقدات معينة ، قد استخدم الوسائل والموارد التى بين يديه ، والتى تقدمها له البيئة ، ولاءم بينها وبين غاياته . وهنا مرة أخرى ، نجد أن العنصر الأساسى هو التصور البشرى .

— ١ —

جغرافية المطالب البشرية أو أساليب الحياة

التصميم أم الحاجة ؟ هذا هو السؤال الأكبر : اذ أن هناك فريق من الجغرافيين قد بدأوا من حاجات الإنسان الحيوانية ، لأنهم تصوروا أن « الأرض » أو البيئة هى محور النشاط البشرى ، وأنها أملت ضرورتها على «الإنسان» املاءاً . وقد تكون هذه بداءة سعيدة للبحث ، بشرط ألا يكون هناك اعتراض على الحاجات « الطبيعية » للإنسان ـ أو اذا كان مفهوما أن الحاجات الطبيعية لا تستتبع بالضرورة وسائل طبيعية لإشباعها .

وتفصيل ذلك أن الإنسان يجب أن يستنشق ، ويجب أن ينام ، ويجب أن يأكل وأن يشرب[١] . ولقد رأينا كيف أن المعتقدات البشرية (وهى من صنع الأنسان) واتجاهاته الذهنية توسطت بين هذه الضروريات وبين تحقيقها ، ويكفى أن نشير هنا الى المحرمات العديدة التى تحيط بأنواع خاصة من الأطعمة عند بعض الجماعات البشرية[٢] ، وليس هذا الأمر قاصراً على الطعام ، بل أنه ليصدق أيضاً على جميع « الحاجات » البشرية الضرورية . والأحوال الضرورية التى يعيش فى كنفها الانسان بنشاطه المنتج ؛ ليست أحوال « السلم » وهو أمر مثالى ، بل « الأمن » وهو شرط يتوقف عليه

---

(١) برون (٦٦) ـ ، ص ٥٠ وما بعدها .
(٢) انظر أعلاه .

كل نشاطه ، أى لا بد من أن يؤمن وجوده وحياته ، ثم يوالى وسـائل استمرار هذا الوجود ، ولكن بين أن يؤمن وجوده وبين أن يوالى استمرار نشاطه ؛ حالة وسط يستدعى فيها الأمر الى التأهب للقتال باستمرار ولنفرض أن جماعة من البشر قد تأهبوا لتأسيس مساكن لهم ، فلو أنها آمنة على نفسها ، لكانت حرة فى أن تختار هذه المساكن فى الفضاء المكشوف حيث تسهل الحركة من مكان إلى مكان ، لا يحد من نشاط أهلها شىء ، ينعمون بالهواء والشمس ، وبحرية فى اختيار المواد اللازمة لهذه المساكن . ولكن إذا كانت هناك حالة حرب تهدد هذه الجماعة ، أو حالة تهديد بالحرب ، فإنها ستختار مساكنها فى محلات تنقصها كل الميزات التى ذكرناها من قبل ، لأنها ستتكرر باستمرار فى « تأمين نفسها » وتأكيد هذا التأمين . ومن ثم كانت مساكن البحيرات ، وسط المستنقعات الراكدة ، وسط العقبـات الطبيعية ، لكى تعرقل هجوم الأعداء ، ولكنها أيضاً تعرقل حرية سكانها ، الذين يعتمدون على الماء والبرص والطين للدفاع عن أنفسهم ضد أى هجوم . فليس هناك اذن شىء طبيعى بين الانسان والطبيعة .

كما أن الحاجة الى التجارة ، شىء طبيعى أساسى ، وهى تفسر نشأة الأقاليم والأمم والدول وهذا صحيح ، ولكن ما هى التجارة ؟ ان أقدم أنواع التجارة لم تنشأ فى مواد ضرورية للإنسان : بل نشأت فى الكهرمان والذهب . بل والصفيح ؛ لأننا لا نعرف تماماً ما اذا كانت المواد الحربية الحجرية الحديثة اقل قيمة من المواد الحربية البرنزية أم لا . وعلى أية حال فقد تدخلت مسائل

السلم والحرب من قديم الزمن بين الانسان وبين ظروفه الطبيعية . وفى الوقت الحاضر تتدخل بين كهرمان البحر البلطى وصفيحه وذهبه ، وبين الجهات الأخرى البعيدة التى تطلبه « المدنية » وهى كلمة غامضة ، تشتمل على آلاف المعانى والمدلولات ، منها العادة السائدة (المودة) والترف والدين والتقليد . وليس منها ما هو جغرافى بالطبيعة . والواقع أن الطبيعة لا تؤثر فى حاجات الانسان ومطالبه ، بل أن الانسان هو الذى يؤثر فى الطبيعة على مر الزمن ، وذلك باختياره وسيلة أو وسيلتين من وسائل تحقيق حاجاته العديدة ، وبتمسكه بعناد بهذه الوسيلة أو الوسائل التى يختارها وبنفس الأساليب ، وتحت نفس الاتجاه الذهنى فى تحقيق غايته ، ببطء فى بادىء الأمر ، ولكنه بطء مستمر ، ينتهى إلى أن يصبح نطاقاً واسعاً عميقاً ، بمعنى آخر ، اننا نحتاج لأن نبين أساليب الحياة التى تتبعها الجماعات البشرية المختلفة .

لقد وضح فيدال دى لاباش هذه الفكرة بقوه ووضوح فى مقالين فى الحوليات الجغرافية[1] ، وهذه الفكرة ذات أهمية كبرى للبحث الجغرافى البشرى ، وأصل هذه الفكرة قديم يرجع الى محاضراته التى كان يلقيها عام ١٩٠٢ عن ظروف الأحداث الاجتماعية[2] وقد حذرنا قائلا « يجب أن نتذكر أن قوة العادة تلعب دوراً كبيراً فى طبيعة الانسان الاجتماعية . فإذا

---

(١) (١١) ١٩١١ ، مجلد ٢٠ ، ١٥ مايو ، ١٥ يوليه

(٢) (١١) ١٩٠٢ مجلد ١١ ص ٢٢ — ٢٣

وجد نفسه — وهو يتطلع الى الكمال — يسير بخطوات ثابتة متقـــدمة ناجحة ، فانما ذلك لأنه يتابع نفس الخطوات التى اهتدى إليها من قبل . أى باتباع نفس الأسلوب ونفس المهارات التى انتقلت اليه بالوراثة من سلفه من قبل ، والتى ينميها ويغذيها بتمسكه بها واتخاذها عادة له » ثم يتابع فكرته قائلا « ويحدث كثيراً أن بعض الامكانيات الجغرافية للاقليم تظل مدة طويلة مهملة ، أو أن ذهن الانسان لم يتجه الى استغلالها الا فى عصر متأخر » .

فيجب أن نسأل أنفسنا فى هذه الحالة ، ما اذا كان هذا الاهمال أو هذا الانتباه المتأخر لها ، منسجماً مع أسلوب حياته التى ساعدت صفات البيئة الأخرى على التمكين له أم لا » . وهكذا نجد فيدال دى لابلاش ، منذ عام ١٩٠٢ قد اهتدى الى الفكرة الأساسية ، بل الى الألفاظ الدقيقة المعبرة عنها ، ووجد أن وسائل الاستغلال الاقتصادى أو النشاط الاجتماعى قد تصبح ضرورة أيضاً فى وقت آخر . « فالعادة تحفر لنفسها طريقاً يزداد عمقاً يوماً بعد يوم فى عقول البشر ، وأن تأثيرها على الانسان يبلغ من العمق بحيث أنها توجه قواه التقدمية كلها فى اتجاهات خاصة » ورأى أن الجغرافى قد أضلته أوهام معينة جعلته يقول « أن هذه الطبيعة ، التى نراها ، تتضمن أسلوباً معيناً من الحياة » بينما هذه الطبيعة ذاتها ، كما يراها الجغرافى الآن ، ليست الا نتيجة أسلوب معين من الحياة .

والواقع أن العادات التى يكتسبها الناس فى بيئات معينة ، تتحول ، بحكم

التكرار والثبات إلى أشكال من المدنية ، وأن هذه الأشكال تكون إنماطاً خاصة ، يمكن أن نفصل بين بعضها والبعض الآخر جغرافياً ، ويمكن أن نجمع بعضها الى بعض ونقسمها الى مجموعات فتقسم بدورها الى مجموعات فرعية. ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ وعلى أى أساس نقسم هذه المجموعات؟ وكيف نستطيع أن نتعرف اليها والى أنواعها أو فروعها ؟

- ٣ -

تصنيف الاقتصاديين : نظريه الحالات الثلاث

« اسأل المؤرخين والاقتصاديين » كما يقول الناس « فان المشكلة قديمة بالنسبة لهم، وقد وصلوا إلى الحل من زمن بعيد » . ولكن هل هذا صحيح ؟

نحن نعلم أن المؤلفين القدماء كانت لهم آراء واضحة جداً حول تقسيم البشر ـ آراء من الوجاهة حقاً ، لدرجة أنها كانت تنتقل بكل تقديس من جيل إلى جيل ، دون ما تغيير يذكر ، حتى عهد قريب .

وكان المؤرخون وأصحاب النظريات السياسية القدماء ، يرون أن البشر جميعا قد مروا خلال ثلاث فترات متعاقبة ، فعاشوا أولا بالصيد والقنص ، ثم بتربية الماشية ثم بالزراعة . وهذا ترتيب تاريخي منظم عادى ، أليس من الطبيعي والمحتمل أن يسبق الصيد والقنص حياة الرعى ، التى سبقت هى بدورها الزراعة ؟ لقد مر الناس كلهم فى خلال هذه المراحل الثلاث بالترتيب بطريقة بسيطة لابد منها ، كما ينتقل الفرد من الشباب إلى الرجولة الى الشيخوخة على الترتيب .

ولكن هذا التعاقب التاريخى ، كان فى الوقت نفسه تقدما اجتماعيا . فالصيد والقنص كان مهنة الناس البسطاء ، الذين لا يتمتعون الا بدرجة بسيطة جدا من المدنية ، بل كانوا أقرب الى الحالة البدائية الأولى. ثم انتقلوا بعد مجهود كبير وارتقوا الى مرتبة الرعاة ، وبذلك ارتفع مستواهم المدنى

أما وصولهم إلى مرتبة الزراعة ، المستقرة على الأرض المزروعة ، فكان خطوة كبرى للتقدم البشرى . وتلك ثلاث مراحل تاريخية ، لا شك . أو ثلاث درجات فى سلم التطور والرقى ، لا يستطيع البشر أن يصلوا إلى قمتها دون الصعود فوق الدرجتين السابقتين . وهذا ترتيب ثابت غير قابل للتغيير، مثل درجات الحضارة البشرية ، الحجرية ، والبرنزية ، والحديدية . وقد ظلت هذه النظرية سائدة الى أن عارضها ج . وى مورتيلليه عام ١٨٩٠ فى كتابه عن أصول الصيد والمرعى والزراعة .

ولم يظهر عدم كفاية هذه النظرية لشرح التطور الحضارى البشرى الا منذ ثلاثين عاما ولكن هذا الترتيب التعاقبي للمراحل الحضارية ليس الا فرضا . ثم ازدادت الملاحظات العلمية والمعلومات الدقيقة عن حياة الشعوب البدائية التى أظهرت وجود عدد كبير من « الحالات » الحضارية ، أو على وجه الدقة أنماطاً اقتصادية للمجتمع البشرى ، أقل وضوحا وحدة من حالات صيد السمك والقنص والرعى والزراعة ، التى ظلت أمدا طويلا محتلة بؤرة الاهتمام العلمى .

فمثلا ستاينمتز Steinmetz ، الذى قسم نتائج سلسلة من الدراسات ـ التى أوقف ادوارد هاهن [1] اهتمامه عليها ، بالرغم من وقوعه فى بعض الأخطاء ـ ووجد ضرورة تمييز ستة أو سبعة انماط للمجتمع البشرى

---

(١) Das (١١٣) 1865, Haustiere, Demeter und Baubo Alter der Wirtschaftlichen Kultur der Menscheit, Heidellerg 1905

فهناك أولا جامعو القوت وملتقطوه ، الذين يعيشون على ثمار الأشجار وجمع الحيوانات الصغيرة ، التى يقابلونها فى طريقهم ، دون أن يستعملوا آلات أو أسلحة ثم بعد ذلك الصيادون ، وهم جماعة مختلفة تماما عن الجماعة الأولى وتشمل عدة انماط متفاوته بعضهم يجمع أو يلتقط القوت مع صيد ضئيل وبعضهم صيادون تماما بمعنى الكلمة ، وثالثا من يجمع بين صيد السمك والقنص وبعض الزراعة الأولية ونوع بسيط من رعى الماشية . وبعضهم يصيد السمك . ورابعا جماعة يتكونون من الزراع المتنقلين . أو الصيادين الزراعيين ، وخامسا الزراع المستقرون ، ولكن من طراز بسيط ، يوقفون أنفسهم أيضا على الصيد وحمل الأثقال ورعاية الماشية ، وسادسا عندنا الزراع الراقيون الذين يعرفون استعمال السماد والرى والآلات الزراعية وأخيرا رعاة الضأن الذين يهيمون وراء قطعانهم .

ما فائدة كل هذه الأقسام ؟ انها أقسام تتسم بالدقة المنطقية والجفاف العلمى ، مما يجعلنا نوجس خيفة منها . فمن السهل ومن المريح أن نتصور «جامع القوت» البسيط ، ولكننا نخشى أن يظن بعض الناس أن هذا الجامع للقوت هو « الانسان الأول » الذى تصوره مؤلف العقد الاجتماعى أما عن بقية الأقسام المعقدة ، من صيادين ، يشتغلون أيضا بصيد السمك بعض الوقت ، أو الزراع الذين يصطادون فى أوقات فراغهم ، أو الصيادين الذين يزرعون أيضا من حين الى آخر ، فان التعرض لها يبدو عملا ساذجا . بل الأفضل من ذلك أن نقرر أنه لا يوجد الا حالات قليله من الشعوب التى تشتغل بالصيد أو بالزراعة أو صيد السمك ، بصفها مهنا وحيدة للشعوب

المختلقة ، وأن الشعب من الشعوب يوقف حياته كلها لمهنة واحدة أو نوع واحد من النشاط الاقتصادى ، ولكن الشعوب كلها من الحصافة بحيث تمسك بأكثر من خيط واحد من حياتها الاقتصادية ، وأن الانماط الاقتصادية يقترب بعضها من البعض الآخر إذا اضطرتها الحاجة ، وأنه لا فائدة من اطالة قائمة الانماط الاقتصادية الى مالا حد له ، لمجرد الرغبة فى التحديد والتقسيم الدقيق .

إذا تركنا جانبا قسم « جماعى القوت » المفترض ، الذين يقصرون عملهم على الجمع والالتقاط ، فاننا نجد أقساما جديدة ذات قيمة فى كتابات ا ــ وارد هان[١] ، اذا قسمنا حرفة الزراعة الى ثلاثة أقسام ، وقارنا بين حرفة الزراعة بالمعنى الصحيح ــ الزراعة الحديثة فى الحضارة الغربية ، التى تنتج الحبوب ، والتى تستعمل المحراث والماشية ــ بالزراعة البدائية (التى تستعمل العصا) فى أمريكا الجنوبية ووسط افريقية وجزر اندونيسيا ، والزراع الدائبون فى صبر فى الحضارات الأسيوية فى الصين واليابان. فلابد من أن نشير اشارة خاصة الى نقطتين هامتين .

فليس هناك أولا ضرورة لكى يمر الشعب من مرحلة الى مرحلة [٢] ، فأحيانا يقفز من مرحلة الى اخرى دون المرور بالحلقة الوسطى المفروضة.

(١) فكرة الزراعة بمساعدة العصا ، وجدت أولا فى كتابات نواشكى ، قبل ظهور كتاب هاهر Haustiere

(٢) قارن هان (١١٣) ص ٧ - ٤

فزراع أمريكا الوسطى ، قبل عهد كولومبس أصحاب الحضارات القديمة الأصيلة التى حطمها الغزاة الأسبان ، لم يمروا مطلقا بمرحلة الرعى، وربما كان السبب فى ذلك هو أنه لم يكن لديهم الحيوان الضرورى للرعى. وأحيانا يوجد فى نفس الشعب ، وفى نفس الفترة أسلوبان مختلفان للحياة ، يختلف أحدهما نظريا عن الآخر تمام الاختلاف ؛ وهذا يحدث فى المجتمعات التى يكون فيها تقسيم العمل بين الرجل والمرأة [٣] ، وحيث يعيش الرجل على منتجات الحيوان ، مما يصيده او يقتنصه ، وتعيش المرأة على الجذور والفواكه التى تجمعها ، أو على الخضروات التى تزرعها من حين الى حين آخر بشكل بدائى بل وأحيانا يبدو كما لو أن الترتيب التصاعدى بين الحالات الثلاث قد انعكس تماما .

وقد اقترح روشر أن القنص قد ظهر أولا فى مكان والرعى فى مكان آخر ؛ والزراعة فى مكان ثالث حسب توفر الظروف العامة أو حسب ملاءمة المناخ ، وبذلك فهو يضع أمامنا نظرية انتهاز فرصة ما تقدمه البيئة .

ثم جاء نواشكى Nowacki من بعده ، وبين أن رعى الماشية لا يمكن أن يكون اطلاقا نتيجة مباشرة لحرفة الصيد ، وأن الزراعة ظلت أمداً طويلا زراعة مؤقتة ، باستعمال العصا لنبش الأرض ، دون استعمال الماشية أو المحراث البسيط ، وأن الزراعة الراقية التى نجدها الآن فى العالم المتمدين لم تظهر الا فيما بعد ، وكان ظهورها انتصاراً مدنيا رائعا . وأن تربية الماشية

(٣) فارن بوشر ١٦٨ L'coienom des primitife

ورعايتها لم تظهر ، كما تقول النظرية القديمة ، بين الصيادين ، بل بين الزراع البدائيين الذين كانوا يستعملون العصا ، والذين يعتبرون الرواد الأوائل للزراع الراقيين ؛ كما ظهرت بين البدو الرعاة الذين كانوا رعاة ضأن فى جهات أخرى من العالم . هذا هو ملخص الآراء التى اعتنقها هان [١] والتى وضحها فى كتابه ديمتر وباوبو (١٨٩٦) ، والذى اقترح فيه النظام التطورى الآتى : أولا ظهرت الزراعة البدائية التي تعتمد على العصا Hackbou أول أنواع الحرف على الأرض وأقدمهـــا [٢] ، والتى كان يمارسها سكان الأكوام المرتفعة القدماء ، وكانوا يحصلون منها على الدخن ، الذى فاق فى صفاته الغذائية غيره من النباتات المنزرعة[٣] . ثم تلا ذلك استئناس الماشية لعامل دينى أول الأمر ، ثم لعوامل اقتصادية بعد ذلك . ثم ظهر بعـد ذلك الرعاة والبدو ، الذين يسوقون قطعانهم أمامهم فوق السهوب ، ثم تلا ذلك مباشرة اختراع العجـلة [٤] . وكانت فى أول الأمر أداة دينية وآلة مقدسة ثم استعمل الثور بعد ذلك فى جرها ، ثم استعمل فى جر المحراث ، وهذا هو بدء الزراعة بمعنى الكلمة ، وكان انتشار هذه الحرفة الجديدة بطيئـــا جدا فى

---

(١) Nowacki, A. Jagd oder Ackerbau 1885

(٢) هان ١١٣ ص ٥٦٨

Die erste und urspringlichste stufe aus der alle anderu hervorgehen mussen, ist der Hackbau.

(٣) هان Haustiere (١١٢) ص ٤١٠

(٤) هان Demeter (١١٣) ص ٣٠ (Der wagen) .

أول الأمر . ولكن يبدو أنها ظهرت أولا فى بابل عام ٥٠٠ ق.م ثم ازدهرت بكل صفاتها العديدة ، وبكل فروعها .

ليس هنا مكان مناقشة هذه النظرية وفحصها ، ولكننا نشير إليها ، لأنها تميل إلى أن تقلب النظام التعاقبى المثالى القديم رأسا على عقب ، الذى كان يتصور نظاما هرميا بعضه فوق بعض . وبعضه يتلو بعضا فى ترتيب تاريخى متعاقب فينتظم أساليب الحياة الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية المعروفة .

أما الملاحظة الثانية التى يجب أن نشير إليها ، فهى كيف يستطيع الزراع البدائيون ، الذين يكتفون بنبش الأرض فى غير مهارة . بآلات بدائية ، وهى العصا hoe ، والذين يضعون فى تلك الحفرات التى ينشبونها ببعض الحبوب أو الجـــذور ، دون انتقاء ، والذين لا يعرفون استعمال السماد ، كيف يستطيع هؤلاء أن يكونوا مجتمعات أرقى من مجتمعات صيادى السمك أو القناصين ؛ ويبدو من كتابات الرحالة المكتشفين أنهم ليسوا فى الواقع أرقى من الصيادين أو القناصة . وهل الرعاة أقل تمدنا من كثير من الزراع البدائيين ؛ هذا أمر مشكوك فيه . هل مجرد الاستقرار فى الأرض أرقى من البداوة ؛ قد يبدو هذا صحيحا ولكن هذا الوهم سوف يتبدد سريعا أمام الحقائق . ولكن هذه الملاحظات جميعا ، سطحية جدا وهذا عيبها .

* * *

هل نستطيع ، أو لا نستطيع ، استخلاص « أساليب معينة للحياة » ، من جميـــع كتابات المؤلفين الذين حاولوا تقسيم المجتمعات البشرية ، سواء

ذكروا ثلاثة أساليب أو خمسة أو سبعة ؛ وهل هذه الأساليب من الوضوح بحيث يمكن أن يمتاز بعضها على البعض الآخر ، امتيازا تاما ؟ هــذا هو السؤال الذى لم يسأله الكتاب من قبل ، بل اكتفوا بالاعتماد على كتابات هان أوغيره من الكتاب، الذين لم يثبتوا صحة ما يكتبون. ولنلاحظ بادىء ذى بدء أن هذه التقسيمات جميعا قائمة على أساس اقتصادى ، وأنها قائمة على الأسلوب الذى يتبعه الناس فى نشاطهم الاقتصادى من أجل حفظ نوعهم ، وأنها تهمل ما عدا ذلك من الاعتبارات .

وربما كان هذا مقبولا ومعقولا إذا عرفنا هدف المؤلف، ولكن الأمر المؤكد هو أن من يتكلم عن طراز اقتصادى لا يعنى طرازا اجتماعيا وإلا فإن معنى هـذا أن كل ما يؤثر فى الإنسان وفى حياته الاجتماعية يعتمد اعتمادا تاما كاملا على طعامه ونحن لم نقاوم الفكرة الحتمية الجامدة فيما يختص بالبيئة لنقع فى حتمية اقتصادية جامدة .

وانه ليحدث أحيانا أن تختلف الجماعات البشرية بعضها عن البعض الآخر فى عاداتها وصفاتها ومثلها الاخلاقية ونظمها السياسية ولكنها من الناحية الاقتصادية تتفق فى أنها تقع تحت نظام واحد هو رعى الضأن مثلا . ونحن عندما نتحدث عن أسلوب حياة شعب من الشعوب نتحدث فى الوقت نفسه عن الاثار المترتبة التى لاريب فيها والتى تتبع هذا الاسلوب الاقتصادى الذى يتبعونه فاما أن فكرة أسلوب الحياة لامعنى لها ، أو أنها تأخذ فى الاعتبار عادات هـذا الشعب ، ولكن الناس منذ عهد قديم يقعون تحت تأثير التقاليد المتوارثة ، وهذه بدورها تؤثر ـ الى حد ما ـ فى أسلوب تفكيرهم

وفى طريقة معالجتهم للامور العامـة وطريقة تغلبهم عليهـا والحق انه ليس الاختلاف فى وسيلة حصولهم على الطعام هو الذى يميز الجماعات البشرية بعضها عن البعض الآخر ، ولكن ذلك التنوع الكبير فى عاداتهم وأذواقهم هو الذى يدفع بعض الجماعات للبحث عن طعامهـا بأسلوب معين ، ويدفع البعض الاخر للبحث عن طعامها بأسلوب آخر . وليس الصيـد فى مكان أو الزراعه فى مكان آخر هو الذى يجب أن يكون نقطة البـــده فى تقسيم الجماعات البشرية المختلفة ، ولكن مجموع العـــادات والميول والأذواق التقليدية والمعتقدات هى التى توجد الفرق بين الصيادين الأقزام والفلاحين الزنوج ، ويمنع اختلاطهم بالرغم من أنهم يعيشون جنبا إلى جنب؛ ويتصل بعضهم بالبعض الاخر . بمعنى آخر يجب أن نضع الانسان فى هذه الحـالة أيضا فى مكانته اللائقة به . والا فما معنى أن نعلق فكرة أسلوب الحياة ، على أنها تقدم كبير فى طريقة البحث ، إذا كنا فى نفس الوقت نرجع الى وهم الحتم والقدر ، ذلك الوهم الذى حاولنا جهدنا لكى نبدده من الاذهـان ، لأنه يقوم على استنتاجات غير صحيحة ومضللة ، ولأن أصحابه يفتقدون المقدره الناقدة التى تزن الأمور وزنا صحيحا .

وربما اختـــار الجغرافيون أن يتبعوا التقسيم الاقتصادى للجماعات البشرية ، وربما تحدثوا عن الصيادين وصيـادى السمك والزراع البدائيين والبدو الرعاة ، ولهم الحق فى ذلك . ولكن عليهم أن يفهموا أن هذه الأقسام ليست لها ، وما ينبغى أن يكون لهـا ، معان ضيقة حتميه كما يراها الاقتصاديون ، ويجب ألا يسمحوا لأنفسهم بأن يساقوا وراء حتمية قدرية

وبفكرة ثابته عن اعتبار المورد الغذائى هو العـــامل الاساسى فى الحياة البشرية ، مثله مثل المناخ أو التربة فللاقتصاديين ميدانهم الاقتصادى ، أما الجغرافيون فعليهم أن يدرسوا الظروف البشرية ويضعونها فى المحل الاول من الاعتبار . وعلى هـــدى هذه الملاحظات علينا أن نتابع دراسة أنواع المجتمعات البشريه المختلفة .

وبأى ترتيب سنتحدث عنها ؟ أننا اذا بدأنا بالصيادين ثم أتبعنـــاهم بصيادى السمك ، فليس معنى هـــذا مطلقا أننا نتابع أحد أوجه الخلاف فى مسألة أصول أساليب الحياة المختلفة بل لو أننا اشتركنا فى هذا الجدل ، لرفضنا من بادىء الامر النظرية القديمة التى لم يعد يتبعها أحدا. أما السبب الذى جعلنا نبدأ بالصيادين فيرجع الى أنهم فى الواقع الحالى ، والتاريخ البشرى، لم يلعبوا الادورا أقل بكثيرمن الدور الذى لعبه الرعاة أو الزراع.

- ٣ -

صيادو البر

سنترك جانبا « جامعى القوت » هؤلاء الذين يكتفون بمجرد جمع الثمار والجذور ، والقواقع والحشرات والديدان ، والذين لا يستعملون أى سلاح يصطادون أو يقتنصون به ، والذين جرت العادة على وضعهم فى أدنى درك فى سلم الارتقاء البشرى . وليس من المهم أن نناقش ما اذا كان وجودهم على هذه الحالة البسيطة ، مسألة فرضية أو غير فرضية ولنبدأ استعراضنا لأساليب الحياة المختلفة ، بدراسة أساليب الصيادين وصيادى السمك ، الذين اعتبروا فترة طويلة من الزمن ، أبسط المجتمعات البشرية وأكثرها بدائية .

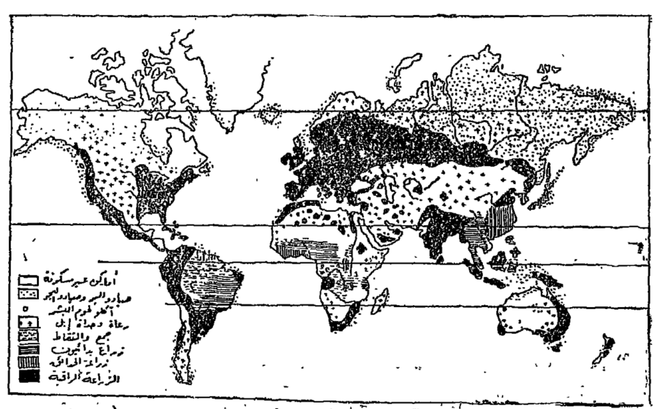
إذا ذكر الصيادون ، ذكر أول نشاط بشرى ، يرجع إلى أقدم العصور البشرية أى إلى العصر الحجرى ، وذكرت صورة هؤلاء الصيادين الذين رسمهم (١) دشيت فى كتابه ، الذين كانوا يقيمون أكواخهم التى لا أثر لها الآن من فروع الأشجار ، قرب مجارى المياه ، والذين كانوا يطاردون الحيوانات بأسلحة من الصوان أو العصى الغليظة ، والذين كانوا ينصبون الفخاخ لها ، أو يحفرون الحفر للايقاع بها (٢) . أما الطيور فكانوا يصيدونها

---

(١) ديشليت « ١٧٠٠ » مجلد ١ ، ص ٦٣

(٢) نفس المرجع ص ٧٧ . حيث يذكر ديشليت صيادى العصر النيلى ، ويقول دى مورجان أن هذا الشرح ليس له ما يبرره لأننا لم نعرف الكثير عن حياة سكان الكهوف =

بالأحجار التي يقذفونها بها وبالأيدى أو بالمقلاع أو بالسهام فيما بعد، عندما صنعوا رئوس رماح لها من الحجر، كانت تثبت فى عصى خشبية قصيرة. وقد ظل استعمالها حتى العصر الحجرى الحديث فى غرب أوروبا أمدا طويلا، ثم بالتدريج حل محلها الرماح المصنوعة رئوسها من صوان مشظى[1] له سن مدببة.



شكل رقم (٦) توزيع أساليب الحياة المختلفة (عن هاهن) Die Haustieje 1908
فردريك Allgemeine Wirtschafts giographie 1904,2.

= فى العصر الحجرى الا منذ العصر الموستيرى، عندما كان الناس يشتغلون بصيد الحيوان وصيد السمك (دى مورجان انسان ما قبل التاريخ ص ١٧٠)

(١) من أنواع السهام ورؤسها انظر دى مورجان شكل ٤١ (١٧٥ ص ٩٧)

هذه الأسلحة كانت بدائية ، ولم يكن أثرها فعالا ، ولكنها تدل بالرغم من هذا على تقدم ملحوظ ، إذا لاحظنا أن القوس والسهم ظلا مستعملين حتى العصر الحالى عند الاستراليين الأصليين وسكان نيوزيلندة وسكان المحيط الهادى الأصليين وكان الغرض منها مجرد احداث جراح فى الحيوان وليس قتله فى الحال ، وربما كان الانسان قد تعلم غمس نصال السهام فى مادة سامة ، مستخرجة من نبات سام (١) ، فكان مجرد احداث جراح بالحيوان كفيلة بقتله . ولكننا لاندهش بضآلة شأن تلك الأسلحة وعدم جدواها ، إذا عرفنا أن الانسان فى العصر الحجرى كان يتجول فى جماعات صغيرة ، تهيم على وجهها فى الأرض الواسعة ، أو على ضفاف الأنهار الكبرى ، حيث البيئة غنية بأنواع مختلفة من الاشجار والنباتات ، وأنه كان جماعاً للثمار والجذور ، وكانت الثمار النباتية تكفى حاجته ، ولم يكن فى مسيس الحاجة لحيوان الصيد ، فكان يكفيه أن يطاردها عنه ، ويصد عن نفسه أذاها بمجرد اخافتها بسهام تجرحها .

ولكن دعنا من هذه التخمينات التى تبعدنا عن صميم موضوعنا . فقد كان الصيد فى الحاضر الذى نشهده وفى الماضى الذى يصوره لنا التاريخ أحد الوسائل التى يلجأ إليها بعض جماعات البشر للحصول على القوت ، كما أنها للبعض الآخر الوسيلة الوحيدة للحصول على هذا الرزق .

وقد وقع الباحثون فى الخطأ لانهم لم يفرقوا بين الصيد كحرفة أصلية

---

(١) دى مورجان ص ١٧٠
(٢) دى مورجان ص ١٧٠

وبينه كحرفة مساعدة للجماعات البشرية المختلفة ، ولذلك كانت تعميماتهم خاطئة . فالصيادون الذين لايعملون شيئاً غير صيد الحيوان ، قليلون . وهم جميعا يشبهون الأقزام فى صفاتهم الاساسية المميزة ،هؤلاء الذين لايزيد طولهم عن ١٥٠ سم ، ولهم شعر صوفى ومناكب عريضة وأزرع وسيقان قصيرة ، والذين لايعرفون الزراعة أو تربية الماشية اطلاقا ولكنهم يعيشون بالصيد أو جمع الثمار والتقاطها (١) . وهم يكونون ثلاث مجموعات ، واحدة فى وسط افريقية ، وأخرى فى آسيا الاستوائية ، والثالثة تشمل بوشمن جنوب افريقيا . وجميعها تمتاز بميزات عامة مشتركة فيما بينها منها جماعات تهيم على وجوهها فى جماعات صغيرة ؛ وهى تعرف استعمال النار ، التى يولدونها بأبسط الوسائل ، أى بالاحتكاك ؛ ويسكنون فى مساكن بدائية ، مجرد مأوى تحت الصخور أو فى الكهوف أو مأوى يلجئون فيه للاحتماء من الرياح ؛ والكوخ اما مستدير الشكل أو على هيئة نصف دائرة ، يضم اسرة واحدة . وهم يعرفون القوس والسهام ، المصنوعة من العصى المدببة أو من العظام المدببة بشكل بدائى قديم . ومجمل القول أنهم يكونون وحدة قائمة بذاتها تمتاز تماما عن غيرها من الجماعات البشرية .

وهناك أقزام أخرون ، مثل البابنجا الذين يعيشون فى اقليم السانجا والذين يختلفون اختلافاً كبيرا من غيرهم من الجماعات التى يلجئون الى

---

(١) عن عاداتهم انظر
Die stelling der Pygmaenvolker in der Euturicklungs geschichte des Meuchen Stuttgait, 1910.

حمايتها، فمسكراتهم تتحرك باستمرار وراء ضرورات الصيد ؛ وهى تتراوح بين نوعين ؛ بين المسكن المستقر فى القرية التى تمدهم بالمانيوق والموز والذرة وبين مساكن المستنقعات واقاليم الغابات الكثيفة التى يلجأ اليها أهم حيوان صيد لديهم وهو الفيل. [1] وليس لديهم قرى بمعنى الكلمة، ولكن مجموعة أكواخ منخفضة السقف مصنوعة من فروع الأشجار على هيئة أشكال السلال، تغطيها أوراق، وإلى جانب كل منها موقد صغير لشى اللحم. [2] وليس لديهم محاصيل، أو قطعان ماشية ولا يقتنون الماعز أو الدواجن ولا يعيشون الا على لحم الصيد أو الخضروات القليلة التى يجمعونها من بين الأحراج ويعتبر البام أهم غذاء لديهم، كما أن المانيوق أهم غذاء لجيرانهم وهم مغرمون جدا بالعسل البرى. ويتسلقون الاشجار بخفة مهما كانت مرتفعة. ولكنهم لا يصطادون السمك بالرغم من ان النساء ترتاد الحفر من حين الى آخر وتجمع الماء فى سلال وتقذف بها خارج الحفر حتى يحصلن فى النهاية على صغار السمك. هذه اذن حياة الأقزام الذين يختفون عن الانظار بمجرد رؤية الرجل الابيض ويتسللون الى الأحراج حيث يختبئون فى خوف شديد ولذلك كان من الصعب الاتصال بهم [3] ويدعوهم جيرانهم باحتقار شديد «حيوان الأحراج» ومن الغريب أن هناك اتفاقا تاما فى الشئون

---

(١) كل هذه المعلومات مستقاة من دراسة دكتور ريجنولت فى «١٦» مجلد ٢٢ ص ٢٦٠

(٢) كورو «١٧٩» ص ٢٦٤

(٣) عن عقلية الصيادين انظر كورو ص ١٨٥ أعلاه ؛ وكذلك ص ٣٥٥

الداخلية بين هؤلاء الصيادين وبين جيرانهم المستقرين الأقوياء . فالبانجا يساهمون بحيوان الصيد . فى مقابل المانيوق والذرة والموز . بل أن كل صناعة مستقرة بين الزنوج لها أتباعها من الصيادين . الذين يغيرون أسيادهم وينتقلون من قبيلة الى أخرى تضفى عليهم حمايتها . وهناك نجد نوعا طريفا من التعاون البشرى بين صيادين وزراع . كل منهم يساهم فيما يحتاجه المجتمع المشترك . ولكن كل منهم يتمسك بحرفته . ولا يجمع بين الاثنتين اطلاقا.[1]

هذه الصفات المميزة للبانمجا تظهر فى شعوب مماثلة لها ، هى كل الجماعات القزمية[2] فى وسط افريقية .

كما تظهر أيضا بين البشمن فى جنوب افريقية وهم أيضا « قصار القامة » وهؤلاء تدور حياتهم كلها حول الصيد ويستعملون القوس والسهام ، ويصنعون سيور الأقواس من جلد الحيوانات ، كما يصنعون منه أيضا آلات موسيقية يقلدون بها أصوات الحيوانات التى يصطادونها - إذ أن حياتهم كلها تدور كما قلنا حول الصيد [3] - ولا يحترفون حرفه سواها ، وإذا لم يوفقوا فى صيد الحيوانات المتوحشة ، فانهم يلجئون إلى مجرد جمع الجذور والتقاط الفئران والحشرات وبيض الثعابين .

---

(١) هذا موجود فيما كتبه دكتور بوتران فى « ١٦ » ١٩١٠ ، مجلد ٢٢ ص ٤٢١ وما بعدها . ونصوصها ص ٤٠٤ . كذلك فى بروبل أفريقية الاستوائية الافريقية ١٩١٨ ، ص ١٩٩

(٢) قارن ما كتبه هوتيرو عن الباتوا . الصيادين الأقزام فى الكونغو البلجيكية « ١٦ » ١٩١٠ ، ص ٢٢١

(٣) « ١٦ » ١٩١٧ ؛ مجلد ٢٨ ص ٦٠٣

ولا يسكنون فى أكواخ ، بل بمجرد مظلات من فروع الاشجار وليس لهم أى نظام سياسى ولكنهم يهيمون جماعات أو عصابات على وجوهم ، وليس لهم زعماء أو طبقة محاربين ، ولا يعرفون المحاصيل الزراعية المنتظمة ولا الحيوانات المستأنسة ولكنهم فى غاية الصبر وقوة الاحتمال : فهم يرقدون ساعات متوالية ، بل أياما متتالية إلى أن يمر بهم الحيوان الذى إجتمعوا لصيده؛ كما أنهم على جانب كبير من المهارة فى الزحف نحو الحيوانات المقتربة نحوهم ، دون أن يثيروها أو يزعجوها .

الا أنه ليس لديهم أى فكرة عن الاقتصاد ، بل أنهم ليأتون على كل شىء فى طريقهم دون أى اعتبار وهذه صفة يشترك فيها كل البدائيين الذين يعتبرهم بعض الباحثين سلالة أجدادنا القدماء الذين كانوا يعيشون فى الزمن الرابع (1) والا فكيف ظلت تلك الحضارة العتيقة باقية حتى الوقت الحاضر .

وبقى سؤال واحد يحتاج الى اجابة ، كيف نفسر وجود الصيد كحرفة وحيدة ، تستأثر باهتمام جماعة معينة من البشر، هى التى تشتغل بالصيد وحده؟

يجيب على هذا السؤال الدكتور ديكورس ، الذى قام بدراسة هامة للصيد والزراعة بين سكان السودان (2) . فهو يرسم كل العقبات التى لا حصر لها فى طريق الصياد ، وكده الكبير فى سبيل الصيد ، وبحثه المضنى عن

---

(١) نظرية شميدت فى المرجع السابق وقارن أيضا «٦١» ١٩١٨ - ١٩١٩ مجلد ٢٩ ص ١٢١

(٢) ديكورس ؛ ١٩ «١٨٠» ص ٤٥٧

الحيوان ، واقتفاء اثره بين الأحراج ، والرحلات الطويلة التى يكرها عائداً الى طريقه الأصلى . وساعاته الحرجة التى يوجد فيها وجها لوجه أمام حيوان جريح . وما يتعرض له من أخطار[١].

كما أنه يبين كيف أن الزنجى يفضل أن يبحث عن طعامه بشكل آخر . وهو الركون إلى الزراعة البدائية وصيد السمك أحيانا وجمع القواقع البحرية من الأنهار أحيانا . «ولا يلجأ الزنجى إلى الصيد الا تحت الضرورة القصوى وإذا إصطاد فإنما لكى يفى بحاجة طعامه فقط » ويقول فى مكان آخر « ليس الصيادون سوى جماعات بشرية فقيره . لم تغدق عليها الطبيعة كما أغدقت على الاخرين» [٢] وهؤلاء الصيادون . أو الذين يصطادون أكثر من غيرهم . هم الذين يسكنون بقعا من الغابة من العسير عليهم فيها أن ينظفوها من النبات والأشجار الطبيعية ليعدوها للزراعة . ويقول مرة أخرى « أن حرفة الصيد ليست خاصة بأحد دون آخر . ولكنها ظروف الحياة القاسية . التى تدفع ببعض الناس الى احترافها كمهنتهم الأساسية » . وتتكرر نفس النظرية فيما يختص بشعوب أخرى عند بعض الكتاب .

ولكن هل تنطبق هذه النظرية فيما يختص بالاقزام . الذين يعتبرون صيادين بمعنى الكلمة ؟ اذ لا يبدو أنهم يضطرون الى الصيد بحكم الحاجة الماسة . فليس الصيد بالنسبة لهم مهنة المضطر أو اليائس . بعد أن استنفدت

---

(١) أحيانا يغمس النصل فى سم ؟ قارن البشمن « ١٦ » ١٩٧ مجلد ٢٨ ص ٦٠٣.

(٢) برويل ؟ نفس المرجع ، ص ٢٣٤

كل المهن التى يمكن أن يشتغلوا بها . فلم يكن البابنجا وبنى جلدتهم من أقزام وسط افريقية رعاة أو زراعا اضطروا تحت ضغط محن المت بهم الى ترك تلك المهن الاصلية الى ماهو أدنى أى الصيد . والا هلكوا جوعا . اذ أننا يجب أن نفرق - كما قلنا من قبل بين - الصيادين الاصليين . وبين غيرهم من الصيادين الذين يلمون بهذه الحرفه من حين لآخر . فهؤلاء الأخيرون قد يكونوا زراعا بدائيين مثـــل زنوج السودان . الذين تنطبق عليهم نظرية ديكورس . الا أن غيره من البـاحثين كتب فيما يختص بإفريقية الاستوائية الفرنسية ما يلقى بعض الضوء على حرفة الصيد . اذ قال أن الزنوج هناك يلجئون الى الصيد فى مواسم خاصة [١] . أى أن الفلاح الزنجى يلجأ اليها فى غضون الفصل الجاف عندما يتركون قراهم وينتشرون فى منطقة نفوذهم الخاصة التى يمارسون فيها حقوق الصيد طبقا لقوانين عرفية خاصه . وحيث يحتطبون أيضا وهذا مصدر رزق كبير لهم [٢] .

هؤلاء الذين يصطادون من حين إلى آخر . وقد يكونوا رعاة بدوا ، لا يستطيعون كبح ميلهم إلى الصيد ، كلمـا سنحت لهم الفرصـة . وهم يرعون قطعانهم — ولـكن هؤلاء الزراع البدائيون أو الرعاة الذين يلمون بالصيد الماما . من حين الى آخر لا يعتبرون صيادين بمعنى الكلمة ولا يمكن مقارنتهم بالبابنجا الذين يقولون عمن لا يتقن الصيد — حسب ريجنولت — « أنه ليس بابنجيا صحيحا » .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣٥

(٢) نفس المرجع الفصل الرابع ص ٣٢٥

والصيادون الحقيقيون قليلون فى العدد وليس لهم أهمية فى العالم. لا من الناحية المادية أو الناحية الأخلاقية . ويتكونون من عدة قبائل أقزام قليلة . موزعة هنا وهناك كما قلنا وسط افريقية وفى آسيا الاستوائية وفى بعض جزر الشوندا . ونستطيع أن نضيف اليهم بعد سكان جزر الأنتيل الذين قصروا همهم على صيد الثيران والخنازير البرية . التى يسلخون جلودها ويجففون لحومها .

وهذه شبيهة بعضها بالبعض الاخر ، ولم تتطور أساليب حياتهم مطلقا .. إذ أننا لا نجد رعاة قد ظهروا من بينهم . بينما يظهر بين الرعاة زراعاً وصيادين .

وليس معنى هذا أن الصيد حرفة أدنى من غيرها . لا يلجأ اليها الا أدنى درجات البشر . حقا إن حياة الصيادين لا تربطهم مطلقا . أى أن من أهم ميزاتهم أنهم دائما على ظعن . وأن جماعاتهم الصغيرة العدد لايكاد يقر لها قرار . وأنهم يجهلون الفخار . وهم فى هذا يشتركون مع غيرهم من البدو مثل الاستراليين وأهل جزرفيجى . وبعض الاسكيمو والمغول . وكلها لا تستطيع حمل الفخار معها ، لأنه هش سريع التكسر ولا يصلح للرحيل باستمرار . ولكن ليس هذا دليل قاطع على إنحطاطهم الحضارى إذ أن أدوات المغول وأطباقهم مصنوعة من الحديد أو الخشب أو الجلد ، وهى على جانب كبير من الدقة الفنية ، كما أن البلولونزيين ، الذين لايصنعون تلك الأدوات أرقى بكثير من الميلانيزيين . كما أنه من الاسراف أن نقول أن الصيادين لايعرفون أى نظام سياسى ، لأن أساس حياتهم نفسه ، وهو الصيد

يتضمن وجود جماعة متضامنة منظمة . ويستدعى وجود التعاون بين الصيادين .

كما أن الصيد ، ويتضمن البحث عن الحيوان . وأقتفاء أثره . ومحاصرته . لايمكن أن يقوم به رجل واحد . عندما يكون الصيد كبيراً قويا . ولا يمكن القيام به الاجماعة . ويتضمن القيام بطقوس خاصة ومعينة فى منطقة أوجوجو (١) يستعدون لصيد الفيل بشراء تعويذة خاصة . وبالقيام بشعائر معينة . منها رمى رمح له رأس عريض مدبب ، مربوط به طلسم مصنوع من جلد الثعبان ليحميه . ويقضون أسبوعا كاملا فى الرقص والشراب وقرع الطبول . وتضرب النساء المعولات قطعاً من الخشب الاجوف بالحجارة بينما يقلد الرجال فى رقصهم حركات الفيل . وبعد عدة حفلات أخرى تلعب فيها الخمر بالرؤوس . يخرج الرجال للصيد . وتلتزم النساء حياة الطهارة الكاملة أثناء غياب أزواجهن فى الصيد . إذ أن نجاح الصيد فى إعتقادهم — يتوقف على سلوك النساء القويم . ثم يختار أحد الفيله ويرميه الزعيم (المجانجا) أول رمح . وتتبعه رماح بقية الجماعة . ويبدءون بإنتزاع أنياب الفيل . وأستخراج ما بداخله والتهامه . ويأكلون المواد الدهنية التى تحيط بأسنانه . ثم تعود الجماعة بالعاج والجلد واللحم . (٢)

---

(١) برتون « ١٧٧ » ص ٦٠٧ — ٦٠٩

(٢) ارجع الى كورو « ١٧١ » ص ٣٦٠ ومنيود « ١٨٨ » مجلد ١ ص ١٨٠ وعن البشمن « ١٦ » ١٩١٧ مجلد ٢٨ ص ٦٠٣

مثل هذا المجتمع لا يمتاز ـ بطبيعته ـ بالاستقرار . إذ يجب أن تنقسم الجماعة الى أقسام صغيرة . كلما إزداد عددها . أو قل الصيد . حتى تستطيع أن تقيم أود أفرادها. ولكن الصيد كما رأينا . مهنة من المهن. وتميل الى الارتقاء . بتضامن الجهود التى تتطلبها . (١)

وتترك ظروف حياة الصيد آثارها على عادات الصيادين وأخلاقهم . فهناك صفات خاصة بهم فيما يتعلق بفكرة الملكية . إذ أن الأرض نفسها لا تهمهم . بل تهمهم حقوق الصيد . ولذلك كان من الخطأ أن نتحدث عن منطقة الكومانش أو الجونكين أو الاستراليين الأصليين أو البشمن أو البتشوانا (٢) إنما الاصلح أن نتحدث عن منطقة تجوالهم وأما عن أخلاقهم الأخرى ، فإن الباحثين يقولون أنهم « حفاة لا يمكن التفاهم معهم » وأن « هذا يرجع الى ما يضطرهم اليه أسلوب الصيد من صمت مطلق ووحشة تامة تعودوا عليها » (٣)

وأكثر من هذا يرجع الى الخوف وعدم الطمأنينة التى تلف الغابة والأحراج الكثيفة . وليست الحياة هناك الا حربا عنيفة على الأعصاب الدائمة التوتر ، إذ ليس أمام الصياد الا غابات موحشة غامضة ، وليس أمامه أى أفق ، بل الظلمة الظلماء ، وأحد الأبصار تخدعها الخيالات ،

---

(١) بوشر « ١٦٨ »

(٢) سمبل « ١٠٥ » الفصل الثالث

(٣) ديكورسر « ١٨ » ص ٤٦٧

ولهذا يضطر الصياد — وهو إنسان ولد لكى يعتمد على بصره إلى والاعتماد على حاسة السمع ، ولذلك كان أقل حظا من الحيوانات التى تعتمد أكثر على حاسة السمع ، ولذلك كان دائما فى حذر ، متخذا أهبه الدفاع ، بعين حادة ، وأذن مرهفة [1] وربما كان هذا صحيحا وهذه مسألة ليست ذات أهمية فى الواقع . وسواء كانوا كذلك لأنهم صيادون أو لأنهم سكان غابات . أو أنهم سكان غابات لأنهم صيادين أو العكس — فإنه مما لا شك فيه أنهم كصيادين يكونون جماعة بشريه ذات أسلوب خاص فى الحياة .

(١) انظر ايضا كورو (١٧١) صفحات ٢٨ وما بعدها و٣٤ وما بعدها .

- ٤ -

صيادو البحر

صيادو السمك أكثر استقراراً على الأرض من صيادى البر . وقد ظلوا كذلك منذ أقدم الأزمنة . منذ عهد أصحاب حضارة فضلات المطبخ الدنماركيين . ومنذ عهد هؤلاء الذين تركوا أكواماً من الاصداف، وعظام الحيوان والطير فى خليج سان فرانسسكو [١] . وأكوام الأصداف البحرية المتناثرة فى سواحل المحيط الاطلسى والأرجنتين (البارا ديرو) والبرازيل (السمباكى) . وتدل هذه الأكوام الضخمة من بقايا القواقع البحرية . والاصداف والاسماك . على أن جماعات عديدة من البشر كانت تعيش على شواطىء البحار والمحيطات وتعتمد فى رزقها على مواد البحر الغنية المتعددة [٢] وأكثر من هذا ، فقد أظهرت الكشوف الاثرية وسائل صيد السمك التى كانت تستعمل فى عصور ما قبل التاريخ . وهى أيضا توضح طرازاً من الحضارة لم يختف تماما فى الوقت الحاضر . بل يمكن العثور عليه ممثلا فى جماعات البحر المتأخرة فى الوقت الحاضر . مثل الاوبانجى على سواحل بحيرة تنجانيقا . وقد ترك لنا برتون وصفها [٣] .

---

(١) عن أكوام بقايا الاسماك أنظر (١٨) ١٩١٠ ص ٢١٦

(٢) عن صيد السمك عامة انظر مورجان (١٧٥) ص ١٦٣

(٣) برتون (١٧٢) صفحات ٤١٣ ـ ٤١٤

ويبدو أن صيد البحر أقل انتشاراً كحرفة رئيسية وحيدة . من صيد البر . كما أنها تتضمن بلا شك طرقا خاصة معقدة . تحتاج إلى خبرة . وتتطلب أيضا مجهوداً جماعيا وتتطلب تعاون رجال ينتمون إلى نفس المجموعة أو القرية . ففى إفريقية الاستوائية يشترك جميع أفراد القبيلة فى صيد السمك ، فى جماعات كبيرة . ليس فقط من أجل البحث عن الرزق . إنما أيضا للرياضة والمتعة [١] .

ويتطلب الجهد الكبير الذى يجب بذله فى صيد السمك إلى تضافر جهود الجماعة . ومن ذلك اقامة حواجز عرضية فى مجارى الأنهار . لكى تجبر السمك على القفز فوقها من فتحات خاصة تنتهى إلى الشباك المنصوبة وراء الحواجز كما أن النساء تشترك فى اقامة السدود فى مجارى الأنهار الضيقة حيث يرتفع الماء أمامها فى شبه خزان صغير . يبدءون فى تفريغه بأوانى خاصة . ويصطادون بعد ذلك السمك المتجمع فى قاع المجرى . ويتجمع الصيادون فى أعالى النيجر على ضوء المشاعل فى ليالى مارس وابريل ومايو عندما تتوجه جماعات المالنكا الى قاع النهر يحملون مشاعل القش فى أيديهم ويحملون الشباك المصنوعة من الخيوط النباتية . يصطادون بها السمك الذى يجذبه ضوء النيران [٢] . كما أن هؤلاء المالنكا وغيرهم من سكان ضفاف أعالى

---

(١) كورد (٢٧٩) ص ٢٦٣ وبروبل ذكر من قبل ، ص ٢٢٧ وما بعدها . . . الخ .

(٢) منيرد (١٨٨) مجلد ١ ، ص ٢٤٣

النيجر قرب اتصاله بنهر السانغا ، يقومون جماعات بتسميم مياه النهر بأوراق نباتية خاصة ، فيخدرون الأسماك ، وتصبح فرائس سهلة الصيد [١] .

وبالرغم من وجود صفات عديدة مشتركة بين صيادى البر وصيادى البحر ، فانه توجد لكل منهما صفاتهم الخاصة بهم ، إذ أن من السهل أن تقترن حرفة صيد السمك بأى حرفة أخرى ولاسيما بحرفة صيد البر .

ومن أمثلة الذين يجمعون بين صيد الحيوان وصيد البحر ، أقزام جزر الأندمان . وهم ينتشرون انتشاراً واسعاً على السواحل (لأنهم لا يستطيعون التجمع فى أماكن معينة تجمعاً كثيفاً ، لأن ذلك يقضى على حرفة الصيد وصيد البحر) ويتكونون من جماعات صغيرة عدد كل منها يتراوح بين عشرين وخمسين شخصاً وربما يصل إلى مائة شخص ، ولذلك تعتبر كل منها مجرد أسرة واحده كبيرة ـ ولكنهم على أية حال قد بدئوا فى تكوين مجتمعات أكبر من طراز العشيرة ، التى تستطيع أن تستغل الغابات وصيد البحر .

وفى كثير من الحالات تتوالى حرفة الصيد وحرفة صيد البحر طبقا لتوالى الفصول المختلفة التى تنظم هاتين الحرفتين . ويعتبر الصيد فى أمريكا حرفة الشتاء ، بينما صيد البحر حرفة الربيع أو الصيف . ويصطاد الهنود الزالتا Zaleta فى كولومبيا البريطانية فى فصل الشتاء ، فى جماعات صغيرة ، كل منها تتكون من أسرتين ، وتستخدم السهام والرمقح والمقلاع ، وفى

(١) شيفاليه (١٧٨) ص ١٧

الصيف ، تتجمع القرية كلها فى صيد البحر [١] .

وفى شبه جزيرة ألاسكا ، حول قلعة أجبرت ، كان السكان الأصليون قبل وصول الرجل الأبيض ، يحيون حياة بدوية فى خيام مصنوعة من الجلد كما كانوا يلبسون ملابس مصنوعة من الجلد ، وكانوا يوقفون نشاطهم فى الشتاء على صيد الكاريبو أو الدب ، التى كانوا يضطرونها إلى الالتجاء فى محابس خاصة أو يصطادونها بالرماح أما فى الربيع فكانوا يصطادون سمك السلامون ، حيث يحملونه مجففاً إلى بيوتهم [٢] . وفى حالات أخرى لايقوم هذا التقسيم على اختلاف الفصول ، بل يقوم على اختلاف تقسيم العمل بين الجنسين . فعند الاسكيمو فى شمال لبرادور ، يصطاد الرجال سبع البحر والوالرس Wolurs ، بينما تترك حرفة صيد السمك للنساء [٣] وهـــذا التقسيم شائع أيضا فى بعض أنحاء أفريقية .

ومن الأمور الطريفة أيضا ، دراسة الشعوب التى تجمع بين الزراعة وصيد السمك . وهذا أمر بلغ من الشيوع درجة نستطيع معها أن نقول أنه لايقصر نفسه على صيد السمك إلا الشعب الذى لايستطيع الزراعـة اطلاقا لتعذر ذلك من الناحية المناخية ، أو الذين لايحتاجون لها أو بعبارة أخرى حيث لاتكون الزراعة ضرورية وتنتمى للطائفة الأخيرة ، تلك

---

(١) (١٦) ١٩١٣ مجلد ٢٤ ص ١٠٨

(٢) (١٦) ١٩٠١ مجلد ٢٢ ص ٩٨

(٣) (١٦) ١٩١١ مجلد ٢٢ ص ٧٢

الأقاليم المحظوظة التي قد أغدقت عليها الطبيعة بخيراتها النباتية وقد وصف كوك حياة سكان تاهيتي سنة ١٧٦٩ ، وقال أنهم يتبادلون أنواعاً مختلفة من الغذاء ، دون أي عمل أو زراعة .

ولكنهم إلى جانب ذلك يشتغلون بصيد السمك والقواقع البحرية والأحياء البحرية المتوفرة في البحار التي تحيط بجزيرتهم ، وتتكون اللحوم التي يأكلونها من لحم الخنزير والكلب والدواجن ، التي تتكاثر في جزيرتهم دون بذل أي عناية . وأما غذاؤهم النباتي فيتكون من فاكهة الخبز وجوز الهند والموز وفي حالات الضرورة يأكلون فاكهة تمتد بين الاحراج اسمها النونو وأوراق نباتات المستنقعات وجذورها وغيره من الجذور[1]. وهذه النباتات جميعا تنمو نموا طبيعيا وهي كافية لغذاء جميع الحيوانات المستأنسة ـ بما فيها الكلب الذي كان نباتيا في تاهيتي . ولم يكن من الضروري إذن أن تقوم زراعة منظمة ؟ إذ يكفي أن يغرس كل شخص في حياته عشرة أشجار من أشجار فاكهة الخبز ، وهذا لايحتاج منه سوى عمل ساعة واحدة .

في هذه الحالة كانت لوفرة هي التي جعلت الإنسان يقتصر في عمله على صيد السمك . أما في الأجزاء دون القطبية فان السكان اقتصروا على صيد السمك لأن المناخ لايسمح بالزراعة ، ولذلك اضطر السكان جميعاً إلى القيام بحرفة واحده هي صيد البحر ولكن هذه حالات قليله شاذة . حيث أن

---

(١) كوك (٢٠٥) ٢ ، ص ٤٤٥ — ٤٦٥ وقارن أيضا أعلاه

السمك لا يمثل إلا جزءاً واحداً من غذائهم[1] ، سواء كان هذا الجزء كبيراً أو صغيراً ، والواقع أنه كثيراً ما نجد القبائل البدائية تجمع بين أكثر من حرفة ، كما نجد تقسيم للعمل بين الجنسين . الرجل يقوم بصيد السمك ، أو صيد البر ، والمرأة تقوم بجمع الجذور أو الثمار أو تعنى بالزراعة البدائية . وهذا التقسيم طبيعي جداً لدرجة أننا لانزال نجده في كثير من السواحل التي تقطنها جماعات متمدينة ، مثل ساحل بريتاني كما قلنا وهكذا تجمع كثير من الجماعات بين صيد السمك وبين الزراعة . أو ينتقل صيادو السمك إلى زراع ، في أي مرحلة من مراحل تطورهم[2] .

أما النكوص من الزراعة إلى صيد السمك ، فهو قليل الحدوث ويبدو أنه غير طبيعي ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الشعوب الز اعية أو البرية عموما لاتميل كثيراً إلى السمك . وقد لاحظ القدماء [3] — كما يقول هومر — أن السمك لا يظهر على موائد المهذبين أو الموسرين ولا ريب أن النـاس الذى كان يعيش هومر بينهم كانوا يعرفون كل شيء عن السمك — مثل السنارة والشباك والرماح . ولكن أبطال هومر كانوا يضطرون إلى أكل السمك إذا لم يجدوا ما يأكلونه سواه . فرفاق أو ليسوس عندما تعطلوا في

---

(١) مثلا يعتبر النبات غذاء أساسيا بالبيئة الجزرية كارولين ؛ من جزء ميلانيزيا قارن (١٦) مجلد ٢٩ (١٩١٨ — ١٩) ص ٤٩٥

(٢) انظر أعلاه ص ٢١٥ (أصل)

(٣) المراجع في دارمبرج وساجليو (١٦٩) ٥ ، بيسكاسيو

جزيرة هيليوس وعندما لجأ مينلاوس إلى فاروس، اضطروا إلى أكل السمك خشية أن يموتوا جوعا، وكان السمك كغذاء أقل : أنا من غيره من الأطعمة ولا سيما بالنسبه لأنصاف الرعاة مثل الاغريق القدماء، كما كان غذاء الشعوب الفقيرة التى لا ماشية لها [١] . ومن الغريب أننا نجد نفس هذا النفور من السمك فى فرنسا القديمة عندما نقرأ تحذيرات بودان لقومه، وحملته القوية التى أراد من ورائها أن يحض قومه على أكل السمك ولا يحتقرونه ويعتبرونه طعاما قليل الشأن [٢] .

وتميل حرفه صيد السمك إلى توسيع أفق المشتغلين بها لأنها أقل مجهودا من حرفة صيد البر فهى تجبرهم على مغادرة الشاطىء، أما ضربا فى عرض البحر، أو وسط مجارى الأنهار ومن ثم فلا بد من صناعة القوارب وقد وصف كوك [٣] بدقة كيف يصنع أهل تساهيتى قواربهم، وتلعب تلك القوارب من كافة الأنواع دورا كبيرا فى حياة الساكنين على ضفاف الأنهار أو شواطىء البحار وربما كان صيد قواقع الموريكس هى الحرفة التى بدأ بها الفينيقيون مغامراتهم البحرية الكبرى. وكانت مصايد البحر البلطى أصل نمو مدن الهانزا البحرى والتجارى وكان صيادو السمك الانجليز هم أول من قام بالدور البحرى الكبير أيام الملكة اليزابث، وانتهى بهم إلى الاستعمار

---

(١) انظر أعلاه ٢١٨ (أصل)

(٢) هيلبج L. Epopée homérique, tied. Trawinski, paris 1984. p. 546.

(٣) كوك (٢٠٥) مجلد ٢ ص ٤٩٢ .

وأخيراً فقد كان أسطول صيد السمك اليابانى ، الذى بقى لها بعد تحطيم أسطولها التجارى تحطيما منظما عام ١٦٢٤ ، هو نواة تطور الأسطول اليابانى .

ويبلغ من حب بعض شعوب الصيادين للبحر ، أنهم يبنون قراهم — كما فى الشرق الأقصى — فوق القوارب ، بل وهناك قرى طافية تتحرك من مكان إلى آخر فى البحر فى منطقة الفليبين — ومن أمثلة هؤلاء الموروباجان فى ارخبيل السولوه، الذين يعيشون على صيد البحر وحده ويقضون حياتهم فى قواربهم ، فى كل قارب أسرة واحدة ، تتكون من خمسة أوستة قوارب معاً لتكون مجتمعا . وهذه حالات متطرفة جداً للحياة البحرية . ولكن هناك تضاد بين أسلوبين من الحياة ، يختلف احدهما عن الآخر تمام الاختلاف ، أحدهما الحيــاة البحرية ، التى تدفع بصاحبها إلى الضرب فى عرض البحر ، والاخرى حياة الاستقرار التى يمارسها الفلاح على الارض[1].

(١) سمبل (١٥) الفصل العاشر

الفصل الرابع

الرعاة والزراع

الرحل والمستقرون

لم يكن الصيادون ولا القناصة سادة الأرض ، أو أول من عمل التاريخ أو أسس المدنية . بل الذين خلقوا أول مدنية ونشروها فى الأرض ، تلك المدنية المعقدة المتنوعة الغنية ، هم الرعاة والزراع . وذلك فاننا نتقـــدم لدراستهم ، كل بدوره ، تاركين جانباً مشكلة تداخل الرعاة بالزراع ، أو اشتقاق بعضهم من البعض الآخر ، فهذه مسألة شائكة لاطاقة لنا بها وتخرج عن مجال هذا الكتاب .

- ١ -

استئناس الحيوان وحياة الترحال

لا نحتاج للإطالة فى إثبات الحقيقة المعروفة التى تقول أن استئناس عدد معين من الحيوانات غير من مجرى الإنسان تغييراً كبيراً . ولكن أين ومتى ، بل وكيف ولأى سبب وبأى طريقة تم هذا الاستئناس ؟ إنه بالرغم من الدراسة الشاقة التى قام بها بعض الباحثين ، لا تزال بعض جوانب هذه الأسئلة دون جواب.

حتى فكرة الاستئناس لاتزال غير واضحة . كيف يتم الاستئناس ؟ لقد عرف بأنه تدهور فى جنس الحيوان ، فحياة الأسر تؤثر تأثيراً شديداً فى الحياة الجنسية للحيوان[1] . فليست الصعوبة كما أثبت القدماء - فى المحافظة على الحيوان حياً فحسب ، فالهنود الأمريكيون كانوا مغرمين بجمع الطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة والمصريون القدماء والأشوريون كانوا يحتفظون بالنسانيس والأسود وغيرها من السباع ، وليس غريباً فى البلاد الشمالية تربية الثعالب والدببة والخنازير البرية ، ولكن هذه حيوانات اصطيدت وهى صغيرة وأنشئت فى المنازل ، ولم تولد وهى فى الأسر ، ولم تجمع للفائدة أو الكسب ، بل للتسلية أو لغرض دينى أو للمتعة ، بل وهناك أقوام - كما لاحظ شمولر Schmollor - يربون الدواجن لريشها فقط ، أو

---

(١) كوليرى (١٢٦) ص ١٥٩

يربون الكلاب دون أن يستفيدوا منها فى الصيد مثلا[١] .

أو بمعنى آخر يجب ألا نخلط رغبة الإنسان فى ترويض الحيـوانات المتوحشة باستئناس الحيوان استئناساً حقيقياً ، فهذه عملية أصعب وأشق . والصعوبة كما قلنا فى الحصول على عدد كبير من الحيوانات المستأنسة تعيش وتتناسل فى الأسر ، ان هذه النتيجة صعبة المنال ، فحتى الآن لم ينجح الهنود فى الوصول إليها فيما يختص بالفيل . ومن السهل جداً لوم الإنسان المتحضر الحديث بعدم نجاحه فى استئناس الحيوان ، كما فعل جوتيير E. Gautier[٢] ، وليس أدل على هذا من فشل حدائق الحيوان فى عواصم البلاد المتحضرة فى ترويض حمار الوحش ، أو فشل الألمان والبلجيكيين فى ترويض الفيـل الإفريقى ، أو اخفاق مستعمرى السنغال الاعلى فى استئناس النعـام[٣] . وربما لم يكن السبب فى هذا الفشل نقص فى مهارة الانسان المتحضر الحديث ، بل ربما كان السبب سوء التفاهم السيكولوجى بينه وبين الحيوان . إذ علينا أن نتذكر أن الإنسان لم ينجح الا فى استئناس عدد قليل من الحيوانات لايزيد على خمســين ، بينما من الممكن نظريا استئناس مائة ألف أو يزيد ، استئناسا يعود على الإنسانية بالنفع الأكيد .

---

(١) شملر :
Schmoller, Pricipes d'economie politique, trans Platon, 1, 481 .

(٢) جوتيير (١٨١) ص ١٠٤ — ١٠٥

(٣) مينوه (١٨٣) جزء ١ ص ٢٣٢ وما بعدها .

ولم يكن الفشل فى الاستئناس من نصيب الإنسان الحديث فقط ، فنحن نعرف تجارب المصريين القدماء فى ترويض واستئناس عدة أنواع من الحيوانات المتوحشة فى عهد الدولة القديمة الطويل . فالآثار التى ترجع الى عام ٤٠٠٠ ق . م . ترينا الغزلان والأيائل والضباع يقودها العبيد من سلاسلها الى حظائرها كما أن نقوش قبر ميرا فى سقارة تبين أنواع الغزلان والثعالب والتيوس البرية والضباع التى كانت تستعمل فى الصيد دون شك ، ويبدو أن التجربة استمرت مده طويلة .

من المؤكد أن الاستئناس كان نتيجة سلسلة من العمليات الطويلة التى باء بعضها بالفشل . ولا شك أن التناسل بين أنواع الحيوانات الأسيرة وبين مثيلاتها من الحيوانات الأرقى التى تنتمى الى نفس النوع (دون الجنس) بحكم القرب فى الأسر معها أنتجت أنواعا جديدة من الحيوانات المولودة فى الأسر والأقرب الى الاستئناس ، وبذلك حلت المشكلة[1] . فالحيوانات المستأنسة ليست أنواعا بسيطة ، بل هى هجن مولدة من أكثر من نوع وحشى واحد .

ويعتقد بعض علماء الحيوان أن أجناس الكلاب الشمالية (الاسكيمو ، الدنماركية والماستيف الألمانى) كانت نتيجة تهاجن بين الذئب والكلاب المستأنسة من فصيلة Canis pallipes الهندستانية ، وأن الكلب المصرى

---

(١) كوابرى (١٢٦) .

كان يقرب لابن آوى[1] وأن فروض علماء الحيوان من اختلاط نوع من الحيوان بآخر لإنتاج ماقد يبدو لنا حيوانا بسيطا ، لحيرة حقا .

من الصعب أن نبين متى استطاع الإنسان أن يستأنس هذه الحيوانات ، أو بأى ترتيب تم ذلك ويبدو أنه — على أى حال — قد تم ذلك قبل العصر الحجرى الحديث[2] ، عندما ظهر الكلب مستأنسا ، وهو أقدم حيوان صحب الإنسان[3] ، بعد ذلك ظهر الماعز والضأن والخنزير والثور فى وقت واحد هو العصر الحجرى الحديث[4] ، أما الحصان فيبدو أنه ظهر متأخراً ، وهذه الأنواع الستة تظهر معا عادة فى بقايا المحلات البحيرية فى العصور الحجرية المتأخرة ، أما غيرها فكانت حديثة جداً نسبيا ، مثل القط الذى استؤنس بعد الكلب بكثير ، وانتشر استئناسه ببطء فهو لم يدخل فرنسا أو شمال أوربا الا فى القرون الوسطى .

أما عن الرنة التى ترك لنا فنانو العصر الحجرى عنها صوراً رائعة ، فنحن نستطيع أن نحدد الوقت الذى استأنسها فيه الإنسان وكف عن مطاردتها[5] .

---

(١) حاشية عن الأصل قبل التاريخى للثدييات المستأنسة .
Trouessart, Biologica, 15 th. Sept., 1911.

(٢) تقسم ديشليت (١٧)

(٣) دى مورجان (١٧٥) س ١٦٦

(٤) تروسارت ذكر من قبل .

(٥) دى مورجان (١٧٥) س ١٦٨

وأخيراً فان الدواجن لا تزال فى حالة مستوحشة فى الهند ، وقد كان أتباع زرادشت يعبدونها ، وأصبحت الطائر المقدس عند المازدية ، ولاريب أنها تدين فى استئناسها وانتشارها فى فارس إلى اعتبارات دينية ، أما دخولها منطقة البحر الأبيض المتوسط فيظهر انه يرجع إلى العصور التاريخية فقط [١] .

أما عن سكان قارة أمريكا ، أو بالأحرى الأمريكتين اللتين كما نعرف تكونان منطقتين حيوانيتين مختلفتين يفصل احداهما عن الأخرى منطقة انتقال أو منطقة اختلاط [٢] تشمل جواتيمالا ، والمكسيك ، وتكساس ، وكليفورنيا ، فانها استأنست الديك الرومى واحدى الجمليات ، اللاما ، التى تستعمل فى الأغراض الزراعية .

وبالرغم من أن الكلب هو أقدم الحيوانات وأكثرها وفاء والتصاقا بالإنسان فهو ليس أهمها فى تطور المدنية . فالثور أهم منه بكثير من الناحية الاقتصادية ، ويخبرنا هان [٣] أن استئناسه كان نتيجة معتقدات دينية . فربما ارتبطت عبادته فى الأزمنة القديمة بعبادة القمر — لما هناك من تشابه بين قرنيه وبين الهلال . ومن المحتمل أن الثيران المستوحشة كانت تحاصر أولا من أجل تضحيتها لإلهات الزراعة ، ومن هذه المحاصرة

---

(١) كوبنو (٥٢) ص ٦١
(٢) رايناخ فى (١٦) ١٩١٠ ، ص ٧٥
(٣) هان (١١٣)

بدأ الاستئناس — بالتالى أيضا . كان لبن البقرة يقدم أولا قربانا للإلهة ، ثم أصبح يقدم للكهنة وللملوك وأخيراً أصبح شراب العامة ، وهكذا كان استئناس ذوات الحافر من عمل الزراع المستقرين ، الذين كانوا يستعملون الفأس اليدوية والذين سوف نقابلهم الآن فى آسيا وأفريقية وأمريكا الجنوبية .

* * *

أهم الحيوانات من الناحية الاقتصادية هى المجموعة آكلة العشب والتى كانت تهيم فى بيئة السهوب . ونحن نعلم أن كل سهل ، سواء كان منخفضا أو مرتفعا يصبح بطبيعته من الستبس مادام معرضا لرياح جافة وذلك مثل هضاب آسيا الوسطى . ، وفارس ، وبلاد العرب والسودان ، والصحراء ، وجنوب أفريقية ، واستراليا ، واللانوس ، والبامباس فى أمريكا الجنوبية : وهذه جميعا أماكن للرعى ، لا تلبث أن تضمحل تحت لفح الحرارة فى فصل الجفاف ، وما دام أهلها غيرمستعدين بمراعى صناعية أو بالعلف المجفف ، فانهم كانوا مضطرين لأن يتحركوا وراء قطعانهم بحثا عن العشب ، إذن فحياة البادية هى النتيجة الطبيعية لرعى الماشية ، فهى مرتبطة بها ولا يمكن التفرقة بينهما — هذه هى فكرة سمبل خاصة[1] .

إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة وأمريكا — بلد مس سامبل — على ذلك شهيدة . فحياة البدو الرعاة لم تقم هناك قط بالرغم من توفر كل

(١) سامبل (٩٠) الفصل ١٤

الشروط الموجودة فى أوراسيا . ففى أمريكا الشمالية يوجد البرارى والسهوب ، والحيوان الملائم للاستئناس ، وهو البيسون الذى يمكن أن يحل محل الماعز والضأن وهما يكادان ينعدمان فى أمريكا الجنوبية حيث لا يوجد الماعز أو الضأن ، فهناك الفيكونا ، والجواناكو ، والألباكا ، واللاما — وبالرغم من ذلك فلم توجد حياة رعوية فى الأمريكيين . ويبدو أن سكان العالم الجديد الأصليين إذا كانوا قد قدموا من العالم القديم ، فانهم لم يحملوا معهم طبيعة البدو الرعاة . فقد ظلت سهوب أمريكا خالية من حيوان الرعى بينما كانت الغزلان والقطط الوحشية والبوما وغيرها تهيم فيها[1] ولم تظهر حياة البدو الا أخيراً ، وأخيراً جداً بعد الفتح الأسبانى وإدخال الحصان من أوروبا ، عندئذ أصبح اللانوس والبامباس مجال المعتنين بتربية الماشية ، الذين يعيشون فى خيام مثل القرغيز والتاتار ويعيشون على اللحم مثل الهون. ويمتازون بأنشوطة اصطياد الخيول التى ابتكرت لتلائم غرضهم .

علينا إذن ألا نعتبر حياة البدو أو حياة الرعى خطوة ضرورية فى تقدم تاريخ البشرية فهناك بعض الظروف ، مثل عدم وجود حيوان معين . قد تؤثر أثراً كبيراً فى حياة أحد الشعوب بحيث تبعدها عن حياة البدو أو الرعى ، ولكننا نخشى أن يكون فى قولنا هذا ذرة من الحتمية ؛ أما إذا اعتبرنا أن استخدام الفأس اليدوية فى الزراعة ؛ تطور بعامل النمو والارتقاء إلى طريقة الصينيين فى فلاحة البساتين أو الطريقة البيروفية . بل وطريقة

(١) همبولدت ، جزء أول ص ١٧ — ب

أصحاب المحراث كما تطورت حرفة الرعي والانتقال خلف الحيوان بحثا عن الكلأ ، فاننا نكون قد تركنا مجالا لعادات الانسان وتقاليده وحرية إرادته للتصرف ، كما تركنا الظروف الطبيعية تعمل عملها .

لنعيد ماقلناه مرة أخرى يجب أن نتخلص من الفكرة القديمة القائلة أن حياة الرعي أدنى مرتبة من حياة الزراعة المستقرة وقد لاحظ راتزل من قبل فى كتابه « الجغرافية البشريه » أنه ربما ظهرت مدنية لابأس بها عند البدو بينما لايزال بعض الزراع فى حالة بدائية [١] . وتاريخ شمال أفريقيا يقدم لنا الوسيلة التى تدفع بها هذا الظن ، فقد كانت البداوة تحتل محلا رفيعا هنا فى عهد تسلط البربر ، ثم انحط شأنها فى عصر الرومان لكى تعود إلى الازدهار أثناء العصر العربى ، وقد يميل بنا الهوى إلى أن نقول أن البداوة معناها التقهقر فى هذه الحالة ، ولكن علينا أن نبرهن أمرين ، الأول أن البدو لايستفيدون من بيئتهم مثلما يفعل الزراع وأن الخيمة أقل شأنا من المنزل المبنى ، بينما هى قد تكون غالية الثمن وأبهى شكلا من الأكواخ الحقيرة . وأن الفلاح المسكين المستقر فى الواحة أرقى شأنا من البدوى الغنى ، مادة وروحا .

ولكننا نعرف الكثير عن هذا الآن ، فسكان الواحات كانوا بدوا فى بادىء الأمر [٢] فلما نفقت ماشيتهم وانحط شأنهم كرعاة أصبحو زراعا

(١) برنارد ولاكروا (١٤٧) ص ١٥٣ وقارن أيضا برنارد (١٧٧) ص ٤٤٢

Bernard & Lacroux, CXLVII p. 152 cf. also. Bernard CLXXVII. p, 142,

(٢) المرجع السابق ص ١٥٢ ومابعدها وقارن فيدال دى لابلاش ص (١١) ١٩١ ص ٧٥ .

مستوطنين ، ينتجون الحبوب والتمر ، وهكذا حصروا فى دائرة ضيقة ، دون أن يكون لديهم حيوان نقل يحملهم ، لم يستطيعوا الفكاك من أسر الأرض التى التصقوا بها والآن وقد أصبحو أكثر حرية من قبل فى حياة الأمن والسلم تحت حكم فرنسا ، استطاعوا أن يزيدوا ثروتهم شيئا فشيئا وعادوا بالتدريج إلى أسلوب حياتهم البدوية الأولى ، وهذا مثل ان كان يعوزنا المثال أن البداوة الراعية قد تكون أرفع شأنا من الحياة الاستقرارية المستكينة .

— ٢ —

خصائص الحياة الرعوية

والآن فلنعين أهم صفات الحياة البدوية والآثار العديدة التى تركتها هذه الحياة فى الشعوب المتمدنية .

تعتمد الشعوب البدوية فى حياتها على تربية الماشية ، قطعانها هى مصدر ثروتها جميعا ومشكلتهم الكبرى هى المحافظة عليها. فالتندرا تقدم الطحالب اللازمه والسهوب تهيء أحسن الظروف لتربية الضأن والماشية ، ولكن هذه الظروف تؤدى إلى البداوة لأن القطيع سرعان ما يأتى على المرعى ، فلا بد من الانتقال إلى مرعى آخر .

هذه هى الطريقة التى تقدم بها الأمور ، وعليها تبنى نتائج ، ولكن هذا كله غير صحيح . فهذا كلام عام جداً وكثيرا ما ينطوى على تبسيط أكثر من اللازم ، فهو يتجاهل فروق الحضارة بل والمعتقدات التى تفصل القبائل البدوية بعضها عن البعض .

وقد شعر بذلك هاهن سنة ١٩١٣ عندما عقد مقارنة بين الشعوب البدوية فى كل من آسيا وافريقية (١) وقارن بين حياة الأخيرين التى تعتمد اعتماداً كليا على تربية الماشية وبين حياة الأولين التى تستمد قوتها من حيوان

---

(١) Die Hirtenvolker in Asien and Afrika (Geog. Zeitschrift xlx, 1913)

النقل الذى عندهم وهو الحمار والحصان والجمل ، فهذه الحيوانات الأخيرة هى مصدر توسع الشعوب الرعوية الآسيوية اللامع فى التاريخ ، وهى التى مكنتهم من امتداد أفق رحلاتهم واكتسابهم الصفات الحربية التى تجلت فى فتوحاتهم العظيمة أما الرعاة الافريقيون وهم أقل حركة من اخوانهم الآسيويين فقد حرصوا على حيوانهم بكل بخل ،وأحاطوه بكل عنايتهم ورعايتهم وأضافوا إلى حياتهم الرعوية قليلا من الزراعة وبالرغم من أنهم لم يرقوا إلى استعمال المحراث — مما جعل طرازهم فى الرعى أقل نقاء وأقل تمييزا من رعاة آسيا .

هناك ضعف فى مقارنة هاهن — وبعض فجوات وأحكام مبتسرة . فالصورة التى صورها ذلك الكاتب لاتنطبق قط على المراكشيين أو الطوارق كما أنها بعيدة عن الانطباق على الكافر أو الحوتنتوت ونستطيع أن نهاجم الكاتب من حيث أنه أقام أهمية كبيرة على حيوان ضعيف مثل الحمار ، لا يستطيع أن يقطع مسافات طويلة ، كما أننا لا يجب أن نقلل من شأن المسافات الطويلة التى يستطيع أن يقطعها الثور ويخبرنا شيفاليه ان الثور بين الكريدا فى منطقة تشاد يستطيع أن يقطع ما بين ٣٠ — ٤٠ كيلو مترا فى اليوم حاملا ٥٠ — ٦٠ كيلو جراما (١٠ — ١٣٠ رطلا)غير سائقه وربما استطاع أن يقطع أكثر من ذلك إذا سافر ليلا . الا أن هان كان صادقا فى أنه لفت نظرنا إلى تشعب رأى الشعوب المختلفة فى قطعانها وقيمتها .

كثيرا ما يقال أن « ثروة الراعى قطيعه » ولكن الثروة ليست فكرة بسيطة ، ولا القطيع أيضا فهناك مئات من الطرق فى تقدير الثروة وتقدير

القيمة الاقتصادية للقطيع فتربية الضأن والماشية عندنا الآن صناعة دقيقة ، تتضمن استقلال كل منتجات الحيوان : اللحم والجلد واللبن والصوف والشعر والقرون والعظام . فكل شيء يقدر تقديراً . كل شيء يستعمل ويستغل . أما عن الإنسان البدائى فالقطيع « رصيد » فى الغالب . هذه هى الكلمة التى يستخدمها مينو فى وصفه لطريقة حياة الرعاة فى السودان الغربى[1] فهو يقول أن رعى الحيوان هنا على مقياس كبير . ويشمل رحلات وهجرات واسعة ، ففى فصل الجفاف تساق القطعان التى قد يبلغ عددها بضع آلاف من الرؤوس إلى شطئان الأنهار والقنوات والبرك والمستنقعات . وفى فصل المطر تعود ثانية إلى الهضاب . وفى شهر ديسمبر يهبط المغاربة من الساحل نحو البرك التى تقع فى دائرة نيورو وفى أرض كولومبين Colombine كما يسوق الطوارق قطعانهم فى فصل الجفاف إلى ضفاف النيجر وبعد أمطار يولية وأغسطس تتفرق نحو الشمال أو الجنوب ثم تعود الى النهر فى فصل الجفاف التالى . فالطبيعة وحدها هى التى تطعم القطعان على مدار فصول السنة . فهى تسمن فى نهاية الشتاء ثم تهزل قليلا فى فصل الجفاف ولكن ما يميز المغاربة والطوارق والمغول هو أنهم لا يبيعون حيوانهم المكتمل النمو . فليست قطعانهم ثروة حقيقية . بل رصيد لا يقربونه الا تحت الحاح الحاجة . ويدعون البهائم تهرم وسط القطيع وهذا ولا شك يقلل من شأن القطيع بالتدريج .

هذه الحقيقة تظهر كاملة فى أن قطعان الماشية لا تنفذ الرعاة أحياناً من

(١) شيفالييه (١٧٨) ص ٣٨٧ وما بعدها

المجاعة[١] . فبينما تنفق الأفراد الهرمة من القطيع من الجوع يحاول الرعاة أن يسدوا رمقهم بطريقة أخرى ولتكن الصيد . ويقول مينو « نستطيع أن نكون آمنين اذا قلنا أن رعاة السودان من الطوارق والمغاربة يشتغل رجالها بالصيد ما عدا العبيد والخدم الذين يحرسون الماشية »[٢]. فالكونتا المغاربة والطوارق يصطادون الزراف والأيائل وأحياناً يزرعون قليلا من الذرة العويجة (الدخن) كما يفعل الكريدا حول بحيرة تشاد (وقد وصفهم شيفالييه وصفا دقيقا) . وأحيانا يهيمون وراء قطعانهم بعد البذر . ثم يعودون اليه فى فصل الحصاد . الا أن ما يحصلون عليه من لبن حيوانهم الأعجف وذرة وقليل من التمر من جيرانهم ، كل هذا لا يمنعهم من محاولة سد رمقهم خوف المجاعة بجمع الأعشاب والفواكه والجذور التى تنمو فى حالة مستوحشة .

ويؤيد شودو Chudeau قول شيفالييه عن بدو السودان الصحراوى الذين قد يضطرهم الجوع الى التماس الطعام من أدنى الحشائش وخشاش الأرض .

والآن فلننتقل الى جزء آخر من مناطق الرعى . الى العالم الأسيوى الذى يقارنه هان بالعالم الإفريقى . فعندنا وصف للترك فى الأيام الخالية بقلم كاهون . عندما كان الأتراك رعاة فى وسط آسيا لايذبحون شاة أوحصانا

(١) شودو (١٨١ أ) جزء ٢ ص ١٧٩

(٢) كاهون (١٨٦) ص ٥٠

الا فى الأعياد الكبيرة مضطرين . وأحيانا لا يطعم التركى لحما قط الا اذا الى ذبح حيوان مريض . هؤلاء أيضا لم يعيشوا على قطعانهم . بل على اضطر ما تنتجه هذه القطعان .

لقد رأينا كيف أن القواعد العامة ضعيفة لا تثبت للاختبار وأنه لابد من تقدير معنى الألفاظ قبل اطلاقها . . وكيف يجب أن تحدد معنى الثروة قبل أن تدعى أن ثروة الراعى فى قطعانه .

* * *

فلنتقدم بعد هذه التحفظات التى ذكرناها فى دراسة أساليب حياة البدو والرعاة . مستخدمين فى ذلك الأوصاف التقليدية التى فى حوزتنا .

لقد كانت العادة المتبعة ان يتبع وصف الحيوان الأساسى للجماعات الرعوية . وأن يشار الى طبيعة مساكنهم غير المستقرة . فحياة البداوة – كما قيل – منعت الرعاة من اتخاذ بيوت ثابتة تقيهم شر تقلبات الجو ثم ترسم صورة سريعة تشمل رعاة فى جميع عصور التاريخ وفى جهات مختلفة من العالم . فالخيمة هى بيت البدوى البسيط الصحيح ، ذلك البيت المتنقل الذى يمكن حمله الى كل مكان ، وهذه الخيمة تختلف فى الأماكن المختلفة للرعاة اختلافا يسيراً . مثل اختلاف الخيمة السداسية لأهل التبت الشرقيين وخيمة أو يورت القرغيز كما وصفها هوك[1] Huc

(١) هوك «٢» ص ١٥٧

أما العربة فخطوة متقدمة عن الخيمة فى أنها تتضمن صناعة جديدة معقدة . ولكنها لا تسمح الا بحركة أقل ؛ وهى تقابل نوع البداوة التى كان عليها الألمان الغـــزاة فى القرن الأول ق . م . وغزوات العصور الوسطى وهجرات البوير فى الترنسفال ودولة نهر الأورانج الحرة فى القرن التاسع عشر التى كانت تتحرك ببطء الثيران وعندما قلت البداوة اتخذت المساكن صفة مختلفة . مثل اقامة الخيمه فوق أعمدة ثابتة أو جزء ثابت من البناء وهى — على ضعفها — كافية لحماية السكان أثناء تجوالهم . مثل هـذه أكواخ السى فو Si-Fou[1] وبيوت شمال أفريقية المسماة بالقوربى[2] .

وعندما ينتهى دور البداوة تماما يظهر البيت الدائم . ولـكنه من الغريب أن يظل محتفظا بالطابع القديم الذى يذكرنا بالخيمة وقد لوحظ أن العرب حفروا حيطان بيوتهم فى أسبانيا بنفس الطريقة التى كان أسلافهم يحفرون بها أعمدة الخيام الخشبية وأكثر من ذلك فهناك شـبه بين قطع الرخام فى قصور غرناطة وقرطبة وأبواب المنبر الخشبية فى مسجد القيروان ، وقد كان فن العرب فى الرسم وغيرة على نفس مبادئ الصور التى تظهر فى السجاد المنقوش — صناعة الرعاة الأصلية . ومتاع الخيمة قليل ، بعض الحصر والسجاجيد وبعض أوانى خشبية قليلة . ومثل هذا الفقر اجبارى حيث أنه لابد وأن تـكون حقائبهم سريعة الاعداد للرحيل فى أى وقت وينبغى ألا تشمل ما يسهل كسره أو ما كان ثقيلا فى الحمل .

---

(١) عن مراكش اقرأ مثلا برنارد (١٧٧) ص ١٤٩ وما بعدها

(٢) نفس المرجع ص ١٥٣

كل هذا بصفة عامة صحيح . ولكن لا ينبغى أن نعلق أهمية كبيرة على هذا . بالرغم من أنه صالح تماما لتعليمنا الكثير عن طبيعة الأشياء هنا . فهو لا يعطينا صورة كاملة . وعيبه أن نتقبل الحقائق التى قد تتعارض بل هى تتعارض مثلا ، مع ما ذكرنا من تعميات ، فليس هناك نظم محكمة للحياة ، فحتى لو كان جميع البدو سكان خيام ، فليس كل سكان الخيام من البدو الزعاة . فهذه ملاحظة لفت نظرنا اليها أوجستين برنارد A ugustine Bernard بعد أن وجدها مراراً فى الجهات الخصبة المنزرعة فى الجزائر التى لا يوجد بالقرب منها مساكن ثابتة [١] . كما لاحظ أن بعض السكان غير البدو فى مراكش — اقليم التل — يسكنون الخيام ، لأنهم يقومون بزراعة عدة قطع متباعدة من الأرض ، ويتبادلون السكن فى خيام أو فى قوربى كلما سنحت ظروف انتقالهم من مكان الى آخر ويلتهى من ذلك بقوله أننا لا نستطيع أن نفضل سكان الخيام على سكان المنازل الثابتة الا اذا استطعنا أن نفضل الراعى على الزارع ، فهناك حالات انتقالية وتدرج بين الأسلوبين [٢] . ويخبرنا نفس المؤلف أن الأغنياء من الزراع هنا يبنون بيوتا ثابتة فى وسط الأراضى الزراعية دون أن يسكنوها رمزاً على وضع اليد عليها . كما أن استبدال البيت بالخيمة ليس باستمرار دليل رقى ، فالخيمة أحيانا تكون أغلى ثمنا من الكوخ البسيط . وبعض الناس استبدلوا بالخيمة « نصف منزل » « قوربى » لدواعى الاقتصاد أو لأنهم فقدوا قطعانهم .

---

(١) برنارد ولاكروا « ١٤٧ » ص ١٦١

(٢) برنارد « ١٧٧ » ص ١٥٤

والآن فلنعد الى موضوعنا — الحياة المادية . من المفروغ منه أن نشاط البدو الرعاة الاقتصادى محدود جداً . وليس معنى ذلك أن الصناعة ليست موجودة عندهم فهم لا يصنعون الا مايحتاجون اليه وما تمس اليه الضرورة دون التعمق فى مشاكل صنع سلع ليسوا فى حاجة اليها . ولكن هذه الصناعة لا تستطيع أن تتعدى نطاق اقتصاد الأسرة الضيقة فالفخار — اذا كان عندهم وهذا فى النادر ، اذ أن الصيادين والرعاة قلما استخدموها — والأدوات الخشبية والجلدية والمعدنية يقوم بصنعها اخصائيون . وعددهذه السلع قليل، فكل ماهو كما لى محرم . أما فيما عدا ذلك مثل نسج الملابس وأقمشة الخيام والسجاجيد — أداة الترف الوحيدة عند البدو — فهو من عمل النساء لحاجة الأسرة فحسب .

أما اذا تغير هذا النظام فلا ريب أننا أمام جماعة تعد نفسها للاستقرار مثل حالة سكان القيروان أو الوادى بتونس وهناك — على أى حال — فرق لا يستطيع أحد مهما بلغ من الغفلة أن يهمله بين ما ينتج للاستهلاك المحلى وما ينتج للاستهلاك الخارجى ، ولكن هذه السلع المعدة للمقايضة قليلة ومن ثم كانت التجارة ضئيلة الحجم . وهى تتكون عادة من مقايضة منتجات القطعان بالأغذية الزراعية وبعض البضائع المصنوعة ، تلك هى مثلا تجارة القرغيز ، وهذه كانت تجارة اليهود حسب ما ورد فى التوراة عند ما ذهبوا يبتاعون فى مصر . ولكن هناك وظيفة اخرى للبدو هى النقل ، فحركاتهم جعلتهم الوسطاء الطبيعيين بين الشعوب المتحضرة التى تعيش على حافة السهوب أو الصحارى وبين سكان الواحات .

وهكذا نقل الإسماعيليون القدماء الى مصر التوابل والصموغ والعطور وقد درس الجغرافيون بعناية طرق القوافل ومركز التجارة مثل تمبكتو وبغداد ودمشق وسمرقند وطشقند ، مثل هذه التجارة من الأهمية بحيث أخضعت البدو لبعض النظم الساسية الخاصة ، فأشق ماوقع على عاتق البدو الرعاة فى الطرق بين الصين واللهاسا هو المحافظة على سلامة القوافل وقد سهل هذا النوع من التجارة وجود حيوان النقل الملائم لبيئة السهوب (مثل الحصان والجمل على الخصوص) ؛ ولكن مثل هذا النوع من النقل وجد أيضا فى الأماكن التى يقوم فيها الرجال مقام الحيوان مثل الحمالين الإفريقيين من قبيلة الميامويزى Myamwesi[1] ، ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الوظيفة ليست مرتبطة بيئة الرعى فحسب . بل وأن كل تجارة ، كانت ، ولا تزال إلى حد كبير نوع من البداوة ، وقد بقيت تلك التجارة — تجارة المتجولين — فى عصرنا الحاضر فى قلب المجتمعات الأوروبية الى عهد قريب فقد كان هناك شيء من طبيعة الملاح فى قلب كل تاجر قديم .

---

(١) برتون «١٧٧» ٢٩٥ — ٢٩٨ ، ٣٠٢

— ٣ —

نظم الرعاة ودياناتهم

والآن فلنحاول أن نعالج مشاكل أخرى أكثر صعوبة ، هل هناك نظما اجتماعية خاصة بالبدو دون غيرهم ؟

نظريا ، يبدو أنه من مصلحتهم الخاصة أن يكونوا أسرا بطرقية كبيرة ولكن من الخطأ أن نتحدث عن النظام البطرقى باعتباره نظاما بدويا خالصا .

ولقد يقال أن تربية الحيوان ورعايته هى وظيفة الرجل الأساسية ، وبذلك أصبح فى يده السلطة التى قد تكون للمرأة فى المجتمع الزراعى البدائى ، وأكثر من ذلك ، فمن السهل أن نرى الفوائد التى ترجع على البدوى من وراء نظام بطرقى يخضع فيه الأبناء والزوجة والخدم لسلطة رجل واحد ، أو بعبارة أخرى أن هذه السلطة المركزة فى يد واحدة توفر على بقية أفراد القبيلة مئونة التفكير المستقل ، هذا إلى أن فى ذلك تكتيلا للجهود من أجل المصلحة العامة (١) ، ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل ما إذا كان هؤلاء الذين يتحدثون عن نظام بطرقى يفقهون دقة ما يقولون ؟ فمن المؤكد أن النظام

---

(١) عن أهمية الأسرة الابوية الكبيرة أنظر
Schmoller , Principe d ' economie Politique trad. Platon, t. 1, 1, p. 28 et Seq. T. II P. 37,39.

البطرقى يصلح للمجتمع الزراعى كما يصلح للمجتمع الرعوى ، وأن ليس كل المجتمعات الرعوية خاضعة لنظام بطرقى . ولنضرب لذلك مثلا بالطوارق ، الذين يعتقدون أن الرحم ألصق بالقربى ، وأنه الذى يحمل الجنين ، أى أنه يمت بصلة إلى أمه ويجهل أباه[1] .

والواقع أن البدو يختلف بعضهم عن بعض فى نظام الأسرة ، ونحن تعرف أيضا أن هذه النظم تختلف بين البدو من مكان الى آخر ، فتعدد الزوجات كان منتشراً بين العرب كما كان بين اليهود ؛ ولكنه لم يكن معروفا بين البدو ، الذين قد يميلون الى تعدد الأزواج ووأد البنات . وهذا أمر يعتمد على مقدار ثروة البدو فى الوقت الحاضر كما كان فى الماضى ، فبعضهم يحب كثرة الولد ، ويعتقد أنه من مصلحته ، وبعضهم يمعن فى تحديد النسل بطريقة أو أخرى ، ويجب ألا ننسى أن الصحراء ليست بيئة جغرافية سهلة بل بيئة نباتية حيوانية معقدة يمكن اعتبارها منطقة محددة لنوع خاص من أنواع الحياة .

ولقد قيل الكثير عما تضفيه حياة البدو على المجتمعات البدوية وعن المظاهر السياسية التى تكسبها حياة البدو على الرعاة .

البدو قوم محاربون: والأمثلة على ذلك عديدة تفيض بها ذاكرتنا ، فهل هناك شعب يعسكر البدو على حدوده لم يضطر الى الكفاح دفاعا عن نفسه ضد

---

(١) حوتيير (١٨٠ ب) ص ٣٣٤

غاراتهم المتعددة ؟ ويالها من أساليب عديدة اتخذها المستقرون للدفاع ، فهناك حائط سيزوستريس الذى شيد بين بيليزيوم وهليوبوليس ؛ وسور الصين العظيم ، وذلك الخندق الكبير الذى فكر الفرنسيون فى حفره لحماية الجزائر وشبكة التحصينات والقلاع ونقط الخفارة التى أنشأها الرومان على حدود العراق وقاية للشام من غارات العرب والبارثيين ، وهناك أخيراً حدود الامبراطورية على الراين والدانوب بحائطها وخندقها . واليوم عندنا القوات المدرعة المتحركة ، التى تستطيع أن تخف لنجدة أى مكان ، ويعينها على ذلك الطائرات والبوليس الجوى ؛ كل هذا لغرض واحد ، اذ لا يزال خطر البدو قائماً .

من أين ينشأ هذا الخطر ؟ هناك عدد كبير من الأسباب الداعية اليه مثل الذبذبات المناخيـــة التى تجبر البدو على الخروج من مواطنهم فجأة والانقضاض على الزراع الآمنين ، وضرورة سد حاجتهم بعد أن نقصت مواردهم فجأة ، واختطافها من يد من يملكها ، ودفع خطر العدوان عليهم من جيرانهم من البدو الآخرين ـ ولعل فى هذا مايعيننا على فهم السبب الذى من أجله يكون البدو دائماً قوة حربية يعتمد عليها عند الضرورة .

دعنا نفصح عما نعنى بنشاط البدو الحربى ، يجب أن نقول أنه على الرغم من ولع البدوى بالسلب الا أن سلوكه دائماً سلوك الوحش الطليق ؛ فعليه ألا يستنزف موارد ضحاياه ، فالطوارق لا يحطمون القوافل التى ينقضون عليها الا فى الحالات القصوى التى يرون نفسهم فيها فى خطر ، فهم يكتفون بحراسة القافلة وأخذ اتاوة على ذلك العمل أما عن السكان المستقرين فى

الواحات فهم من جهة يجبون اتاوة عينية من محاصيلهم ومن جهة أخرى يحمونهم من هجمات البدو الآخرين .

حياتهم من الصغر حياة حربية ، فالقبيلة منظمة دائما ، كأنها جيش ، وسير القافلة ومواعد رحيلها ومستقرها ، وعمليات انزال حمولة الجمال أو تحميلها ويجب أن تتم فى نظام وكفاية وسرعة والا فالويل لها من انقضاض الأعداء المتربصين لها .

فأسلوب حياتهم ، يخلق شيئاً فشيئاً عقلية خاصة ، وروحا حربية واستعداداً للظام تحت قيادة عليا مركزة فى يد شيخ القبيلة — تلك هى الصفات الأساسية للمجتمعات البدوية ، وهى كافية بأن تمدهم بقوة تفوق قوة السكان المستقرين . ولذلك — إذا لم يضطروا إلى التفرق جماعات صغيرة — فإنهم يستطيعون أن يكونوا امبراطوريات كبيرة بسهولة مثلما حدث فى منطقة لوب نور Lob Nor أو القرغيز — وكذلك امبراطوريات العرب والفولا ، ولكن هذه الأمبراطوريات جميعا قصيرة العمر .

والبدو لا يجددون فيما يرثون من امبراطوريات ، فالغزاة يعيشون فى معزل عن المحكومين ، وقد يقتبسون بعض عناصر الحضارات المقهورة ولكنهم لا يحاولون تحسينها ، أما الشذوذ الوحيد فى هذه القاعدة فهو مثل العرب فى أسبانيا وما أدخلوه من اصلاحات زراعية فيها ، وفى العادة يعسكر البدو المنتصرون وسط الشعب المغلوب على أمره ولكنه يقع تحت رحمة الأحداث التاريخية التى تحطم امبراطوريته المؤقتة والأمثلة عديدة ، فهناك

الإمبراطوريات المتعاقبة التي قامت وفنيت في سهوب آسيا والممالك السودانية التي لم تعمر طويلا . ولعل في هذا مبرراً كافيا في اصرارنا على اعطاة أهمية تاريخية للبدو ولا سيما في نطاق الستبس الذي يمكن أن يعتبر نطاقهم التاريخي حقا .

ويلاحظ أن إحدى الحقائق الطبيعية (الفزيولوجية) ساعدت على تكرار حادث بعينه ، وربما كان هذا أيضاً سببا في عدم تعمير تلك الأمبراطوريات الرعوية ، فالرعاة متعودون على الحياة في مجتمعات صغيرة مستقلة ، ولكنهم قد يتحدون اتحاداً مؤقتاً تحت زعامة زعيم مؤقت للوصول الى غرض معين ، وما أن يتم لهم تحقيق هذا الغرض ، حتى تثور رغبتهم الاستقلالية في نفوسهم ولا يتهيأ للزعيم الابقاء على سلطته الا عن طريق الاقناع ، فزعامة محمد (صلى الله عليه وسلم) التي قامت في وقت حرج معين ، والتي استطاعت أن تسيطر على جماعات عديدة ، كانت قائمة على النفوذ والجاه الشخصيين ، وعلى سحر البلاغة ، وهذه جميعا قوى شخصية[1] .

وهكذا تقوم المجتمعات وتنفض بين الرعاة ، وتنشأ الخصومات وتكون

---

(١) لا يستطيع المؤلف ، وهو لم يقرأ حياة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقدر ظروف ظهور النبي الأمي اليتيم ، ولم يستطع النبي أن يجمع العرب ويوحدهم الا بقوة الايمان بالدين الجديد الذي بشر به ، فالاسلام وحده وليس النفوذ أو الجاه أو سحر البلاغة هو الذي وحد العرب ربما لأول مرة في تاريخهم ، والحافز الديني هو الذي دفعهم في فتوحهم (المعرب)

ذات مرارة غير معروفة الا عند البدو ، وتورث العداوة والبغضاء من جيل الى جيل وتحول دون وحدة نشأه سياسية ثابتة .

* * *

هل لأسلوب حياة البدو أثر حقيق فى معتقداتهم الدينية ونمو ملكاتهم العقليـة ؟

وتقول مس سمبل Miss Semple التى قامت بدراسة مستفيضة عن فضائل البدو ورذائلهم، وأن شجاعتهم وقوة احتمالهم المرتبطتين بغرائزهم الحربية هى فى حد ذاتها نتيجة لأسلوب حياتهم . ولقد نقدنا فيما تقدم ما كتب عن سيكولوجية الشعوب ، وكل ما كتب فى هذا القبيل لايستحق سوى هذا النقد ولـكن دعنا نتمسك بالحقائق الثابتة ، ونقول أن الشعوب البدوية لا تميـل إلى خلق مكتبات ، وتمنع تدوين المعرفة المكتسبة . ويخبرنا شـــودو Chudeau فى تقريره عن بعثته الى الصحراء عن ذلك المرابط من آدرار الذى كانت عنده مكتبة ملأ ذكرها آفاق الصحراء لأنها كانت حمل ثلاثة أو أربعة جمال — وهذا يدل على أن المكتبة فى حد ذاتها ترف كبير وأمر نادر . ومن المحتمل أن أسلوب حياتهم القلق لايشجع — بحكم الضرورة — الا على تبسيط المعرفة العقلية . أما أخبارهم الشفهية ، التى ظلت ديوان البدو الوحيد خلال قرون طويلة ، فهى تتبلور فى النهاية فى بضع كتب قليلة ، ذات صبغة انسكلوبيدية ، قانونية ، طبية ، فلسفية ، دينية وفى النهاية شعرية . ومن أمثلة ذلك الكتاب المقدس والقرآن الكريم[1] .

---

(١) ليس القرآن الكريم كتاب أخبار كما هو واضح (المعرب)

وينبغي ألا نغالى ، فان الميل الى جمع المعلومات فى دوائر معارف يظهر دائماً فى أوقات القلق الفكرى وماعلينا الا أن نتذكر ذلك الميل الذى ظهر فى القرون الوسطى إلى جمع الملخصات العـــامة من أمثال الـ Sommes ومرآة العالم Miroirs dn Monde ومن العسير أن نعرف ما اذا كانت الحاجة الى ذلك تنشأ عن الظروف المادية أو الروحية ، مثل استبداد عقيدة. أو فكرة بعقل الشعوب .

ومهما يكن من شيء فان النمو العقلى لدى البدو أميل فى الغـالب الى أن يكون محدودا ، ويضاف الى ذلك أنهم متعصبون فى الغالب أيضا ، أتبـاع كتاب واحد ، وسلوكهم نحو المكتبات ، اذا وجدوها ، معروف ، لقد قيل هذا مرارا ، وهو الى حدما صحيح ، ولكن يجب أن نحترس من المغـالاة فالكتاب الذين يضعون مثل هذه القواعد العـامة ، يضعون نصب أعينهم الاسلام والقرآن ، وانتشار الاسلام على الخريطة يتفق إلى حـــد كبير مع انتشار مناطق الاستبس والصحارى فى أوراسيا وأفريقية ، تلك البيئـــات الصالحة لحياة البدو ، ولكن من يعرف الاسلام معرفة حسنة يحـذر هؤلاء الكتاب من أصدار أحكام عامة تتعرض للخطأ ، وقد يشير بعض هؤلاء العارفين الى بعض المناطق التى دخلت فى الاسلام أخيرا ، وبشكل سطحى .

ان الاسلام لم يتغلغل فى افريقية الصغرى التى دخلها فى القرن السابع الا بعد خروج المسلمين فى القرن السادس عشر [١] ، وحتى هذا التغلغل لم يكن

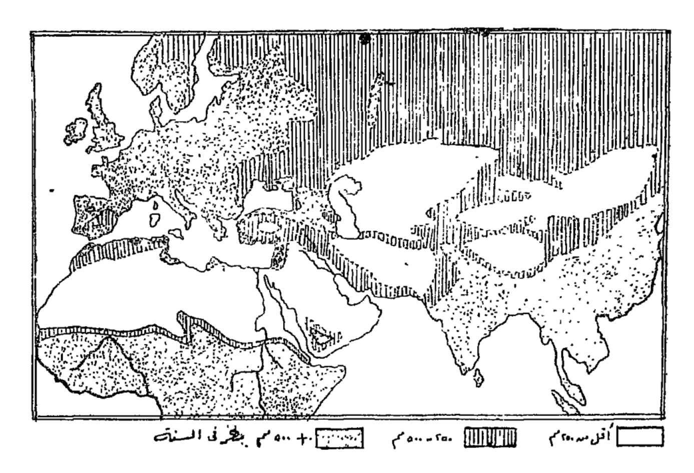
(١) أنظر شودو (١٨١ب) جزء٢ ص ٥٢

انتصارا كاملا ، فالطوارق والبربر بصفة خاصةغير متحمسين للتأثير العربى ويعتبرون نوعا متأخراً من المسلمين ، لا مساجد لهم ولارجال دين بينهم ولايصلون ولا يصومون ، بل وشهرتهم فى الفسق تجرى مجرى الأمثال بين أعدائهم من المغاربة .

ولننظر بعد ذلك الى الطرف الآخر من العالم الأسلامى الى قلب آسيا حيث وصف كاهون Cahun الترك والمغول والمانشو وأثرهم فى التاريخ. هل كان هؤلاء مسلمين حقا؟ فى الظاهر نعم وفى الحقيقة لا . فمزاجهم العام وأراؤهم أميل الى البوذية ، والحقيقة أنهم سمحوا لأنفسهم بالارتداد الى الى مختلف الديانات « بسهولة دون اعتراض أو حماس كبير[1] » . لقد أصبحوا عباد نار ، ومانيشيين ومسيحيين نسطوريين ومسلمين ، كيفما اتفق دون فهم للدين أو تذوق له ، بالرغم من أنهم يصبحون كبيرى الولاء للدين الذى يدخلون فيه ، ولكنهم لا يزالون يحتفظون فى أعماق نفوسهم بالديانات القديمة التى تظهر فى أساطير القرغيز وشعرهم وخرافاتهم ، وأمثال تتار سيبيريا وعادات غيرهم من الداخلين فى الإسلام ، رغم جهود المبشرين المسلمين ؛ وكان نتيجة ذلك أن أكبر حرب دينية شبت فى العصور الوسطى ، أثار جذوتها شعوب لم تكن ذات خصومة مع المسيحيين ، وتعتبر أقل الشعوب الإسلامية احتفاظا بتعاليم دينها ـ وهذا أمر متناقض، ولكن يجب أن نحترس باستمرار دون المغالاة التى يقع فيها بعض صانعى الخرائط .

---

(١) جوتيير (١٨١) جز ١ ص ٢٦٢ وما بعدها — قارن برنارد (١٧٧) فصل ٢ ص ٨٥ وما بعدها ، ص ١٠٨ ، ص ١٩٦ وما بعدها .



شكل رقم (٧)

أقاليم الرعاة والصحارى والسهوب (الستبس) فى آسيا وافريقية

ويبقى العربى الخالص بعد ذلك ، ومن تحصيل الحاصل أن نشيد بخيالهم الخلاق ، أو نذكر نقاء جو الصحراء وجفافه ووحدة السهوب وسيرها على وتيرة واحدة والوحدة الموحشة التى يشعر بها العربى ساكن الصحراء ، لكى نشرح كيفية نشأة الإسلام فى هذه البيئة ومهما يكن من شىء ، فمن الطريف أن نبحث عما إذا كان القرآن يحتوى على كثير من الخيال ، كما يظن الكتاب أم إذا كان الإسلام دينا أصيلا ، ليس له صلة بغيره من الأديان السابقة ،

ألم يكن من طبيعة العربي أن يستعير آراء بسيطة من الشعوب التي يتصل بها أي التي فتحها بعد ذلك ؛ ولا شك أن وحدانية اليهود كانت أقرب الآراء إلى قلب رجل مثل محمد ـ وقد تمسك بها. ولكن ما علاقة تضاريس السطح العربية أو الحياة البدوية بهذا كله ؟ (١)

(١) من الواضح أن المؤلف ينتقد بقوة ضيق أفق بعض الكتاب وتحاملهم على المسلمين عامة ، وقد أوضح المؤلف أن العيب لم يكن في الدين نفسه ، بل في بعض جماعات المسلمين التي لم تفهم دينها أو تتفقه فيه مثل الرعاة في المغرب الأقصى والصحراء الكبرى وفي أطراف سيبيريا ، كما أنه يبادر بالإشارة إلى فضل العرب . (المعرب)

— ٤ —

ذبذبة حياة الترحال

تدهور البداوة من الحقائق الملموسة اليوم ، ان لم تكن من علامات التقدم ، فالاتجاه العام يسير شيئا فشيئا نحو حيـــاة الاستقرار . وذلك عن طريق المـــدنية الصناعية الغربية فى أوروبا وامريكا ، والتى امتد نفوذها واستغلالها إلى المستعمرات ففى كثير من البـلاد تتخلى البداوة الرعوية عن مكانها الصحيح ، وكما يقول برنارد ولا كروا ، لم يعد هناك سوى أقلية من من الرعاة المدربين يرعون الحيوان ، بينما يظل أصحابهـا فى بيوتهم لا يصحبونها . (١)

وهذا أمر شائق جدا ، يجب أن نتذكره باستمرار ، ونحن فى ختام رسم صورة للرعاة . فما ينبغى لنا بعد الآن أن نبحث عن « سبب » هـذه الحياة الرعوية فى ظروف جغرافية معينة ، أو عن «المناخ» الذى يسبب «السهوب» أما الذى يعدل الحياة الرعوية ويغيرها فليس الظروف الطبيعية ، بل العوامل البشرية ، وأنه لأمر جدير بالاهتمام أن نلاحظ أن الأمن والطمأنينة ـ أو قوة البوليس تحل محل الحروب والقلاقل والاضطرابات الاقتصادية ، وهذا عامل له خطره ، كما يقول برنارد ولا كروا ، اللذان كرسا جهود فرنسا فى

(١) «١٤٧» ص ١٦٤

تأمين شمال افريقية ، ويقول جوتييه Gautier [1] أن البداوة كانت راجعة إلى عامل الخوف أو عدم الشعور بالطمأنينة ، وإلا فإلى أى سبب يرجع الأسلوب الرعوى البدوى ؟ هل الى الظروف الاقتصادية العامة ؟ ، مما لاشك فيه أن نشاط البدو يتأثر بالسهولة التي يستطيع البدو أن يحصلوا بها على ما يريدون ، وأن يصرفوا ما ينتجونه . واذا تركنا الصحراء الى سهوب تركستان ، فاننا نجد أن ويكوف Woikof [2] يشرح لنا العوامل التي جعلت بدو هضاب آسيا الوسطى أقل قلقا واضطرابا من قبل ، وأقل استعدادا للتجمع فى أمواج متدفقة تغزو وتخرب. ولقد ذكرنا تلك العوامل من قبل. وهى انجذاب المغول بالتدريج فى محيط الصينيين المستقرين واندماجهم فيهم وايجاد مخارج جديدة للتخلص من حيواناتهم فى الصين وسيبيريا التى يزداد عدد سكانها الان .

انتشار الاسلام ، وتأمين الحياة المستمر ، وتثبيت الجماعات البشرية تحت نفوذ الدول الصناعية الكبرى الراغبة فى سد حاجاتها ، والتى لا ترغب فى السلم من أجل السلم ، كما عرف البدو من قبل ، بل التى تسير فى برنامج استغلالها لهذه الجماعات التى تعتبر أحط منها مقاما ، كل هذا أدى اليه نمو نظام اقتصادى حسن فى نظر كل من البدوى والمستقر على السواء ، لم يستطع إلا القليلون الافلات من سحره ، هذا كله سلسلة من الحقائق المتصل بعضها بالبعض الاخر والتى لا تترك مجالا للعوامل الجغرافية بمعنى الكلمة . وهل

(١) جوتيير «١٨١»

(٢) ويكوف «١١٨١أ» ص ١١٣

يستطيع أحـد أن يشك فى سيطرة الدول الصناعية الكبرى وبطشها وقوة سلطانها ودهائها؟ لقد كان من نتائج الحرب الكبرى الأولى أن هذه المجتمعات المنحطة ـ كما يقولون ـ قد وقعت تحت سيادة أوروبا أو أمريكا المتحضرة بحضارة أوروبا . ولنتذكر دائما أن شعوب ميكرونيزيا وكارولينا الغربية . مثل الياب Yap والبالاو Palau يستعملون عيـدان الثقاب المستوردة فى ايقاد النار، وأنه عندما انقطعت السفن الدانمركية عن اصدار الطباق والثقاب والأسلاك ، والأسلحة النارية ، والمدى ، والفخاخ المعدنية إلى الاسكيمو عام ١٩١٧ ، وقد كانت قد أصبحت من ضروريات حياتهم ، شعر هؤلاء البدائيون بأزمـة شديدة ، واضطروا إلى أن يعودوا ـ بقدر ما وسعتهم الحيلة ، إلى وسائلهم القديمة . من الأ وات المصنوعة من العظام والظران . وكم من الأمثلة ما يشابه ذلك ، مما يدل على المدى الكبير الذى انتشرت فيه المؤثرات الصناعية الغربية فى العالم ولماذا نقصر أنفسنا على الاقتصاد الصناعى فان الزراعة أيضا كانت لها آثار بعيدة هى الأخرى على البدو .

من الأسباب التى تشرح تقلص الرعى والبداوة ، تقدم الزراعة وغزوها للسهوب المفتوحة ، نتيجة لزيادة عدد السكان الزراعيين أو الأرقى حضارة ولقد اجتمع اللاب ، رعاة الرنة سنة ١٩١٧ فى مؤتمر ليحتجوا على استمرار تعمير بلادهم لأن تلك الحركة كانت تقتضى انقاص حقوقهم فى المراعى ، وقد كان لانتشار أساليب الزراعة الجافة فى الجهات الحارة نفس الأثر فى تقلص مساحة المراعى، وهكذا يظهر لنا أن عمل الإنسان، وتقديره، وحركاته وازدياد عدده ، هى الأسباب الحقيقية الأولى فى تشكيل أساليب الحياة

وليس التربة أو المناخ . هذا أمر مفروغ منه ، ولكن هناك من يعترف ولكنه يغالط وينسب كل شيء إلى البيئة الجغرافيـــة ، لا لشيء إلا لأنه لا يستطيع الفكاك من طرق التفكير القديمة ـ لقد ذكرنا نتيجة أبحاث برنارد ولاكروا فى تطور البداوة ، فقد كانا على حق عندما نسبا إلى « السلم الفرسى» الأهمية الكبرى فى عالم الصحراء ولكن برنارد [1] فى كتاب له عن مراكش الشمالية ، يقول « شمال افريقية بلد الجبال حيث تستطيع الأسر، حتى أضعفها ، أن تستقر وتدافع عن نفسها ـ وبلد السهوب ، التى تضطر فيها القبائل ، حتى أقواها شكيمة إلى التجوال فوق المراعى » ـ تضطر بالقوة ! يالها من آراء قديمة خداعة .

٭ ٭ ٭

حقا أن البدو « مدفوعين » لأن يسلكوا أسلوبهم المعروف فى الحياة ما دامت الظروف الاقتصادية لم تتغير فهم يطيعون قانون الستبس الذى يحكمهم ، ولكن من الذى أدانهم الى ذلك القانون ، ان لم يكن الإنسان نفسه ؟ يجب أن نتخلص نهائيا من اعتبار البداوة وما يقابلها من تحضر اسلوبين متغايرين فى الحياة ، فليست البداوة حكما أبديا كما يقول جوتييه عندما وصف جماعات الصحراء . ويؤكد برنارد هذا الرأى قائلا [2] « يجب

---

(١) برنارد « ١٧٧ » ص ١٤١ وقارن ما قلناه من قبل ص « ٢٨٦ » من الأصل الفرنسى

(٢) «١٧٧» ص ١٤٦

أن يلاحظ أن البدو يعبرون بسهولة الحياة البدوية اليه الحياة المستقرة وبالعكس ، وتاريخ القبائل حافل بأمثال هذا الانتقال فى الحاضر والماضى، بالرغم من أنه يبدو أن البدو ما ان استقروا مدة ما ، سيظلون فى استقرارهم إلى الأبد ، فما لا شك فيه أنهم عندما يفقدون حيوانهم يضطرون الى الاستقرار ولكن ليس ذلك بصفة نهائية . أما اذا قطعت أشجارهم ، ولم يعد هناك ما يربطهم بالتربة ، فإنه لا يمكن أن يستمروا فى حياة الاستقرار، ولا مانع لديهم من حياة الظعن والبداوة . ومعنى بدوى فى اللغة التركية هى قرغيز . ويخبرنا كاهون أن قرغيز قازاق مكونة من كلمتين ، الأول معناها الآفاق ، والثانية قطيع ، كما أن الفصيل أو الحيوان الذى انفصل عن قطيعه أو الطريد أيضا يسمى بالقازاق ، وها نحن أولاء قد انتقلنا من الصحراء إلى سهوب وسط آسيا حيث نجد رجال القبائل يتنقلون بين حياة رعى الماشية وتربيتها [١] ، وامتلاك الأرض وسكنى المدن المسورة وبين حياة الرعى فى السهوب تلك الحياة الخشنة ، المستوحشة التى يحياها الطريد المغامر أو القازاق فى الصحارى . تغير مستمر ، بين صعود وهبوط ، حظوظ متفاوتة ، بين ابتسام وعبوس. ولم يكن كاهون فى معتصم من أن يرجع التقلب الشديد فى خلق الأتراك إلى هذا الأسلوب المتقلب فى حياتهم [٢] وسوف لا نساير هذا التفكير إلى نهايته ، فإن الناس لا يعيشون فى العراء إذا استطاعوا أن يجدوا الأمن حتى لو كانوا من القرغيز ، اذا كانت أمامهم السهوب التى تضمن لهم حياة أخرى .

---

(١) كاهون «١٨٦» ص ٤٨ (٢) نفس المرجع ص ٤٩

اذن فمنذ أن اتصل البدو بالحضر، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عنهم، ومن الممكن وجود بدو مع قطعانهم منقطعين عن العالم أجمع - ولكن هؤلاء لم يكن لهم وجود فى التاريخ. فقد عاش البدو والمغول والقرغيز والترك قديما على الحبوب [1]، وقد حصلوا على الحبوب من السكان المستقرين وأعطوهم عوضا عنها منتجات قطعانهم وعندما سنحت لهم الفرصة للاستقرار فانهم يتحولون الى زراع بكل سرور. ولكن اذا قبض الحضر أيديهم عن البدو، واذا قضت الأوبئة على قطعانهم أو مالهم، أو اذا غزاهم جار عات وأعمل فيهم السيف وساق انعامهم، فان من بقى منهم عليه أن يعيش، أو بالأحرى قبول شظف العيش. ومن هنا هجرة القرغيز الى السهوب، أو الاعتصام بالصحراء مثل القازاق، وعندما يشتد ساعدهم يعودون للأخذ بالثأر، فعلينا أن نتذكر أن البدوى مخلوق عاطفى، « تضرم عاطفته منظر الجبال الزرقاء، والسهول الخصبة، والخيوط الفضية من الأنهار الجارية [2] وتثير كامن شعور الفارس التركى الذى يطل على الصين الضخمة من فوق ذرى الهضاب، لكى نفهم أن البداوة ليست ولا يمكن أن تكون، فى آسيا أو أفريقية، حياة أبدية أو نوعا من لعنة الهية تصب فوق جنس ما.

* * *

هذا هو الخطر من « الصور » التى تنشأ على الطريقة الكلاسيكية، من

---

(١) نفس المرجع ص ٥١

(٢) جوينير (١٨١ ب) جزء ١ ص ٣٣٥

أجزاء مستعارة من نماذج متعددة ، هذه الصور لها فائدتها ولها مضارها ، ولكن لا ينبغى أن نخدع بها ، لأنها تبعد فى الواقع عن الحقيقة ، وتحرم الجغرافية من حيويتها ، ولا تصلح الا للتكرار فى حجرة الدراسة .

وعلى أى حال يجب أن تتذكر ما سبق أن قدمنا به هذه الدراسة ، من أن النماذج الاقتصادية ليست هى لنماذج الاجتماعية ، ففى الصحراء وجدنا أنفسنا أمام طرازين مختلفين ، الطوارق من ناحية، والعرب المغاربة من ناحية أخرى، كل منها يشترك مع الآخر فى الظروف الجغرافية، ويعيش تحت نفس العوامل المناخية، ولكن بينهما أكبر الاختلاف فى اللغة، والثقافة والعادات ، والتقاليد والتسلح للحياة . ويفصل بينها كره عميق ، ولكن التاريخ يخبرنا أن هذه الهوة العنيفة بينها لم تحفر إلا حديثا ، فقد ربطها الأصل البربرى (١) ، منذ اعتنق أحد الجانبين الاسلام ورحب به ترحيبا تاما ، قلبا وقالبا ، بينما ظل الجانب الآخر محتفظا بتراثه الوثنى ، هذا المثال الذى صوره جوتييه صالح لكى يكون مشيرا للفكر أمام من تخدعهم المظاهر القديمة فى التفكير .

---

(١) جوتيير (١٨١) ص ١٦٧

— ٥ —

الزراعة بالفأس اليدوية وطبيعة حياة الاستقرار

«لقد ذهب الفكر الأوروبي أشتاتا أمام البداوة ، فاعتبرها تارة مرحلة من مراحل التقدم البشرى وأنه يبدو لى أن للبدو - فى الصحراء على الأقل - أرستقراطية مثاليـــة » هذا هو صوت جوتييه فى ملاحظته المتناقضة ، وهى ملاحظة قيمة لذاتها ، ولأنها تلقى شيئاً من الضوء على الصحراء ، ولكنها أيضا تلفت انتباهنا الى الدور الذى تلعبه الاعتبارات الاقتصادية - الرغبة فى الغنى - فى تطور أساليب الحياة ، ولا سيما فى الانتقـــال من البداوة الى الحضر .

وهناك سؤال هام حول انتقال الناس من البداوة الى ، الحضر ، هل يعنى هذا أن كل الحضر مروا قبل ذلك فى دور البداوة ؟ لقد كانت هذه النظرية مقبولة وقتاً ما ، ولكنها فقدت قيمتها الآن وذلك تبعا للمعلومات الجديدة التى لدينا ، فقد كان هناك - وسيظل دائماً - عدد كبير من النـاس يوقفون حياتهم على الزراعة القليلة المتسعة المدى extensive ، وهؤلاء يمتازون بجهلهم تماما باستعمال الحيوان المستأنس . ولا سيما الثيران . تلك هى الزراعة التى يطلق عليها الألمان اسم زراعة الفأس اليدوية Hackbau لأن الأداة التى تستعمل ليست المحراث ، بل أداة قصيرة ذات مقبض منحن تجبر صاحبها على إحناء ظهره ، وقد كانت تصنع من قبل من قرن الوعل ، ثم من غصن معقوف وأخيراً دخل فى صنعها المعدن فأصبحت تصنع من

جزئين ، يد خشبية وقطعة حديد . هـــذه هى الأداة التى يستعملها زنوج السودان ، أو بالأحرى نساء الزنوج ، ما دامت النساء هن القائمات وحدهن تقريباً بالزراعة هناك[١] أما الرجل فيحتفظ لنفسه بالأعمال الشاقة أو التى تحتاج إلى مهارة مثل إزالة الغابة وقطع الأشجار الكبيرة وإعداد الأرض لزراعة المنيوق التى يقوم بها النساء ، وقد بلغ من أهمية الفأس اليدوية أن حدها الحديدى يعتبر عملة تقوم مقام النقود فى التعامل عند ما لا تستعمل فى الزراعة حتى تبرى بأيدى الناس فى النهاية[٢] .

وهؤلاء الزراع لايحرثون الأرض إلى أى عمق كبير ، فالزنجى لا يتعدى خدشها [٣] ، وهو يبحث عن حفرة صغيرة أو شق صغير فى الأرض لكى يبذر فيه البذور[٤] ، ولما لم يكن لديه أى حيوان مستأنس ، فهو لايعرف شيئاً عن السماد الطبيعى ويعوض ذلك بحرق الأحراج من نهاية أكتوبر حتى ديسمبر [٥] ، لأنه ينهك الأرض بزراعته[٦] ، ولعل هذا هو السبب فى

---

(١) Claerhout, l'outiblage agricole des néolithiques (Ann,soc.) roy. arch , Bruxelles , t , xxvi, 1912

(٢) كورو (١٧٩) ص ٢٦٥

(٣) نفس المرجع ص ٣٠٠ — ٣٠١ ولوحة ١٤

(٤) هيكروز ١٠٨ ص ٤٧٢

(٥) بروئيل افريقية الاستوائية ص ٢٤٣
Bruel , l'Afrique équatoriale.

(٦) مينود ١٨٨ جزء ١ ص ٣٧٤ ، بروئيل ص ١٣٠

هجرته من مكان الى آخر ، فبعد بضع مواسم قليلة يستعد للرحيل ويبحث عن قطعة أرض أخرى يزرعها . بحرق الأحراج أو قطع الأشجار حسب الظروف[1] وهو يبذر أى نوع من البذر دون انتقاء أو اختيار ، ذلك الإختيار الذى يكون حرفة الزراعة بالمعنى الصحيح وبعد الحصاد يبدأ فى الهجرة ، وربما هاجرت القرية بأكملها فى نطاق ضيق .

وليس هناك صنف ممتاز من الحبوب ، سوى الدخن أو الذرة الرفيعة المتشابهة فى كل القارات ، فلم يعرف الأزتك سواه فى المكسيك ، وهم أيضاً لم يستعملوا سوى عصى معقوفة[2] فى نهاتها ، ذات رأس مدببة من النحاس ومنجل حصاد للحصاد (ويعرف الزنجى بأواسط إفريقيا أداة كهذه يستعملها فى الحصاد)[3] كما أنهم كانوا يحرقون الأعشاب ليستعيضوا بهشيمها عن السماد الحيوانى وكانوا ينظفون التربة بكل عناية لأنها كانت شيئاً ثميناً . وربما جمعوا التربة بكل عناية على أعواد خشبية تشبه الحدائق العائمة chinampa التى كان يحتفظ الصينيون بسرها . ويعرفها الأوروبيون .

ليس هناك أمر خاص بانتقال السكان من البداوة الرعوية إلى الزراعة المستقرة بين هؤلاء الزراع لأنه لم يكن لديهم ماشية ، ولم يعرفوا شيئا عنها ، ولم يطلبوا مساعدتها ، ومن المستحيل أن يكون أصلهم رعوى وهم يجهلون

---

(١) شيفاليه ١٧٨ ص ٦٢ ، رويل ص ١٣٠ وفارن هاهن
Die Brandwirtschaft in der Bodenkultur .

(٢) كورو ١٨٩ ص ٢٦٥

(٣) كابيتاز ولوران ٢٠٢

كل شيء عن الماشية ، ومن ناحية أخرى فقد كان استقرارهم نسبياً . فإنهم لم يكونوا مرتبطين تماما بالتربة ، وأكثر من ذلك فإن الزراعة لم تكن مغروسة تماماً فى نفوسهم . وقد أشرنا من قبل الى القرى الإفريقية التى تهاجر عن عن بكرة أبيها من مكان الى آخر ولو كان قريباً من مقرها الأول ولا يمكن أن نفسر الصعوبات الإقتصادية، من إنهاك التربة وضرورة تنظيف التربة من الأحراج والغابات تفسيراً تماماً بميلهم الى الهجرة السريعة من مكان إلى مكان . ويجب أن نتذكر أن هذه القرى الإفريقية لا تشبه بحال القرى الأوروبية . تلك المراكز الثابتة للمصالح العامة والتى لها كيان جغرافى تاريخى خاص ، والتى لها حياة مستقلة الى حد ما عن حياة سكانها .

القرية الزنجية مخلوق فردى[1] ، يؤسسها رجل ينفصل عن عشـــيرته ويبنيها لنفسه ولزوجاته ولأولاده وزوجاتهم ولأحفاده ، ولكن هذه القرية لا تستمر طويلا فسرعان ما تختفى بوفاة الزعيم[2] وليس هذا لأن الزعيم هو الذى كان ينظم العشيرة فى سلك واحد ، فاذا مات تناثرت خرزاته ، بل لأن هناك فكرة شائعة عن الموت بأنه نتيجة السحر ، اذا حل فى قرية وجب على أصحابها أن يفروا منها سريعا[3] .

ونحن نحتاج أن نغوص فى أعماق نفسية الزنجى لنفهم هذا الأمر وعلينا أن نتذكر أن الشعوب البدائية شديدة القابلية للتأثر، ولاسيما تلك التى تعيش فى

---

(١) كورو (١٧٩) ص ١٢٤
(٢) نفس المرجع ٢١٧
(٣) برول افريقية الإستوائية ص ٢١٥

الغابات مثل التى وصفهاميتر Maître فى كتابه الغريب[١] فهو يصور لنا تلك الشعوب المسكينة بعقولها التى لا نستطيع أن نفهمها يروعها خوف غامض من نتائج أحداث لا يستطيعون تفسيرها أو جريمة قتل دون سبب ظاهر ، ثم تهرب فجأة وقد استبد بها الذعر ، ملتجئة الى الغابات ، تاركين أكواخهم الحقيرة التى أنشئوها بعد تعب . فهذه عوامل نفسية واقتصادية وأخلاقية كذلك . فهناك باستمرار خطر أخلاقى على الحيـــاة المستقرة فى مظاهرها البدائية ، مختلف تماما عن الخطر الطبيعى يترتب عليـــه آثار جغرافية لا شك فيها .

(١) ميتر ١٩٢ مكرر

— ٦ —

مراحل الانتقال

المجتمعات البشرية ليست بسيطة فى الواقع . فالأنواع النقية فيها شاذة جداً ، أما القاعدة فللأنواع الانتقالية . فهناك رعاة سلكوا أكثر من نصف الطريق نحو الاستقرار ، لا ترحل إلا أنعامها ، بينما هم مستقرون فى مجتمعات خاصة مرتبطة بقرى زراع مستقرين ، مثل الفولا والتوكولور فى النيجر [١] ويكتفون بامتطاء جيادهم وزيارة قطعانهم فى مرابعها تحت حراسة رعاتها من وقت الى آخر ، ويشبه هؤلاء الزراع الذين يعيشون حياة نصف بدوية فلاحو سهل انجر ، الألفولد [٢] فى قلب أوروبا وهؤلاء يهاجرون فى الصيف الى حيث مراعى ماشيتهم ، فى مساكن مؤقتة ، ولا يعودون الى قراهم الا فى الشتاء .

وكذلك هناك رعاة نصف فلاحين ، مثل هؤلاء الذين يزرعون بعض البقع الملائمة فى فصل الربيع ويعودون لحصادها فى الخريف ، وأنصاف البدو فى هضاب إيران الذين وصفهم Richtofen [٣] وهؤلاء يعيشون فى الشتاء .

---

(١) ميتر ١٨٨

(٢) دى لاجر « ١١ » ١٩٠١ ص ٤٤١

(٣) Richtofen, Vorlesungen uber allgem· stidlungs u. Verkehrsgeographie

فى بيوت ثابتة ، يبذرون فى الربيع ثم يصعدون فى الجبل حيث يقضون فصل الصيف ثم يهبطون إلى الوادى فى فصل الحصاد . وهناك القرغيز الذين حلل حياتهم رختوفن ويعيشون على حدود المنطقة الجبلية ، ونستطيع أن نرى كيف تساعد هذه الظروف الطبيعة على الإنتقال من حياة البدو الرعوية إلى حياة الاستقرار الزراعية .

كما أن هناك زراع يقتنون الحيوانات ، ثم لا يميلون إلى حياة البدو الرعاة ولكن إلى حياة الفولا والتوكولور ، الذين لا يتحركون إلا بقدر ، ولكنهم يتركون ما شيتهم ترعى فى السهوب ، وحالة الإنتقال هذه جديرة بالاهتمام . فقد يبدو أن اقتناء الحيوانات ضرورة زراعية ، وأن الزراع وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تربية الماشية وتحسين نوعها ، ولكن هذا أمر مستبعد كما أن جوتييه يصور لنا البدوى الارستقراطى، الذى يسود الحضر، والذى يجبرهم فى الصحراء على العمل لمصلحته ، وعلى النقيض من ذلك يصف مينو Meniaud أسلوب حياة المالنكا والبامباراس فى النيجر[1] هؤلاء الزراع الذين يعيشون على الزراعة البدائية ، ولكنهم يحصلون على الماشية بتبادل محصولهم من الحبوب فى مقابل الماشية مع الرعاة الفولا أو المغاربة أو الطوارق ، وتلك هى وسيلتهم فى جمع الثروة ، ولكنهم لا يعتنون بها العناية اللازمة ، فلم يفكروا يوماً فى المحافظة على المراعى أو جمع الحشائش وتجفيفها فى فصل الصيف لغذاء الحيوان شتاء ، ولكنهم بالرغم من ذلك يحتفظون بها ، ولعمرى تلك طريقة غريبة لا جدوى منها فى جمع الثروة ،

(١) مينو (١٨٣) جزء ٢ ص ١٦ وما بعدها

من الصعب المحافظة عليها ، ولا تجدى نفعاً لصاحبها وربما كان هــــذا هو السبب فى أننا نجد بعض الماشية فى وسط افريقية تهيم على وجهها مع الحيوانات المتوحشة ، مثل الوعول والزراف والنعام والفيلة[1] .

وبالرغم من ذلك فتلك ثروتهم الى يعملون باستمرار على تنميتها[2] — ولكنها ثروة غير مفيدة لا يحاول أصحابها الاستفادة منها ، فهم لا يحاولون بيعها ، وما جدوى النقود لهم ؟ ولكن هناك نوع آخر من التجارة يقوم به العرب مع الدنكا ، فهم يتبادلون بقرة واحدة من كردفان أو الحبشة فى مقابل خمسة ثيران ، إذ أن البقر تعمل على كثرة تناسل القطيع .

ويستخدم المالنكا والبامبارا فى زراعة الأرز والبطيخ والقطن ويرون فى اقتناء الماشية أحسن أنواع الاستغلال الاقتصادى ، ولكنهم مثل البدو لا يبيعون صغار الماشية ، بل يتركونها حتى تهرم فهى رأس مال ينمو باستمرار ، ويشعر المرء منهم بالأمن والطمأنينة وفى حيازته هذا العدد الكبير من الماشية ؛ يرعاها كما يرعى الوالد أولاده ، لا يبيعها ولا يستبدلها بالنقود .

ويجب أن نتذكر أن من الصعب على هؤلاء الزراع البدائيين ، أو انصاف الزراع أن يسلكوا سبيل البدوى الراعى لأن الزراعة تعوقهم فى ذلك ،

---

(١) قارن بير (١٢) جزء ٢٦ ، ١٩١٢

(٢) هذا يشبه ما يحدث لدى الهوتنتوت ، قارن ديماجون ، (١١) ١٩٠٨ ص ٣٢٤ — ٣٢٥

ولكن الزراعة وحدها هي التي تدعوا إلى العناية بالماشية وتربيتها حق العناية والتربية ولكن أنى لهؤلاء الذين لا تكاد تكفيهم مواردهم الزراعية ، أن يعنوا بماشيتهم حق العناية ؟ فعلى الماشية أن تعنى بنفسها ، تهيم على وجهها فى الفلوات وتقتات من خشاش الأرض ، ولكن الحال تتغير إذا استغلت الأرض لتنبت علف الماشية ، ومن هنا لا نجد تناقضا قط بين الحرفتين ، بل أن كل منهما تكمل الأخرى ، وهناك تداخل بين الواحدة والأخرى على الأقل بين (الزراعة) و (تربية الماشية) كما نفهمها بالمعنى الصحيح ، أما الصعوبة التى نواجهها فى هذا البحث فهى ناشئة من أننا نصف نوعا من الزراعة أو تربية الماشية مختلفا كل الاختلاف عما نفهمه فى مجتمعنا المتحضر فإن مجرد امتلاك قطيع لا قيمة له إطلاقا سوى كونه رأس مال غير مستثمر ، لا يفرط فى أى جزء منه سوى للضرورة القصوى ، وهذا ليس فى الواقع تربية للماشية ، كما أن الحفاريج السنغالية بعيدة كل البعد الديكة البريسية السمينة ، ولا يمكن مقارنة الثور السودانى بالثور الشاروليه . وهل فى هذا ما ينبه أولئك الذين لا يبحثون عن الحقائق ويجرون وراء الألفاظ .

إن المجتمعات البشرية المختلفة تعيش تحت ظروف متغيرة تغيراً لانهائيا وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر معقدة غاية التعقيد ، أما أن نأخذ الفلاح الشمالى ونقارنه بالبدوى فى صحراء العرب ونعلن أنهما يعيشان فى طرفى نقيض ، فهى وسيلة رخيصة لإظهار الفرق الشاسع بين الجماعات البشرية كما أنه من عبث الأطفال أن نأخذ هذين المثالين لتشييد نظرية عامة فى التاريخ «الصراع الأبدى بين البدو والحضر» علينا أن نخصص قبل أن نعمم ، فكل علم يبدأ من كم معقد ، عليه أن يشرحه ، وأن يبسطه ، إذا أمكن ، إلى

وحدات بسيطة ولا يمكن العلم أن يبدأ من وحدة مفروضة مقدما .

* * *

تربية الماشية والبداوة والزراعة والاستقرار ، كل هذه كلمات غامضة جوفاء ، لا تعبر عن آراء واضحة . فالحقائق أكثر تعقيداً وأكثر تنوعا مما نتصور ، ولقد فرغنا الآن من الحديث عن هذه الحرية الغريبة ، وهى الزراعة المتنقلة التى تنضح الآراء القديمة ، ولكن لا هذه الحرفة ولا زراعة الفأس اليدوية التى تقوم بها قبائل أواسط إفريقية المستقرون [1] ، تشبه من قرب أو بعد زراعة الحدائق التى يقوم بها الصينيون واليابانيون الذين يستخدمون النفايات البشرية بدلا من السماد الحيوانى ، كما أنهم يستعيضون عن عمل الحيوان بكد الانسان ولا يصلح للزراعة فى الصين سوى ١٢٥ مليون فدان من ١٠٠٠ مليون فدان (٥٠ مليون هكتار من ٤٠٠ مليون هكتار)، أما الباقى فموزع بين الغابات والمراعى والأوقاف العامة والأوقاف الدينية والمدن .

وزراعة الحدائق هنا تختلف عن الزراعة التى نعرفها فى أوروبا ، فالأولى تعتمد على كد الانسان وحده بينما الثانية تعتمد على كد الانسان والطاقة الحيوانية واستعمال الأدوات الزراعية الكاملة من المحراث إلى الآلات الزراعية [2] ، وأكثر من ذلك فإن هذه الزراعة تتحول بالتدريج إلى

---

(١) اقرأ هاهن (دور زراعة الحدائق فى تاريخ الانسان)
Gartenflora, 50,1910. p. 346

(٢) ركلوس (١٩٤) ص ٤٩٦

زراعة علمية ، فالبذور تنتقى لملاءمة أنواع التربه والمناخ المختلفة ، ويعوض الأسمدة الطبيعية أو الكيمائية ضعف التربة وإنها كلها وأخيرا يختار لها عددا صغيرا نسبيا من الأنواع النباتية للإستغلال الزراعى وتقتبس أساليب مختلفة للإستغلال الاقتصادى ، يعتبر كل واحد منها خاصا ببعض المجتمعات البشرية ، فى جهات أخرى من العالم .

إذن فنحن لا يحق لنا أن نتحدث عن أسلوب الزراعة المستقرة ، وهذه فى الواقع لم تنشأ إلا من زراعة الأشجار ، التى تحتاج إلى عنايه طويلة ، وإلا وقت طويل حتى تنتج ، ومن ثم فلا بد من حراستها من يد الإنسان العابثة أو أظفار الحيوان المخربة ، فالشجرة التى يحرسها سور صغير من الشجيرات الشوكية أو الحجارة ، تبعث فى النفس بالتدريج الشعور بالملكية وبالأرض كوطن [1] ولكن ممارسة الرى تزيد الانسان ارتباطا بالأرض ، رى سطحى بواسطة اغراق الأرض بالماء ، طريقة سهلة وبسيطة يقوم بها زراع الأرز فى شرق الهند قبل التدخل البريطانى ؛ أو رى بواسطة القنوات والرى عملية معقدة دقيقة تعتبر بحق أساس زراعة الحدائق التى يرجع اليها الفضل فى غنى الصين ، وفى كونها بلد الزراع المستقرين ، المرتبطين بالأرض ارتباطا وثيقا والذين يرون فى الزراعة أنبل وأشرف حرفه للإنسان [2]

أما النتائج التى عادت على المجتماعات البشرية من الزراعة المستقرة الكاملة

---

(١) ريتشهوفن (١١٦) س ١٧١

(٢) نفس المرجع

ومن مثل هذه القواعد الثابتة للحياة ، فهى أشهر من أن تذكر هنا . ويكفى أننا حاولنا أن نوضح مراتب التطور فى المجتمع البشرى ، والحقيقة أكثر تعقيدا وتشعبا من النظريات الفجة أو الملخصة.(١)

(١) قارن Hitier, l' evolution de l'agriculture. أنظر (١١) ١٩٠١ .

الباب الرابع

المجتمعات السياسية والتجمعات البشرية

لقد درسنا فى الفصول السابقة أثر العوامل الطبيعية فى المجتمعات البشرية . وقد بحثنا عن قوانين جغرافيـة ولـكن عبثا كنا نحاول . وقـد لاحظنا باستمرار وجود عدد كبير من التوافقات الممكنة والتى لم يتحقق فيهـا إلا عدد قليل .

لقـد بدأنا بأن بينـا أن فكرة المشكلة السياسية والمشكلة البشرية ، أمر واحـد . [١] وعندما علقنا على رأى راتزل من أن « المجتمع هو الرابطة التى تربط الدولة بالأرض » قلنـا أننا لا نستطيع أن نعتبر المجتمع مجرد لعبـة داخل صندوق ـ هى الدولة ـ صندوق يتسع أحيـانا ويضيق أحيانا [٢] وقد حاولنا أن ندرس المجتمعات البشرية وهى قائمة فى بيئاتهـا ، وتستمد حياتها منهـا وهـذه الدراسة أمر ضرورى ، لأن الدولة تقوم فى الواقع على قطعة من الأرض ، وتستمد حياتها ومقوماتها منها ، ولذلك فنشأتها فى الغالب جغرافية . ومن حيث المبدأ لا داعى لتفرع فرع من الجغرافيـة السياسية مستقلا عن الجغرافيـة الاقتصادية التى تعتمد اعتمادا كبيرا على

---

(١) المقدمه ، الفصل الثانى الفقرات ٤ ، ٥

(٢) ص (٢٥) من الأصل

الجغرافية الطبيعية وليس من الضرورى فى رأينا ـ أن نبحث عن أثر البيئة الجغرافية على الدول ، بحثا مستقلا عن أثرها على البشر ، أو على المجتمعات البشرية التى لا نعتبر الدول الا احدى وسائل التعبير عن أحد أوجهها .

وبالرغم من هذا، فربما كان من المفيد أن نستعرض بعض الحقائق ذات الصبغة السياسية ، لكى تبين علاقتها بالعوامل الجغرافية الثابتة ولكى نمهد الأرض من عدد من العقبات الفكرية على الأقل ، ولذلك فنحن نوقف هذه الفصول فى هذا الباب الرابع والأخير من كتابنا لهذا الموضوع.

الفصل الأول

مشكلة التخوم السياسية ، والأقاليم الطبيعية للدول

إن هناك ثمة ما يسمى بالجغرافية التاريخية ، وإن كان هذا العلم لم تفسده تلك الدراسات الناقصة عن أسماء الأعلام الجغرافية أو تحقيق الحدود السياسية ، أو وصف التاريخ الإدارى (١) للأقاليم وصفا جافا ، فإن أهم مشكلة يجب أن يعالجها هذا العلم هى مشكلة وجود الأمم الكبرى التى تعيش فى العالم الآن .

انها تبدو لنا ، وربما كان لنا الحق فى ذلك ، شخصيات تاريخية حقيقية وشخصيات معنوية كذلك . فلهذه الأمم حياتها الخاصة الداخلية ومظهرها الخارجى ، بل وشخصيتها الطبيعية ، وشكلها الخارجى وكيانها المادى الخاص بها ، لدرجة أننا عندما نفكر فيها ، لا نتصورها فى غير هذا الكيان ، ويبدو لنا شكلها كما لو كان ضرورة أدبية لابد منها . ففرنسا وإيطاليا وأسبانيا وبريطانيا ، لكل منها حقائق أساسية نقبلها دون أن نحاول أن نناقشها وإذا تأملنا خريطة قديمة لفرنسا ، مثل الخريطة الموجودة فى أطلس لونجيون Longnon الذى يبين مساحة فرنسا فى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر ، فنحن فى الواقع لا ننظر فيها بإمعان ، أولا نحاول أن ننفذ إلى ما تحمله من معان ، مجموعة أسباب ونتائج ، لا تتبع قانوناً محدداً واحداً ، ولكنها مجرد واحد

---

(١) قارن الملاحظات ص ٦٥ وما بعدها فى
Tourneur - Aumont, L'Alsace et L'Alémanie, Paris 1919

من عدة إمكانيات ، تحقق فى وقت معين على الأقل ، وبدلا من أن نبحث عن الامكانيات المتعددة ، والظروف التى كان من الممكن أن تتوافق ، لتخرج عدداً آخر من الامكانيات بدلا منها . قبلنا الوضع الذى حدث وشكلناه على هيئة « أسباب ومسببات » وأكثر من ذلك ، نرجع بذاكرتنا إلى فرنسا أيام سانت لويس أو أيام شارل السابع ، صورة فرنسا فى وضعها المثالى ، وليست فرنسا الحالية ، فرنسا ذات « الحدود الطبيعية » .

— ١ —

نظرية التخوم الطبيعية

تبدو لنا المسألة كلها ، فى شكل مشكلة الحدود، وترسب فى قرارة نفوسنا، دون أن نلاحظ فكرة « الحدود الطبيعية » للدول الكبرى ، مما يجعلنا ننظر إلى حدودها كأشياء قائمة بذاتها ، ذات قيمة منتجة نستطيع أن نسميها فضيلة ذاتيه وهى فى الوقت نفسه قوة خالقة تفرض نفسها فرضا .

وكان من أهم أعمال المؤرخين والجغرافيين فيما سبق ، هو تحديد هذه الحدود السياسية وتعيينها على وجه الدقة فيبدأون أبحاثهم بقولهم «تحد الدولة من الشمال . . . ومن الجنوب . . . ومن الشرق . . . ومن الغرب » كأنما يؤديان تحية اجبارية للاتجاهات الأربعة الأصلية ، وأما عن الدولة نفسها ، فإن الجغرافى يكتفى مثل كل طباخ ماهر بتمزيقها إربا إربا وتركها بعد ذلك[1]. ولقـــد وضعت حدود الأقسام الفرنسية الحالية ، فى الوقت المناسب الذى اختاره الجغرافيون التـاريخيون ليملأوا صدر الموظفين الرسميين فى وزارة الداخلية زهوا وخيلاء . أما فرنسا القديمة فكان لها « مقاطعاتها القديمة » التى كانت كفيلة بسد جميع الرغبات[2] ، ولكن استعيض عنها بأشكال هندسية

---

(١) Febvre L . Histoire provincial, Rev. bourg.de l'Enseignement superieure, Dijon 1912.

(٢) Brette, A. les Limites et les divisions territoriales de La France en 1879. paris 1907, chap. III,pp.57,

مزقتها إلى أقسام واكتفى الباحثون بالشكل دون الجوهر، وتساءلوا هل كانت فرنسا ثمانية الأضلاع أم سداسيتها ، وشغلوا بالجدل العقيم فى ذلك .

أما عن الحدود السياسية فلم تكن مجرد خطوط. ولم تكن قيمتها وقتية أو نسبية، ولم تكن المسألة مسألة حدود سياسة ، بل مسألة فواصل «طبيعية» بكل ما تحمله كلمة طبيعية من معان وفلسفة ، وعندما نتحدث عن هذه الفواصل الطبيعية ، فنحن فى الواقع نتحدث عن حدود مثالية وضعتها الطبيعة ، وأصبحت مثلا يجب أن نجاهد لكى نحققها وهناك باستمرار هوة بين الحدود الطبيعية والحدود الموجودة فعلا ، وهذا مما يكدر . ولذلك يجب أن تختفى ، هذه الهوة . والمؤرخ الذى يتأمل خريطة فرنسا عند وفاة فيليب لى بل ، يعرف أن هذه الهوة كان يجب أن تختفى وأن حدود فرنسا لم يكن لها أن تقف عند نهر الرون ، وأن مقاطعات دوفينيه، سافوا ، ثم برس شمالا وفرانش كونتيه والألزاس واللورين . . . الخ ، كان يجب بحكم الضرورة أن تنضوى تحت لواء الوحدة الفرنسية » . ولكنه يلاحظ أن تاڤار - التى كانت مواليه لحكم الكابيت ، تتخطى حدود فرنسا الطبيعية ، الى الناحية الأخرى من جبال البرانس ، وهو عندئذ يتغاضى عن ذلك ، اذ أن هذا يعوضه غياب رسيللون من الناحية الشرقية لجبال البرانس.

ومن المفيد أن نصنف هذه الحدود الطبيعية . هناك أولا أذرع بحرية ومحيطية تحيط ببعض هذه الحدود ، ويبدو أن هذة أكثر الحدود بداهة ، وأحسنها على الاطلاق ، والحدود التى لا يمارى فيها أحد . وأما عن واقعة أنقسام بريطانيا الى عدد من المالك المتنافسة ، عدة قرون ، فهذه فضيحة تاريخية يحسن اسدال الستار عليها . بعد البحر - كفاصل طبيعى نجد

أن أهم الحدود الطبيعية فى دول غرب أوروبا ، هى سلاسل الجبال ومجارى الأنهار .

ومن الغريب أن تلك الحدود الطبيعية كانت تسيطر على دراسة الجغرافيا الطبيعية فى الماضى ، فلم تكن الجبال سوى « سلاسل » من المرتفعات، صعبة الارتقاء ، تنهض بين الأوطان كحوائط أقامتها الأقدار . ولم تكن الجبال فى نظر الباحثين سوى عوائق ، وحوائط ؛ فلم تدرس قط لذاتها ، وكانت تعتبر فواصل لا مناطق جديرة بالدراسة . ولنذكر هؤلاء الذين تحمسوا لفكرة الفواصل الجبلية ،والذين وصفوا البرانس وصفا مسهبا وأعجبوا بكونها المثال الذى لا يبارى للحدود الطبيعية « أبرز الظواهر الطبيعة ، وأبسط الخطوط التى رسمتها الطبيعة كأروع وأعظم ما ترسم »[1] ، لنذكر هؤلاء بأن جبال الأبنين تتوسط شبه جزيرة ايطاليا من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ولم تفصل بين جزئيها الشرقى والغربى ، بل أن الدويلات الصغيرة كانت تقوم عبر الجبال من الشرق الى الغرب ، كالحقيبة المتفتحة من الوسط فوق ظهر رجل قوى .

وقد أثر فى اظهار هذه النظرية ، ما كتبه بوش سنة ١٧٨٢ فى « مثال فى الجغرافية الطبيعية .. عن توزيع الأخشاب فى العالم » وفى رسالة جالوا « الاقاليم الطبيعية وأسماء الأوطان » ، وماتحدثوا فيه عن أحواض الأنهار ، التى تحدها مرتفعات جبلية ، تنصرف مياهها فى هذه الأحواض ، وكان لهذا

(١) جالوا (٣٤) ص ٣٠ وما بعدها

وأمثاله أثره فى ابراز أهمية الجبال فى تخطيط الحدود السياسية ، واذا لم تكن هناك جبال ، فلا بأس من الالتجاء الى أى نشز من الارض ، ليحل محلها ، دون تورع .

* * *

وكانت الانهار من — من أقدم الازمنه — تتبادل الاهمية مع سلاسل الجبال ، كحدود سياسية . وعندما تبدأ فى قراءة الصفحات الاولى من كتاب قيصر ، ذلك الكتاب صاحب الأهمية التاريخية الكبرى ، نجد أنه يحفل كثيرا بأهمية الأنهار كحدود للقبائل فهو يقول: يفصل نهر الجارون الغاليين عن الاكويتان ، كما يفصلهم المارن عن البلج (أو البلجيك) . Gallos ab Aquitanis Garumna flumen, a Belgis matrona et Sequana dividit. ويقول أن الجرمان تعيش على العدوة الأخرى لنهر الراين ، وهذا تصريح قديم هام ، كلف الأوروبيين أنهارا من الدماء لتأكيده أو تحطيمه ، ولقد ظلت الفكرة قائمة بعد ، وهى أن مجرى الماء: مها كان ضئيلا سهل العبور ، صالح لأن يكون حدا سياسيا ، وأن مجرى الماء — الذى لانتصوره على حقيقته ، أى جدول يترقرق بين المروج اليانعة — ولكنا نتصوره — كما يبدو فى الخرائط — خطا أو بالأخرى حدا بالضرورة . لا يمارى فيه ولا يجادل بشأنه وهذه الفكرة لا تزال قوية حتى وقتنا هذا ، بالرغم من الأمثلة العديدة التى تثبت أنها فكرة واهيه

ومن أهم الأمثله التى تدل على ثبات هذه الفكرة مثل قاطعات الحدود الفرنسيه ، من بدء الحرب العالميه الأولى فان أى قائد يريد أن يطبق على

عدد محتل لمصب وادى من الأوديه ، عليه أن يحيط به من كلا الجانبين ، الأيمن والأيسر ، اللذين يجب أن يكونا تحت قيادة واحدة ، يحمى أحدهما ظهر الآخر فى زحفه ، هذه حقيقة لاتحتاج لنقاش . ولكن للاسف كانت سبل الدفاع متأثرة بفكرة الأنهار كحدود فاصله ، بحيث تنقسم إلى أقسام ، يعهد فى الدفاع عنها الى كل قسم على حدة . ومن جانب واحد ، ليس هذا فقط بل كانت خطوط الدفاع تقام على جانب مجرى الماء . الذى لا يطمئن إلا فى قاع الوادى . وبذلك أهمل جانبى الوادى المرتفعين نفسيهما .

ولنأخذ مثلا جغرافيا آخر ، أورده هيوبرت ، الذى كان على رأس بعثة إلى داهومى يقول هذا المؤلف أن « الحقائق الجغرافية » كانت دائما تلعب دورا هاما « فى الحدود الطبيعية » فى منطقة نهر النيجر [1] . وقد استطاعت قبائل الجرما أن تصل إلى نهر النيجر من الشرق ، « تخطوا بذلك حدود قبائل السونراى ، ولكنهم لم يعبروا نفس النهر ـ وهو النيجر ـ الذى لم يستطع الفولا ، وهم حلفاء الجرما أن يعبروه أيضا . » وهكذا كان نهر النيجر فاصلا طبيعيا بين القبائل » وهناك مثل آخر من إحاطة أنهار كوفو ، تو ، ويمى والبحر بقبائل الفون (فى رأينا أو فى رأى الفون ؟) كما تحيط أنهار المارن والسين والأواز بجزيرة فرنسا . ولنعترف بالحقيقة وراء هذه الوقائع . ولكننا لا نزال نشك فى مسألة « الحدود الطبيعية » عندما نواصل القراءة فى نفس الكتاب « أما عن الأنهار ، فيما عدا النيجر ونهر الويمى الأدنى ، فإنها لا تكون أى خط دفاعى فى للفصل الجاف . عندما تجف

---

(١) هوبرت (١٨٣) ص ٥٤٤

وينصب منها الماء » [١] . وأكثر من ذلك ، فهل لا توجد قبائل نيجيرية تعيش على جزره . وعلى ضفافه من الجانبين ، بحيث لم يسكن النهر فاصلا بين منازلها ، بل معبرا ؟ فمثلا هناك قبائل الدندى التى تسكن على جانبي النهر، بين بيكيني وجازة وغيرها كثير .

ويعطينا المؤلف تفسيرا نفسيا وسياسيا للحقائق التى أوردها ، بعيدة كل البعد عن التفسيرات الطبيعية، ولا صلة لها بأثر العوامل الطبيعيه ، أو الحدود الطبيعية : ويورد هذه الأسباب فى ص ٥٤٥ من كتابه عندما يقول أن القبائل القوية عازفة - كما يبدو على أن تمد حدودها (التى اتسعت اتساعا كبيرا خطرا لا شك فيها بحيث لا تستطيع أن تسيطر عليها) وراء حدود جغرافية فعلية ، صنعتها أنهار اتا كورا ، والنيجروويمى ، وكوفو . وهذه ملاحظة معقولة جدا وتدل على حكمة فليس نقطة الخلاف هى ما اذا كانت بعض « الوقائع الجغرافية » كما يقول هيوبرت تتفق مع الحدود القبلية ، ولكنها فى دعوى وجود « حدود طبيعية » ذات أثر حتمى ، تفرض نفسها فرضا ، على الحركات البشرية ، ويفسر بها الحدود القبلية وغيرها من الحدود السياسية هنا - كما فى غير ذلك المكان - ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أفكار البشر ورغباتهم ، فبعض القبائل قد تحب أن تقيم نهرا أو جبلا كحد طبيعى لها ، وربما دفع بها الطمع السياسى أو الاقتصادى الى مد حدودها الى جانب دون آخر ، نحن دائما ندرس جماعات انسانية ، ويجب ألا نغفل مطلقا العامل النفسانى للأفراد ، بل وأكثر من هذا، للجماعات .

---

(١) نفس المرجع ص ٥٤٨

- ٣ -

خطوط حدود أم مناطق حدود؟

منذ أن بدأت الجغرافية تتحرر من قيود الأسماء والألفاظ ، وتؤكد مكانتها كعلم بين العلوم الموضوعية الأخرى ، بدأت فى نفس الوقت تناقش مبادءها مناقشة موضوعية. وتضعها موضع الشك والنقد لكى يثبت منها ما يثبت ويذهب منها ما يذهب، وكان من أول هذه المبادىء والأفكار العتيقة فكرة « الحدود الطبيعية » .

تدرس الآن ظاهرات الجبال والأنهار والغابات ، لذاتها ، كموضوعات خاصة ، وبذلك تفصح بالتدريج عن كنهها . وهى فى أغلب الأحوال حدود لا شك فيها ، كما أنها أيضا عوائق طبيعية ولكنها أيضا معابر ، ومراكز للتجمع والانتشار ، عوالم صغيرة لها قيمها الخاصة ، تجذب اليها الناس وتربط بينهم وبين الأقاليم التى تقع على جوانبها ، وعلى أية حال فهى ليست حدودا « بالضرورة » .

وقد تكون الأنهار حدودا ؛ ولكن من يستطيع أن يفصل الحقيقة عن الاوهام ، سواء كانت نفسانية أو سياسية ، فيما يتعلق بنهر الراين كفاصل بين الغاليين والجرمان كما قال قيصر ؟ أن مسألة الراين أكبر وأصعب من أن تحل فى هذا المكان ، ولذلك نكتفى بتسجيل وجودها. ولكن إلى جانب الراين ، من ناحية ، كم من « الادوية » من الناحية الاخرى سجل أهميتها

التاريخ ، كوحدات طبيعية ، يسكن الأقوام على جوانبها ـ وليس على جانب واحد ؟ ـ كم من الجماعات النهرية تعتمد فى حياتها على الأنهار و تستمد كيانها ووجودها و قوتها منها ؟

لقد وصف برون مجرى نهر الفولجا ، وهو يهبط من روافده العليا ، وأهميتها من وجهة النظر الجغرافية[1] ، ولم يهتم بالظواهر الجغرافية الأخرى غير النهر نفسه ويقول « أن النهر ظاهرة جغرافية فعالة ، تغير من طبيعة الاقليم الذى يشقه ويخلقه خلقا آخر ، فهو يشق واديه ويشق مجراه ونحن اذ نتتبع مجراه ، نعرف مجراه ، وواديه وشطآنه . ولا شيء غير هذا » فكل نهر عالم خاص صغير ـ سواء تحدثنا عن الأنهار الروسية الكبرى ، بشطآنها المختلفة المتناقضة الصفات ، أحدها منخفض ، رملى ، تغطية الشجيرات والأجمات ، ، كثير الجزر النهرية الصغيرة ، والمستنقعات ، والآخر مرتفع سريع الانحدار[2] أو كان نهر الساءون الذى يجرى فى واد متسع كثير المستنقعات ، أو نهر الراين وهو يجرى فى الألزاس فى منطقته ، وليس خطا مستقيما ، بل كثير المنحنيات والانثناءات ، فى منطقة مستنقعات ، وأجمات ، وجزر نهرية متعدد المجارى والأفرع المائية ، كثير الأخوار ، ولكنه أيضا كثير الخيرات ، من الأسماك ، والطيور المستوحشة ، وحقول

(١) برون ، (١١) ١٩٠٨ ، ص ٧٩

(٢) فيفر أقاليم فرنسا ، فرانش كو نتيه Revue synshése historque, Paris, 1905, p. 19

القمح .. هذا غير صلاحيته الكاملة للدفاع بين خنادقه المائية وأجماته[1] . وهذا ولا شك يدل على أنه طبيعة قائمة بذاتها فى الألزاس . ولكن خارج الألزاس ، كان النهر مفيدا جدا كحد طبيعى ، هذا إلى جانب حقول القمح فى مصاطبه الكبرى ، التى كانت مصدر ثروة للاقليم الذى يقع بين جزيرة فرنسا ، وتلال الفوج الامامية ، والكروم التى تعتبر أمرا جديدا بالنسبة للراين ، كما أنها أمر جديد فى برجانديا بالنسبة للساءون وأخيرا جبال الفوج ،الحليف الطبيعى لسكان الجبال وسكان السهل .

فهل يمكن أعتبار مثل هذه الجبال فواصل طبيعية ؟ انها منطقة طبيعية ، غابة ضخمة ، تنتهى بمدرجات رعوية واسعة ، مهمة لذاتها ، ولمصادر ثروتها ، التى كانت مصدر طمع السكان الريفيين ـ من أقدم العصور [2] ـ الذين يسكنون شرقها وغربها ، ولكنها منطقة لاتعيش حياة خاصة وحدها ، مقفلة داخل حدودها ، منعزلة عن غيرها ، فالجبال كما يقول تورنيرادمونت[3] بحق بالنسبة للألزاس ، مثل الأردن بالنسبة للوالون ، أو الجورا بالنسبة لاقليم رومانس أو الألب بالنسبة للرومانيين وراء ترنسلفانيا ، هذه الجبال مصدر قوة قومية لايستهان بها . « الفوج معبر سهل إلى السهول ، فهناك علاقة وثيقة ورابطة قوية بين السهل والجبل ، لا يساهم فيها نهر الراين ، فعلاقة السهل بالجبل أقوى من علاقته بالراين ، ولم تكن جبال الجورا قط ،

---

(١) Tourseur — Aumont, L' alsace et l' elémanie'paris 1919, p. 71.

(٢) بونيه (٨١٢) (٣) نفس المصدر

حاجزا[١] بين سهول سويسرا المرتفعة وبين جيرانهم الغربيين ، بالرغم من أنها تبدو خطا واضحا فى الخريطة ، يمتد بحافة شرقية ، تطل على بحيرات سويسرا وهضابها (اقليم هلفسيا القديم) وتواجه جبال الألب ، ولكنها كانت منطقة وثوب بين السويسريين وبين الكونتوا Contois فى الغرب ، يتحاربون ويتعاركون على امتلاك المروج الغنية والغابات التى تقع بينها ، وهى الشو ، والجو " Chaux " & " Joux " . أما فيما يختص بالبرانس ، هذا الحائط السريع الانحدار ، المستقيم ، المتصل البنيان » التى تشقها فتحة أو فتحتان ، ولكنه لايزال حائطا » يقول نفس المؤلف ، وهو مؤرخ لاخبرة له بالجغرافيا ، لو أمكن لنا أن نتصور حدا سياسياً بين امتين ، ثابتا ، غير قابل للزحزحة ، خلال القرون القليلة لتاريخنا القومى ، أليس هذا الحد هو جبال البرانس ؟ ولكن هذا ليس بصحيح ، على العكس ، ان تاريخ حد البرانس ، تاريخ معقد كثير الاضطراب » [٢] ونحن لاندهش من هذا التصريح ، ألم نتحدث من قبل ونردد قول كافاييه Cavaillés وماكس سور ، عن الاتحادات البرانيسية ، التى وحدت سكان أودية البرانس وجمعت كلمتهم فى مواثيق ومعاهدات ؟ [٣] . ألم نشر من قبل إلى هذه الحركات أو الهجرات الفصلية للرعاة ، وراء قطعانهم ، صعودا إلى الجبل ، وهبوطا الى الوادى ، فى الفصول المختلفة ، حركة منتظمة رتيبة ؟ أليس هذا يدل على أننا لانقر

(١) فيفر « أقاليم فرنسا . فرانش كونتيه » ص ١٩ — ٢١

(٢) كالميث ، سبق ذكره ، ص ٢

(٣) الباب الثالث ، الفصل الثاني ، أعلاه ص ٢٨٢ (من الاصل)

كثيرا فكرة الجبال « كحدود طبيعية » ؟ وهذه أمثلة قريبة المنال ، ولكننا لو نظرنا الى بقية أجزاء العالم لعز علينا أيها نختار وأيها ندع من وفرة الأمثلة التي بين أيدينا . ألم يبين سيون مثلا ، فى دراسته عن التبت الجنوبية (١) العلاقات التي اوثق رباطها الرعاة المرتحلون رحلات فصلية وراء الماشية ، بين السكان على جانبي الهملايا ؟ وألم يلاحظ دى مارتون نفس الظاهرة فى الكربات بين ألكوبجيك Cuijic والبلقان ؟

ويقال أيضا أن الغابات حدد طبيعية ،ولكن هناك الكثير من الدول نشأت فى قلب الغابات ، وقد ذكرنا من قبل المثل الرائع فى ظاهرة تكوين دولة وسط السهول ذات الغابات ، وهى دولة روسيا (٢)

وأخيرا أليست الصحارى المجدبة ، أيضا حدودا طبيعية؟ ويجيب على ذلك شودو الذى يعرف وسط الصحراء الكبرى وغربيها ، معرفة جيدة ، بقوله أن أجدب مناطق الصحراء ، التى لا يغطيها الا الحصباء والصخور لاتقف حاجزا منيعا أمام قبائل الصحراء، وبالرغم من أن الصحراء الكبرى نطاق عرضه ١٢٥ ميلا ، إلا أنها لاتتفق قط مع أى حدود سلالية ، وترتاد القبائل الرعوية العديدة ، المراعى شمال هذه المنطقة المجدبة وجنوبها » (٣)

وهكذا عدلنا أراءنا ، وذلك من مصلحتنا . نحن لا ننظر بعد إلى هذه

---

(١) سيون (١٩٦) ص ٣٢

(٢) الباب الثالث ، الفصل الأول ، ص ٢٠٧

(٣) شودو (١٦)جزء ٢٤ ، ٣ ١٩ ، ص ١٨٥

الظاهرات الجغرافية المعتمدة ، على أنها حدودا خطية . كما أننا أدركنا أن الحدود القديمة لم تكن مطلقا خطوطا ، بل كانت مناطق . فأوطان الغاليين ومدنهم لم تكن محاطة مثلا بحدود ثابتة ، مرسومة بخط ومعينة بشريط ، مثل الحدود التى تحيط بالدول فى الوقت الحاضر ، والتى يحتل السكان داخلها يتخاصمون على امتلاك أراضيها ، فالغاليون يسكنون مناطق آهلة بالسكان ، تفصلها مناطق غابات « [1] طبقا للعادات والتقاليد القديمة ـ مناطق حرام بين منازل بعض القبائل ومنازل البعض الآخر ، ولكن الغابات من ناحية أخرى لم تكن مجرد مناطق حدود ، بل كانت أقاليم ذات أسماء قائمة بذاتها ، فلما حدث أن زالت الغابات ظلت أسماؤها لاصقة بالقرى التى قامت محلها ، والتى كانت تنعم بحياتها ، فمثلا (فى غرب أوربا) براى أسم غابة ، ظل عالقا بعد ذلك بعدد كبير من القرى التى حلت محلها ، ومثلها فى فرنسا أيضاً ثيل Thelle الذى كان اسم منطقة غابات زالت من الوجود من زمن مضى [2]

* * *

وهكذا هوجمت فكرة الحدود الخطية من جانبين وتحطمت ، فقد عدلنا آراءنا الأولية ، وآراءنا العامة بحيالها ، واختفت فكرة الحدود الطبيعية ، ولم نعد نعترف بقيود لا مفر منها تضعها الطبيعة أمام الانسان ، أو تفرضها

(١) ديمانجون (٢٢٤) ص ٤٢٧
(٢) نفس المرجع ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩

الجغرافيا على السياسة ، فالانسان بكل بساطة يهيء نفسه لامكانيات ، وهذه الفكرة لاشك أسلم وأصح من فكرة الحدود الطبيعية . ولكن لا يزال لها عيب واحد كبير . أنها تفسح المجال للنهائية. وتحاول أن تقول الكلمة الفاصلة لمسألة لا تزال موضع جدل ، لأنها مسألة شرح لا تبرير ونحن لا نجد حتى الان سوى تبريرات .

نحن نبدأ من الحاضر، عندما نحاول أن نصور مراحل التطور الانسانى السابقة الطويلة ، ونفسرها ـ نبدأ من الحاضر على أنه نقطة ثابته، وليس على أنه لحظة مارة ونشرح الماضى كله على ضوء تجاربنا الحاضرة ، وتحت أسر هذا الحاضر نرفض الكثير من الامكانيات الكامنة التى قد يظهرها التطور المستقبل يوما ما ، ويلبسها الناس حينئذ ثوب الضروريات .

دعنا نأخذ مثلا تاريخ مقاطعة معروفة لنا ، وهى فرانش كونتيه Franche Comté ، فعلى حسب الجدل التاريخى المعهود : بتكوين الكونتيه من ثلاثة أقسام فرنسية ، وهذه هى الكونتيه الفرنسيه التى احتلت مكانها فى الاتحاد الفرنسى ، وقد بذلت محاولات عديدة لبيان أسباب ارتداد هذه المقاطعة عن الوحدة الفرنسيه ـ من حين الى آخر ـ فى فترات تاريخية سابقة ، وكالعادة أشير الى الأسباب الجغرافية التى أغرتها بذلك ، على أنها ضروريات طبيعية قيمة ، ثم لا يلبث الابن الضال الذى حاول الانفصال عن أمه الكبرى ، أن يرتد إلى أحضانها مرة أخرى ، وهذا هو المهم .

ولكن عنـــد ما يدرس مؤرخ الحروب البرغاندية والمشاريع العديدة التى تبعت تقسيم الكونتيه بين عدة أمراء ، ويدرس آراء أهل برن Berne عن غنى هذا الاقليم ، وعن حجج السويسريين التى قيلت مرارا وتكرارا عن الكونتيه على أنه كانتون سويسرى . ثم ينتهى بأن يقول لوأن نيقولاالديسباتش لم يمت متأثراً بجراحه فى بورنتورى . وهودون الخامسة والأربعين من عمره ولم يختطف الحظ السيء أخسن قــواد الكانتونات السويسرية لاستطاع أن يغزو الكونتيه ويضمه نهائيا إلى برن »[1] فأنه سيتهم فى تفكيره . وفى أنه يحاول تزوير التاريخ . ولكن أليس من الأفضل التحرر من الآراء السابقة . وأعادة كتابة تاريخ الماضى وتطور المقاطعات الفرنسية التى كونت الوطن الفرنسى . بحرية ونزاهة ؟

(١) Toutey, charles le Téméraire et la Ligue de constance, 1901, p. 225 ff.

(٣)

دور العوامل النفسية

نصل الان الى مرحلة ثالثة من التفسير. وليس فى التبرير بأى حال ومن المستحسن أن نقدم فى هذا الشرح فكرة المراحل المتتابعة التى تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا كبيراً. ولكننا لانقدم مطلقا شيئا نهائيا، فنحن لاندرس أقليما تتكشف صفحات تاريخه خلال العصور صفحة صفحة. والذى انتهى الآن إلى وضع معين، ولكننا لن نعرف هذه العصور ولن نعيشها. لأن ذلك فوق طاقتنا. ولن نلجأ الى دراسة باريس أيام لويس السادس عشر، ولن نلجأ الى تفسير مركزها أيام فيليب أغسطس أو الأمبراطور جوليان وأخيراً، وأهم من هذا كله، لن نقصر أنفسنا على بحث الاقليم الذى نحن بصدده، بل سنعالجه من حيث علاقته بالأقاليم المجاورة والتى يكون معها وحدة منسقة، وحقيقة فعالة باستمرار خلال التاريخ ويجب أن نتذكر أن غابة ما، التى كانت حدا أو موقفا دفاعيا، فى عصر ما، ربما أصبحت معبرا فى عصر آخر، ولن نحكم على الماضى على ضوء الحاضر وبالعكس لن يكون الماضى - فى دراستنا مفروضا على الحاضر، حتى ولو ألقى الضوء عليه، وهذا عمل شاق لاتنهض به الا الدراسات المختصة الدقيقة، وهو عمل يستحق كل تقدير وإذا أحسن القيام به سيتبين منه أثر العوامل الجغرافية على سير التاريخ. كما أنه يمكن الانتهاء منه إلى بعض العوامل الدائمة الهامة فى تشكيل تاريخ قطر ما.

ولكنا مازلنا بعيدين عن الاتجاه الذهنى الصحيح فى الدراسة الجغرافية التاريخية ، ولاتزال الآراء القديمة تتشبث ببعض الأذهان ، ولايزال الأسلوب القديم فى البحث مسيطر على بعض الناس ، ونتصور أحد المؤرخين بدأ بحثه مزودا بنظرية الحدود الطبيعية والحدود الخطية بين الدول . ثم تمسك بهذه النظرية وقام بأبحاثه على ضوئها . وكان يبحث مشكلة حدود البرانس . فهل كان يستطيع أن يصل إلى نتائج صحيحة من بحثه ؟ لامطلقا وهذا مثال لأحد هؤلاء المؤرخين فى هذا الموضوع « من الصعب أن نفهم التلاميذ فكرة الحدود الطبيعية فى دراسة اقليم سهلى منبسط مثل شمال فرنسا ليس به ظاهرات تضاريسية بارزة ، ولكن على العكس من ذلك بالنسبة لسلسلة جبال البرانس ، فهى المثل الصحيح للحدود الطبيعية »[1] وهنا نجد تحذيرا ، ففكرة الحدود الطبيعية « للكبار » فقط وليس للتلاميذ وليس العهد ببعيد عندما كان لونيون Longnon يجهد نفسه بحثا عن تحديد صحيح لجزيرة فرنسا ، وبعد أن قال أن حدودها من الجنوب المارن والسين ومن الغرب الأواز ، لم يجد لها حدودا مميزة من الشمال والشرق لكى يقفل الشكل الرباعى ، فلجأ إلى جدولى الثيف والبفرون الضئيلين .

وبعد هذا ندهش عندما نجد فى كتابات علماء اللغة ما يضحك ، ويملأ القلب أسى فى الوقت نفسه ، ثم ينتهى بهم المطاف إلى الاعتراف ـ مندهشين

(١) كالميث ، سبق ذكره ، ص ١

أن هناك وحدات جغرافية محددة لا تنطبق حدودها ، على حدود انتشار اللغات أو اللهجات ، التي كانوا يحاولون تفسير توزيعها . فيكاد يصل بهم اليأس الى الاعتراف بفشل الجغرافية ، التي غرست فى عقولهم (١) نظرية حتمية معينة ، أو بعبارة أخرى فشل جبرية الظروف الطبيعية . والواقع أنه مجرد وجود خليج نهرى أو نهر أو سلسلة جبال ، لا تكون حدا لغويا . لا ينطوى مطلقا على أى اتهام للجغرافيا ؛ التى لا تعترف الآن لحسن الحظ بتأثير العوامل الطبيعية ، مثل التضاريس أو نظم توزيع المياة وتصريفها على النشاط البشرى المعقد . فجبال البرانس مثلا ليست حدا لغويا وليست الألب أيضا ـ فى أى مكان فيها ـ حدودا لغوية كذلك (٢) ، ومثلها أيضا مصبات اللوار والسين وماذا تقول الجغرافيا إذا كانت الجبال أو الأنهار ليست حدودا طبيعية ، أنها تقنع بأن هناك احتمال أن تكون كذلك ، الجغرافيا على حق فى ذلك ، فهى لا ترتكب الأخطاء ، انما يرتكبها اللغويون عندما يتحدثون فى الجغرافيا .

وبمعنى آخر ، يبدو أن كل وحدة تاريخية ، أو كل مجتمع منظم ، كان بطبيعته أو بحكم الواقع شخصية جغرافية فى الماضى . ونظرتنا لحسن الحظ أعم وأشمل . ففى شمال فرنسا توجد ثلاثة مقاطعات بيكاردى وارتو وكامبريسيس . ولكننا نمر من بيكاردى إلى أرتوا ومن أرتوا إلى كامبريسيس

---

(١) فيفر « التاريخ واللغويات » (١٧) الجزء ٢٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٣

(٢) Dauzat, Essai de méthodologie linguistiqne, 1906, p· 221

دون أن نخالط أى فرق فى الظواهر الطبيعية ، كلها أقليم واحد متشابه فيه الحقول والجداول والقرى، اقليم واحد من الناحيتين الطبيعة البشرية ، بنيتها واحدة وتكوينها واحد [١] ، فهى إذن ليست وحدات جغرافية ، ولا تزعم الجغرافيا أنها كذلك ، فالوحدة الجغرافية لا بد أن تتميز بميزات خاصة تميزها عن غيرها ، هذه قاعدة عامة ، مثل اختلاف فى مظاهر القرى ، اختلاف فى حقول القمح هنا ، والمراعى هناك ، وجود فاصل طبيعىّ بين كل مقاطعة وأخرى ، وليس مجرد خط يرسمه جدول أو نشز من التلال هذا مالا يتورط فيه جغرافى قط .

بعد هذا يبدو أن مشكلة الحدود قد اتخذت شكلا آخر ، وا كتسبت أهمية خاصة . فهى لم تعد مسألة البحث عن خطوط ما بأى وسيلة ، كلا بل الحد الطبيعى هو الذى يميز بيئة عن أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى ، فى المظهر الطبيعى والنشاط البشرى ، فليس الحد هو المهم ، بل ما هو داخل الحد نفسه .

ولنضف كلمة أخرى ، لاتقل أهميةعن تتبع تاريخ الحدود ، فعنصرالزمن هام جدا ، ولاينبغى مطلقا أن تناقش الحدود على أنها ظواهر ثابتة لها صفة الدوام ، فبعضها أملته الظروف الجغرافية املاء على الانسان فى بادىء الأمر مثل حدود الأبرشيات الدينية الفرنسية ، التى تبعث حدود المدن الغالية

---

(١) ديمونجو (٢٢٢) سبق ذكره .

الرومانية ، وهـذه كانت تتبـع حدود المـدن الخاليـة ؛ وهـــذه فى النهاية قد حددتها العوامل الجغرافية . مثل الغابات · والمستنقعات . والعقبات والحواجز الطبيعية الأخرى . فكل من يدرس حدود هذه الأبرشيات ينتهى أخيرا الى حدود جغرافية معينة . ولكـن على وجه العموم هذه الحدود قد فقدت مميزاتها الطبيعية بسرعة ، وأصبحت مجرد خطوط تفصل بين أناس وأشياء يشابه بعضهم بعضا وتتداخل بعضها فى البعض . ثم تعددت الحدود الإدارية الاقليمية ، بفعل تعاقب الحـكومات المختلفة ، كل حكومة تضيف جديدا وتمحو قديما وهكذا حتى أصبح من العسير التعرف الى الحدود الابرشية القديمة ، فعدت أرتوا حدودها الجغرافية ، كما لم تعد كالية السفلى أو السوم وحدات ادارية ذات حدود جغرافية [1] والواقع أننا يجب أن ننفذ ببصيرتنا إلى ما وراء الحدود المادية ، فهى ليست الا رموز ونبحث عن الرغبات والمعتقدات والعوامل النفسية البشرية وراء اقامة هذه الحدود وقد كان راو على حق عندما قال أن الشعب عندما يقيم حـدا سياسيا ، فانما هو فى الواقع يقيم حدا لأطماعه ورغباته فى التوسع والانتشار [2]. ومن الممكن الاعتداء على أى حد «طبيعى» ، فالبحر لم يمنع وليم النورماندى من مهاجمة هارولد الساكسونى فى قلب جزيرته ؟ فما بالنا بالحدود الأخرى ، التى لم تلق أى احترام من جانب المعتدى .

---

(١) ديعانجون (٢٢٤) ص ١٢٠

(٢) راو (٢٦) ص ٦٣

ويعطينا جوتيير [1] فى كتابه الصغير عن الصحراء مثلا رائعا ؛ لحدود بيشار التى أمرت الأدارة الفرنسية باقامتها فى الصحراء ، ثم لم تلق الا كل هزء وسخرية من جانب القبائل المشاكسة .

(١) جوتيير (١٨١) ص ٧٠

— ٤ —

الدولة لا توهب ولكنها تصنع

لايهم كثيرا الاطار الخارجى للدولة أو الحدود، انما المهم هو ما داخل الاطار الذى يجب أن ينال أكبر عناية ، بمعنى آخر يجب أن تدرس مسألة الحدود من الداخل ، وليس من الخارج . كذلك الحال عند دراسة الدولة ، يجب أن نميز بين أمرين وندرسهما بكل عناية ، الأول النواه التى تكونت حولها الدولة ، والثانى مكانتها الاقتصادية .

لا توجد دولة اقليمية لم تتكون أصلا حول نواة ، أو مركز نمو جغرافى ؛ بل وليس هناك وحدة سياسية عريقة ، لم تتكون فى الأصل حول مركز ، كان كالنواة الصلبة ، التى تجمع حولهـا بقية الأجزاء ، أو الهيكل العظمى الصلب الذى يكتسى بعد ذلك باللحم والدم . ونقول أن الدولة تمثل « تكتل عدة قوى » ، وقد كتب . فيدال دى لا بلاش من قبل سنة ١٨٩٨ فى إحدى مقالاته عن الدولة « بأنها نواة صلبة تنضم اليها الأجزاء الأخرى. بعضها أثر بعض . كتكون البللورة حول نواتها » (١) وينتهى بقوله أن الدول تشبه الأجسام الحية ثم يقول ـ « بعد ذلك نه من المهم أن يجهد الجغرافى نفسه فى البحث عن النواة الصلبة التى تجمعت حولها الدولة ، وعن القوة الباطنية . التى دأبت على أن تكون مركز الجذب » .

---

(٤) فيدال (٩٥) ص ١٠٨

لاحظ فيدال فى بدء تكوين جزيرة فرنسا . وبراندنبرج . ودوقيه موسكو ، وولاية نيويورك . « نشاط ظواهر محلية معينة ، كان لها ، شيئا فشيئا ، قوة التركيز والجذب فيما حولها ».

وبهذا لاحظ فيدال خطر التعبير عن « نواة صلبة » . فالجرثومة الأصلية التى نمت وكونت الدولة ليست مطلقا وحدة طبيعية ذات ميزات جغرافية قوية ، ينبغى على الجغرافى أن يبحث عنها فى كل دولة من الدول المعقدة فى الوقت الحالى . فليس هناك دولة ، مهما كانت صغيرة المساحة . يمكن أن تحلل حتى تنتهى فى أصلها إلى إقليم واحد معين . بالمعنى الذى حدده جالوا[1] والدليل على ذلك موجود فى مثل فرنسا ، وأقاليمها المثالية . التى يختلف بعضها عن الآخر اختلافا قويا مميزا ، وبالرغم من ذلك فسنرى أن هذه الاقاليم لم تكون قط وحدات تاريخية .

فمورفان [2] مثلا لم تظهر قط كدولة . بل ولم تكن قط وحدة إدارية ومثلها فى ذلك مثل برى وبوس وليمانى. ولم تكن وحدتها الطبيعية الصغيرة مقاطعة أو وحدة سياسية تاريخية مستقلة . وبالرغم من هذا فقد لاحظ الناس — فى كل العصور — انفرادها بميزات معينة ، لايزال لها مركزها فى النشاط الاقتصادى . بنشاطها الزراعى الخاص . ومظهرها العام ، وأسس الحياة الاقتصادية التى يمتاز بها هذا الجزء المنفصل عن الكتلة الجبلية الوسطى هذا الاقليم الجبلى بظواهره الطبوغرافية الممزقة ، وتربته الفقيرة ، ومناخه

(١) جالوا (٣٤) (٢) ليفينفيل (٢٢٥)

القاسى . ومعابره الوعرة ؛ وحياته الريفية . أى أنه من الصعب تكوين دولة فى اقليم لا يمتاز بالتنوع — أى فى وحدة متجانسة — وتبدو هذه الصعوبة أكثر وضوحا كلما بعدنا فى الماضى . عندما كانت الدول تبحث جاهدة للوصول إلى درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتى . وهذا يستدعى أن تشتمل حدودها على عدة اقاليم متنوعة فى التربة وفى الانتاج . وتتكون الدول الكبرى من تجمع أجزاء عديدة من عدة أقاليم طبيعية نباتية . يكمل بعضها بعضا ، ويرتبط بعضها بالبعض الآخر فى وحدة سياسية جديدة .

أن فعل الانسان فى عالم السياسة شبيه إلى حد كبير بفعله فى عالم النبات فهو كما قد حطم المجتمعات النباتية. وكون من عناصرها الممزقة ، تكوينات جديدة . تلائم حاجاته — هى الحقول والمروج . مزق الوحدات الطبيعة وكون من عناصرها الممزقة وحدات سياسية جديدة وقد أشرنا كثيرا إلى قيام دولة كونتيه . وإلى التوافق البديع فيها بين السهول والجبال. بين حقول القمح والكروم وبين الغابات والمراعى. التى قامت فيها هذه الدولة من زمن واستمرت عدة قرون[1] وقد ميز كاميل جوليان أيضا فى تاريخ الغال[2] بين الاقاليم التى تسكنها قبيلة واحدة - وحدات زراعية أصلا ، تحدها الغابات والمستنقعات والجبال وتحميها - وبين أقاليم أخرى شديدة التعقد . تكون وحدات اقتصادية ودفاعية وتتكون من أراضى وأقاليم متكاملة .

( ) فيفر ، [illegible] ١٩١١ ، ص ٣٩

(٢) [illegible] (١٧٢) الجزء الثانى ص ٣٠

سهول وجبال وغابات وأراض زراعية . تنفتح على طرق واحدة وتنتهى إلى وحدة واحدة . تساند بعضها بعضا . وتجد أنه ينبغى لها أن تتفق وتتحد لتبادل المصالح والسلع والمنتجات والدفاع المشترك. بمعنى آخر مجتمعات تتبادل المنفعة والحماية وتكون وحدة طبيعية وروحية تجعل منها بنيانا واحدا قويا . وهذه بعض الأمثلة التى تبين أن الإنسان لم يكتف بالموقف السلبي فى فى تكوين الدول ، وفى ترتيب حياته المادية .

والنتيجة لهذا أنه لابد من وجود بعض الأماكن عل الأرض ، مهيأة خصيصا لميلاد وحدات سياسية حية . أو أقاليم معدة لوصولها الى مرحلة النضوج .

وعندما نتأمل خريطة للعالم نجد أن هناك فعلا أمثال هذه الأقاليم، كما قد أشرنا مقدما ، على حدود الاقليم الطبيعية الكبرى (السهوب والسافانا ، والغابات الاستوائية) وعند نقط تقابل هذه الأقاليم . وقد حدث هذا فى آسيا ، عندما كونت النطاقات التى تحد السهوب الوسطى مراكز للنشاط السياسى ؛ هذه النطاقات شهدت تذبذب قوة البدو وضغطهم على القبائل المستقرة ، التى شرحنا حياتها من قبل .

وحدث هذا فى افريقية ، حيث كانت أجزاء السودان المختلفة ، فى ماضيها المضطرب ، مواطن لتكوين عدة دول متتابعة . تمد نفوذها من الصحراء شمالا إلى الغابات الاستوائيه جنوبا . وأخيرا حدث هذا فى أمريكا

أبان حضارتها القديمة السابقة للكشف الكولومبي ، بميزاتها الخاصة القديمة .

* * *

على أية حال ، يجب ألا نذهب بعيدا ، ونضع حدودا للاستدلال القياسي . حتى ولو كان دقيقا صحيحا . لأن ما يصدق على الدول فى مرحلة معينة من مراحل تكوينها ، ومن نوع معين من أنواع التكوين لا يصدق بالضرورة على دول أكثر عراقة ، وأشد تعقدا فى تكوينها . والانتقال من الدول الاقليمية الضيقة مثل فرانش كونتيه وبرغانديا واللورين إلى دولة قومية كبرى مثل فرنسا لم يكن سهلا خاليا من العقبات . ولم يكن مماثلا للانتقال من الأوطان (الباجى) الغالية . أو المقاطعات التى كانت تحتلها القبائل , اى مناطق نفوذ الأمم الكلتية الكبرى . ومن الواضح أن الطريقة التى اتبعت فى كل حالة . كانت مخالفة للوسيلة التى اتبعت فى غيرها ، وليس من السهل تفسير كل حالة على أساس اتحاد أقاليم متكاملة لتكوين دولة مكتفية بذاتها .

وبعبارة أخرى لكل مشكلة عناصرها الجغرافية الخاصة . الى جانب عناصر بشرية أخرى . مثل العوامل العاطفية التى تتداخل وتلعب دورا يكسو المصالح الاقتصادية والروابط الجغرافية بلون خاص وقد لاحظ دركايم مثلا معينا . وهو الرباط الروحى والمعنوى الذى يربط أجزاء الدول الكبرى مثل روسيا . وانتهى [1] إلى أن الدول يرتبط أجزاؤها

---

(١) دركايم (١٧) ١٩٠٢ — ١٩٠٣ — ص ٤٤٩ — ٤٥٠

بعضها بالبعض الآخر بعاطفة معنوية ، تجعل أفراد مجتمعاتها يعتقدون أنهم من أصل شعبي واحد. وأن هنـــاك قرابة أثنوغرافية تربط بعضهم بالبعض الآخر . واذا حدث وأن تفرق شملهم ، فانهـم سيظلون يذكرون الماضي الذى جمعهم فى وحدة واحـــدة يوماً ما . وتصبح عاطفة الوحدة المعنوية مجرد صدى لحادث بعيد . ولـكنها عاطفـة قوية لا يخبو أوارها فرابطة السلالات الـكبرى وجدت منذ وجدت المجتمعات السلافية . وعاطفة الوحدة الجرمانية أو الوحدة الهلينية . صدى لماض بعيد .

ولا شك أن هذه الفـكرة ستوضح كثيرا من الحقائق الغريبـة . مثل وجود عاطفة الوطنية الغالية العارمة بين قبائل الغال المتحاربة المتنـابذة . ولـكنها برزت ووضحت أيام Vercingotorix ولـكننا يجب أن نحـذر ولا نغالى وراء أراء دركايم والا فاننـا سننتهى الى التقليل من أهم العوامل الجغرافيه فى تـكوين الدول ونشأتها وسنعود ألى ذلك بعـد قليل . ولـكن لاريب أن العوامل الجغرافيـة فى تـكوين الدول الـكبرى ليست من طراز العوامل الجغرافية فى تـكوين المقاطعات الصغيرة ولنأخذ ملاحظة دركايم على أنها مجرد ايحاء الى وجود عوامل أخرى بجـانب العوامل الجغرافية . كما أنها تعيننا على تفهم ما سبق أن قلناه عن تجمـع البشر فى تجمعات بشرية كبرى . كما أنها تجذبنا إلى الوقوع فى الأوهام الاجتماعية التى لا تعتبر الظاهرات الاجتماعية الا مجرد سلسلة من الاضافات تجرى كما يلى :

رجل وامرأة وأنجال = أسرة ، أسرة مضافا اليهـا أسرة مضافا اليها أسر = قبيلة . قبيلة مضافا اليها قبيلة : مضافا اليها قبائل أخرى = شعبا .

شعبا متحدا = أمة كبرى أى تكوينات تحدث بمجرد التكاثر والتجمع وقد بينا من قبل خطل هذا الرأى[1] ولكن هذا الخطأ قـــديم. ولذلك فهو يطفو على السطح دون أدنى مجهود .

(١) أنظر أعلاه الباب الأول ، الفصل الثالث

٥

أقاليم الدولة الطبيعية

يجب مقارنة تلك التكوينات المتخصصة الكبرى ، التى لم تظهرها قوى الطبيعة ، بل عقل الانسان ، بتكوينات مشابهة لها . ولذلك نستطيع أن نقول ، بل يجب أن نعترف بوجود أقاليم طبيعية للدول الكبرى « على وجه الأرض » . ونحن هنا لا نشير إلى نطاقات خاصه ، أو الى وحدات سياسية بسيطة . من السهل تحليلها . بل الى قوى سياسية وفكرية ومعنوية كبرى (١) .

لا تعيش الوحدات السياسية الكبرى منعزلة بعضها عن البعض الآخر منكمشة داخل حدودها . غيورة على كيانها وراء السدود والحدود (٢) . ولكنها تعيش فى غمار التيارات الدولية . داخل بيئات اجتماعية متداخلة تشملها جميعا . كل منها فى حالة تكون وانحلال مستمرة . تنفصل من كل بعض العناصر لتكون دولا أخرى مجاورة . وبالعكس يضاف إلى كل بعض العناصر تمتصها بدورها . وتتمثلها فى كيانها وهناك حركة تبادل مستمرة فى السكان . وفى الآراء وفى العواطف وفى المعتقدات . وبهذه الطريقة

---

(١) فارلى دركايم (١٧) ١٩٠٦ ــ ١٩٠٩ ، الجزء ١١ ، ص ١٧

(٢) ماير (٨١) فقرة ٤٠ ص ٨٧ ، مناطق الحضارات ، وأيضا نفس المرجع فقرة ١١١ ، ص ٢١٥

تتكون وحدات سياسية أكبر باستمرار . تتبادل المنافع والمصالح . وتميل إلى أن تزداد قربا وتشابها بعضها بالبعض الآخر . وتكون مناطق الحضارات الكبرى . أو العوامل الكبرى . ذات المسميات العامة والمفهومات الغامضة الشاملة . مثل العالم الشرقى والعالم الاسلامى والعالم الاسيوى .

هناك مد وجزر . دفاع وهجوم . الشعوب تزداد قربا بعضها بالبعض الاخر . يوما بعد يوم ، يقلد بعضها بعضا ، ويؤثر بعضها فى البعض . ويتخذ بعضها بعضا أسوة ومثالا . وينهج بعضها نهج بعض . وينشر بعضها مدنية بعض . ويهضمها ويتمثلها وبذلك تخف حدة الخلاف بين بعضها والبعض . ولكنها فى نفس الوقت ، تقبل جاهدة على أن تفصل بعضها عن البعض الآخر . وتغير على جيرانها . وتنمى ملكاتها الخاصة ومواهبها المعينة وتحافظ على طابعها القومى المميز . ولا ريب أن الصراع الدائم بين هذين التيارين أو الحقيقة الكبرى فى التاريخ .

ولكن أى التيارين يرجع أكثر من غيره الى الظروف الجغرافية ؟

يقول راتزل أن التيار الثانى هو الذى يرجع الى الظروف الجغرافية ، وأن شخصية الدولة نتيجة تلك الظروف . ومن العبث الجدل فى هذه المسألة . ولا حاجة بنا إلى أن نعفى العوامل الجغرافية من دراسة التيار الأول أو التيار الثانى . ولا حاجة بنا إلى أن ندعى أنها قوية بالنسبة لأحدهما دون الآخر ومن الخير أن ندرس كلا منهما دون التأثر بفكرة سابقة . وعلى كل حال فقد رأينا أن العوامل الجغرافية كان لها أثر فى كل التيارين على حد

سواء ، ولاحاجة للتنافس بين عالم الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس أو الجغرافيا على اثبات وجهة نظره فيما يختص بدراسة الجماعات البشرية . فالبشر لايستطيعون أن يتخلصوا تماما ، مهما جاهدوا ، من أثر البيئة على حياتهم . والانسان مدركا هذه الحقيقة ، يستغل الظروف الجغرافية بقدر الامكان ، طبقا لمصالحه . ويستفيد بقدر الإمكان كذلك من الإمكانيات الجغرافية . ولكن هنا أيضا لامكان للضروريات .

الفصل الثاني

النقل : الطرق

تتكون الدول بشكل يتضمن وجود طرق ووسائل مواصلات تربط أجزاءها بعضها بالبعض الآخر وإلا فكيف يستطيع الناس أن يرتبط بعضهم ببعض عبر الاقاليم الطبيعية المختلفة التى تتكون منها الدولة .

ويبدو لأول وهلة أن وجود شبكة من الطرق يدل على تعاون وثيق بين النشاط البشرى والطبيعة ، وأن تركيب الاقاليم نفسه وتضاريسه ومظاهره الطبيعية ترسم طرق المواصلات خلاله ، وبعبارة أخرى أن مسألة الطرق والمواصلات مسألة جغرافية . على أن الجغرافيين الذين تنافس آراءهم وننقدها لم يلقوا ضوءا كافيا على هذه المسألة . ولاسيما اتباع راتزل الذين لم يولوها كبير اهتمام . وهؤلاء وقفوا جهودهم على دراسة حركات الشعوب . وهم أثناء ذلك قد سنحت لهم الفرصة دون شك للاشارة الى أهم واد من الوديان أو معبر من المعابر . أو ممر من الممرات الطبيعية . أو غيرها من المسالك الطبيعية التى عبرتها الشعوب وربما أشاروا إلى وجود بعض العوائق الطبيعية الأخرى كالصحارى أو الجبال التى تجنبتها طرق القوافل أو الجيوش الغازية . ولكنهم لم يدرسوا تلك الممرات لذاتها . بل لمجرد كونها ممرات واسعة تسمح بهجرات شعوب كاملة ، على

نطاق واسع وهم لايلقون بالا الى طرق المواصلات الثانوية الصغيرة . اللهم الا فى حالات شاذة . اذا كانت تعتمد اعتمادا كليا على الظروف الطبيعية والسبب فى ذلك أنهم غيورون على اثبات نظرية معينة رسخت فى أذهانهم ومن ثم كانت طريقة بحثهم فقيرة فى نتائجها . عقيمة فيما يمكن أن تنتهى اليه من آراء .

١

الطريق وطبيعة الأرض

لسنا محتاجين لكبير جهد لكي نثبت أن السهول ، على اختلاف أنواعها في مختلف العصور ، تفسح أحسن مجال للحركة والانتقال . بينما الأنهار الكبرى والجبال والصحارى والبحار عوائق كبيرة للحركة . ولكن يجب ألا نعتمد كثيرا على القوانين العامة . فهنا أيضا يجب أن نحترس من التعميم فالشعوب الماهرة فى الملاحة لاتعد الأنهار عوائق أمام حركتها ، أنهم سرعان ما يقبلون على استغلالها واذا كان الشعب ميالا للتجارة والقوافل ، فان الجبال لن تقف فى سبيل نشاطه . بل أن أهميتها ستتراوح بالنسبة له حسب الظروف . هذا غير ما قد يثير بعض الشعوب ، لظروف خاصة ، نحو اقتحام العقبات وارتياد الفيافى المقفرة مضطرين . كما أن الكشوف العلمية قد تقلب العادات رأسا على عقب . فطرق جبال الألب الطبيعية أصبحت لاقيمة لها أمام السكك الحديدية عبر الانفاق . ولكن استعمال السيارات فى النقل أعاد لهذه الممرات الطبيعية أهميتها من جديد . وهكذا حدث تحول فى استعمال الطرق . رغم بقاء الظروف الطبيعية على ماهى عليه . وهكذا لا نجد أنفسنا أزاء ضروريات بل امكانيات فعلية .

وما هى الوسائل التى تستعمل فيها الأنهار ؟ لايهم أن كان النقل بالقوارب أو بالارماث أو أن كان من الممكن الانزلاق عليها بالزلافات

فى الشتاء ، أو إن كانت آهله دائما بالسكان . مثل الوديان التى تشق المرتفعات . أو الوديان التى تقطع الصحارى . وتمد المسافرين بمورد الماء الوحيد لهم فى تلك الفيافى ؛ ولهذا كان النيل والفولجا الأدنى والارتش والسند والنيجير بل والأمازون طرقا طبيعية . اذ من الصعب السفر فى تركستان الا متتبعين نهرى سيحون وجيحون . وكان على لفنجستون أن يتتبع مجرى وادى ماكوكو الجاف . الذى تنبثق منه العيون ، لكى يخترق المسافة بين نهر أورانج وبحيرة نجامى . كما أن نهر سانت لورنس والبحيرات العظمى كانت وسائل ميسرة لاختراق أمريكا الشمالية من المحيط الأطلسى حتى سهولها الوسطى . هذه أمثلة قليلة مما تحت أيدينا من أمثلة . يقدمها لنا تاريخ الكشوف الجغرافية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ومن الامثلة أيضا على ذلك الطريق الطبيعى الذى يشقه نهر هدسون وفتحة موهوك فى أمريكا الشمالية .

كما أن الوديان التى تشق المناطق الجبلية ، تحدد السبل الطبيعية لاختراقها . فالممرات الجبلية تجذب اليها الطرق البعيدة . بل أن طبيعة الأرض نفسها تحتم اتخاذ سبل معينة . وتجعل من المستحيل أو المتعذر اختراق نطاقات معينة . كما تحتم اختراق السلاسل الجبلية من منافذ معينة فمثلا لايمكن الانتقال من فرنسا إلى أسبانيا الا عبر ممرات معينة فى شرقى البرانس وغربها . وليس فى وسطها . ويتعذر اختراق جبال الألب فى بعض مناطقها حيث تقف بعض سلاسلها حائلا دون اختراقها . مثل المناطق التى تقع بين ممر جريمبل واعالى الدون . وبين ممر سمبلون وسان برنار الكبير .

وهذا يفسر لماذا لم تختف الممرات الكبرى خلال التاريخ ، فطرق الألب خلال العصور القديمة وخلال العصور الوسطى [1] كانت أيضا تتبع أعالى الراين . وكوار ، حتى تصل إلى حوض الدانوب عن طريق نهر ألم . وكان ممر البرنر الطريق الذى سلكه الكمبيرى والتيوتون . وطريق الأباطرة إلى ايطاليا لأجل حضور حفلات التتويج أو للمناسبات السياسية . ومنذ عهد الرومان ، بل قبل عهدهم كذلك بكثير كانت معابر الألب بين ايطاليا وبلاد الغال ، هى نفسها المعابر التى تسلكها السيارات فى الوقت الحاضر ؛ وكان طريق اورليا Aurelia يخترق الكورنيش وكان ممر جبل ماترونا (جبل جنيفر الحالى) يصل بين دورا ريباريا والدورانس . وكانت موجات المدنيات المختلفة تنتشر الى شمال فرنسا وشرقيها عن طريق ممر سانت برنار وطريق فاليه الأسفل Bas — Valais وسانت موريس داجوم ـ مفتاح الطريق الهام الذى يصل سواحل بحيرة جنيف وفتحة بونترليه Pontarlier

ويمكن تفسير أهمية ممر خيبر التاريخية وبوابة هيرات وممر داريال كما يمكن تفسير أهمية فتحة بلفورت التى يسميها فيدال دى لابلاش بوابة برغانديا ، بنفس الطريقة . [2]

---

(١) Maillefer, " Les routes romaines en Suisse " Revue histor. vaudois, 1900, Oehlmann Die Alpenpasse im mittlelale, jahrb. f. schweizer Gesch, 1900, iii, p.p 164 - 89, iii, pp. 3 — 324

(٢) فيدال (٣٢) ، ٢٣٤

وفى الحقيقة ، عندما يريد الناس أن ينشئوا طرقا للمواصلات . فانهم لايجدون خيرا من الالتجاء إلى الطرق القديمة التى كان يسلكها أسلافهم عبر الجبال أو متتبعين مجارى الأنهار . ومن أمثلة ذلك قناة ايرى التى تتبع فتحة الموهوك . والقناة التى تصل بين الراين والرون . والخط الحديدى الذى يمتد من موطاوس وليون والذى يعبر بوابة برغانديا الطبيعيه . كما أن الرياح السائدة والتيارات البحرية قدلعبت دورا كبيرا فى قصة الأمم البحرية وعينت الطرق التى سلكتها سفنهم . وهذا تفسير هجرة الاسكيمو وغيرهم من العناصر البشريه . فى فترات تاريخية معينة الى أوربا . يحملهم تيار الخليج الدافىء . ووصلت قبائل هندية ملاجيسيه الى مدغشقر ، تدفعهم الرياح الموسمية . وتقدم رحلات البرتغال الكشفية عبر المحيطات . وانتقالهم من جزيرة إلى جزيرة ، كل هذا يفسره اتجاه الرياح السائدة .

* * *

إلا أن هذا كله لايصور إلا احتمالات ، فالبشر ليسوا سلبيين باستمرار فهم الذين كيفوا الطرق الملائمة لأغراضهم المختلفة ، حتى ولو كانت طرقا قديمة مطروحة . فهم عدلوها ومهدوها لكى تتفادى الأخطار وتجنبهم المشاق . فمثلا كان فيضان نهر ايزير مانعا دون انشاء طريق يسير فى بطن الوادى ، عند مستوى جرينوبل ، ولذلك أنشأ الرومان طريقهم فى منتصف المنحدر عبر منحنى كاسك دى نيرون . كما لوحظ وجود عدد كبير من ثعابين البحر التى تصعق الخيل بتيارات كهربائية تبعثها ، عندما تحاول الخيل

عبور أحد الجداول الصغيرة ، ولذلك عدل الطريق عبر سهوب urituca [1] كما أن هناك طرقا للشتاء وأخرى للصيف ، فى المرتفعات وفى الجهات المسطحة المنبسطة ، ففى شمال ألمانيا تتبع الطرق الجيست فى الشتاء والمارش فى الصيف [٢]

هذه تعديلات طفيفة للطرق الهامة . تعتمد اعتمادا مباشرا على الظروف الطبيعية ، ولكن الانسان يعمل جاهدا لتحرير نفسه من الرباط الثقيل الذى يربطه ببيئته ، أو على الأقل أنه لايختار دائما نفس الاحتمال الواحد ، من بين عدة الاحتمالات المبسوطة أمامه . فما دام الانسان يستعمل حيوانات النقل والجر فلا حاجة به الى طرق واسعة ، وبذلك يقتصر نشاطه على ايجاد أقصر الطرق بين نقطتين ، وتحاشى الأرض الوعرة والمخاضات النهرية العديدة . ولكن الطرق التى تسلكها العجلات تستلزم صفات أخرى ، منها أن يأخذ المهندس فى الاعتبار مسألة الانحدارات . التى تصبح أهم مشكلة له وخصوصا لتيسير النقل فى فصل الامطار . وتختلف الطرق أيضا باختلاف السرعة التى يتوخاها الانسان ، فاذا كانت تلك السرعة بطيئة ؛ فلا بأس من شق طرق ضيقة ، أما اذا كان الانسان يتوخى السرعة فى اختراقها فلابد وأن يكون الطريق متسعا ، معتنيا به ، متسقا فى انحدارات محتاجا لمهارة هندسية أحسن . فالامكانيات إذن تختلف من طريق الى آخر حسب رغبات الانسان المختلفة .

---

(١) همبولدت (٧٢) مجلد ١ ؛ ٢٩

(٢) راورز فى (١٣) الجزء ٥٢ ، ١٩٠٦ ، ص ٤٩ — ٥٩.

على أن من المعلوم أن مشكلة الانحدارات تختلف في كنهها وفي طريقة التغلب عليها ، اذا كان الطريق معبرا للسيارات ، أو للسكك الحديدية العادية ، أو سكك حديد الجبال .

فمشاكل الخطوط الحديدية ومدها الخاصة بالانحدارات الجبلية تستدعى أحيانا اقامة الجسور العالية والكبارى وشق الانفاق ، وهنا نجد أن مسألة التصاق الانسان ببيئته وضروراتها ليست بذات أهمية ، فالطريق الذى كانت تمليه ضرورة معينة في وقت معين ، يصبح قليل الاهمية في وقت آخر ، ثم قد تدب فيه الحياة في وقت آخر ، وهذه ظاهرة كثيرة الحدوث فيما يختص بالطرق التجارية ، وتحت أيدينا عدة أمثلة تؤيدنا ، منها هجر طريق البحر الأبيض المتوسط ، بعد تحول طرق التجارة الى المحيط الاطلسى أثر الكشوف البرتغالية البحرية ، من بدء القرن السادس عشر ، ثم استعادة هذا الطريق حياته فجأة بعد شق قناة السويس . كما أن هذه التغييرات قد انتابت بعض الطرق البرية أيضا فطرق القوافل التى كانت تخترق بادية الشام الى العراق أقفرت فترة من الزمن بعد شق قناة السويس ، ثم استعادت أهميتها بعد مد السكك الحديدية وشق الطرق في هذا الجزء من الهلال الخصيب ومن ناحية أخرى ، أهملت شبكات الطرق في الاقاليم العريقة بعد مد السكك الحديدية ، ولم تستعد نشاطها الا بعد اتخاذ السيارات وسيلة أخرى سريعة في النقل .

ونستطيع في اقلم من الأقاليم أن نتبين بوضوح تام اختلاف الطرق ، باختلاف مراحل المدنية التى مر بها هذا الاقليم .

ومن أمثلة ذلك منطقة الكوت فى برغانديا ، حيث يمكننا أن نميز طرق القرون الوسطى القديمة التى كانت تتوخى المستوى المرتفع المشرف على الاقليم من فوق خط التلال ، وهـــذا احتياط فى سبيل الأمن استلزمته عصور اضطرب فيها حبل الأمن . ولكن لما نشر الأمن ربوعه ، هبط الطريق الى جوانب الأودية المتسعة ، ثم سلكت السكك الحديدية والطرق القومية بين ديجون وليون قاع الوادى نفسه (١) . هذه اذن ثـــلاثة احتمالات ، استغلت فى ثلاثة مراحل مدنية مختلفة .

---

(١) أنظر الاشكال فى فيدال (٢٣٦) ص ٢٤٣ خريطة رقم ٤٤٥ وقارن أيضا jobaid (g.) L'archéologie sur le terrtain, Dijon, 1903, p. 121 f.f.

— ٢ —

وظائف الطرق : الطرق التجارية

لندع الظروف التاريخيـة التي تتحكم في شق الطريق ، فهي سهلة الفهم . ولا يصعب على أى طفل تفهمها . ولندرس قيمة هـذه الطرق . الطرق عديدة ، ومع ذلك فإن الانسان يفضل دائمـا طرقا معينة باستمرار . فما السبب فى هذا ؟ ولأى غرض ؟ فى الواقع لا يمكن تحليل النشاط البشرى إلا الى حد معين . ومن العبث محـاولة فصل الطريق عن طبيعة الحركة التى تعبره والتجارة التى تحملها . ومن هنا نستطيع أن نميز عدة طرق ، من أنواع مختلفة ، فهناك الطرق التجارية وطرق الحاج الدينية ، والطرق السياسية .

أما عن الطرق التجارية فهى قديمة قدم المدنية نفسها ، حتى أقدمها وأضيقها نطاقا . بل أن علماء ما قبل التاريخ يثبتون بأبحاثهم المستمرة ، وجود طرق تجارية كبرى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ [١]. وهـذه الطرق التجـارية لا ترجع إلى عصر البرنز فحسب ، بل إلى العصور الحجريه الحديثة [٢] أيضا . ويمكن تتبعها فى الوقت الحاضر ، وهنـاك دلائل معينة تدل على نوع النشاط التجارى القديم ونحن نعرف الآن انتشار حضـارة النصب الحجرية (الميجاليثية) فى أنحاء مختلفة من العالم ، حيث توجد فى

---

(١) دى مورجان (١٧٥) الباب الثالث ، الفصل الرابع ، شكل بين الطرق التجارية القديمة ص ٢٢٠

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٨

غرب أوروبا ، منتشرة من اسكندنياوة إلى شبه جزيرة ايبريا، وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، وفى الهند وفى جنوب اليابان بل وفى كوريا [(١)] ونحن لا نريد أن نناقش الفروض البعيدة عن المعقول ، ولكن نكتفى بأن نشير إلى ما ذكره أحد علماء الانجليز [(٢)] ، وهو أننا اذا رسمنا خريطة لتوزيع النصب الحجرية القديمة ، ووزعنا عليها فى نفس الوقت ركاز المعادن، والأحجار الكريمة ، وشطوط اللآلى فى الهند وشواطىء المحيط الهادى ، فاننا نجد توافقا عجيبا بين الظاهرتين . ومن ثم وصل إلى نتيجة معينة ، وهى أن شعبا معينا أقام هذه النصب الحجرية ، وكان محبا للثروة ولم يكن هذا الشعب سوى الشعب الفينيقى . ولكن يجب علينا أن نحترس من خطر اذاعة مثل هذه النتيجة الجريئة، ويجب أن نعتبر الفينيقيين فى هذه الحالة أسطورة جميلة حتى يقوم عليها الدليل الشافى. الا أن مثل هذا التوافق بين الآثار القديمة ومصادر الثروة سيفتح دون شك مجالات واسعة لدراسات جديدة مشتقة .

ونحن مع الوثائق المكتوبة التى تركها الأقدمون ، نشعر بأننا فى مركز أحسن ، وهذا أمر أثبته ڤكتور بيرارد فيما يختص بالفينيقيين فى البحر الأبيض المتوسط ، ويدل التاريخ القديم والتاريخ الوسيط على أن الطرق البحرية لم تتغير كثيرا فى هذه العصور ، وقد يقال أن هذه الطرق البحرية القديمة كانت الطرق الوحيدة التى جسر الإنسان فيها على ركوب البحر، ولكننا

---

(١) نفس المرجع ، خريطة التوزيع رقم ١٤٧

و . ج برى ، (١٦) الجزء ٢٩ ، ١٩١٨ – ١٩٩ ص ١٢٣

نرد على هذا بأنها كانت الوحيدة التى غامر فيها الإنسان ، لأنهـا أكثرها فائدة له . وأن الطرق البحرية لم تتخذ الا لأسباب اقتصادية معينـة ، فمن عادة الإنسان أن يسلك أقصر السبل لمراكز الانتاج ، وهـذا هو السبب الوحيد للكشوف الجغرافية فى القرن الخامس عشر ، وللطرق التجارية التى فتحت منذ ذلك التاريخ . ومن الأخطاء التى يرتكبها المؤرخون أن يضعوا الأسباب المختلفة لهذه الكشوف فى نفس الدرجة من الأهمية، فيذكرون أن أسبابهـا روح المغامرة ، والتقدم فى فنون الملاحة . . الخ ، أن هذه لم تكن سوى ظروف مواتية فحسب ، ولكن السبب الحقيقى لهـذه الكشوف كان الوصول الى مراكز الموارد الطبيعية وما علينا إلا أن نذكر الارباح الطائلة التى عادت ـ من ناحية أخرى ـ على تجار البندقية وجنوا ، ومقاومة البنادقة والعرب للخطر البرتغـالى الجديد كمنافس لتجارتهم فى المحيط الهندى ، لـكى نقنع أنفسنا بالدوافع الحقيقية لهذه الكشوف وعلينا أن نتـذكر بعد ذلك النشاط التجارى الكبير للمحيط الأطلسى ، والذى كان وقفـا على البحر المتوسط .

وقد خطت طرق ملاحة تجارية جديدة ، فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، بين أوروبا وأمريكا الجنوبية وهى خطوط ملاحية سارت فى طرق مرسومة محـددة ، مثل طرق الغـلايين (السفن) من قادش الى قرطاجنة وبورتو بللو فى برزخ بناما ، وطرق المهربـين الـتى كان يرتادها قراصنة سان مالور الانجليز الذين كانوا يصلون الى بيرو عن طريق بونس ايريس أو رأس هورن ، وكانت « السفن المسجلة » تتبـع طرق القراصنـة

والمهربين كذلك ، تبعا لضرورات التجارة [١]

ولما كانت الأنهار أيضا طرقا تجارية جيده ، فإنها استعملت منذ فجر التاريخ ، ولعبت فى التجارة دورا خطيرا فقبائل الايدوى كانت تستمد قوتها من مركزها على ضفاف السوار والالير والساءون ، وسيطرتهـا على هذه الأنهار التى كانت تعبرها التجاره ، وفرضها المكوس والضرائب على السلع التى ينقلها التجار ، مما أوغر الضغينة والحسد فى قلوب جيرانهم الذين تألبوا لحرمانهم من تلك المكوس ، فكان الصراع بينهم وبين السيكوانى [٢] وهذا مجرد مثل واحد من أمثلة عديدة فقد كانت المدن الغالية تتكتل على ضفاف النهر من الأنهار الفرنسية [٣] ، والسيطرة عليـه من كلا الضفتين ، حتى تكون السيطرة عليها وعلى التجـارة التى تحملها كاملة . وهكذا كان النهر عاملا للوحدة ، فاصلا أو عازلا الا فى النادر .

وتتكرر نفس القصة بالنسبة للطرق البرية .

أن قيمـة الطريق سواء كان يعبر سهوب الستبس أو فيـافى الصحراء وسواء كان طريق قوافل ، أو كان يؤدى الى مراكز التجارة وسط كروم شمبانيا ، وسواء كان طريقا حديديا حديثا أو طريقا بريا قديما ، أن قيمة

---

(١) Girard, A. " Les voies de commerce dans Amérique espagnole pendant l'epoque coloniale (Bibl. Améric) II, 1912 . p 289 . ff

(٢) سترابو ، (٤) ، ٣ ، ٢ ؛ قيصر (٤) ١٠ ، ٣

(٣) جوليان (١٧٢) الجزء الثاني ص ٢٦ وما بعدها ، ٢٢٣ وما بعدها

الطريق على أى حال لا تتوقف على حالته الطبيعية . وانما على الغاية التى من أجلها شقه الإنسان . وقد لاحظ ديمانجون وهو يعرض كتاب مارسيل بلانشارد عن طرق الآلب الغربية (١) الكبرى ، أن أهم مبرر لطريق سنى Cenis هو أنه يمكن اختراق الآلب عند هذا الحد من أول محاولة ، حيث أنه لا يوجد سوى جزء واحد صاعد فى الطريق وآخر هابط . وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن أى تفسير لاتخاذ هذا الطريق يجب أن يتضمن مقارنة بين ممر سنى وممر جنيفر Genévre ، الذى يتضمن مصعدا من ايطاليا ، ثم مهبطا إلى داوى دورانس ، ثم مصعدا آخر لمغادرة هذا الوادى الى الغرب والشمال الغربى ، عن طريق وادى لوتاريه Lautaret أو عن طريق ممر بايارد Payard وممر شامبساور . وبالرغم من هذا فربما كان ممر سنى أكثر أهمية أيام القوافل والانتقال على ظهور البغال وأيام أول العهد بعد الخطوط الحديدية . فالخط الحديدى الذى يخترقه من أقدم خطوط الآلب اطلاقا ولكن الحال تغيرت الآن ، ألم نلاحظ السباق الجنونى من جانب الدول الكبرى فى شق الانفاق فى جبال الآلب قبيل الحرب العالمية الأولى ، كل منها تريد وتصر على شق أنفاقها (٢) الخاصة ، دون اعتبار للصعوبات الجغرافية التى تواجهها ؟ وكيف يمكن أن نبرر هذا ، بينما طريق سنى البسيط يؤدى الغرض ، لولا التنافس الاقتصادى بين هذه الدول ؟

---

(١) (١١) ، ١٩٢١ ، ١٢٨

(٢) Eisenmann, " les chemins de fer transalpins. " Rev. des covrs et conférences, 1914, notes. p, 191 - 193.

* * *

على كل من يريد أن يصنف الطرق التجارية على أساس علمى ، يجب ألا يهتم بتفاصيل الطريق أو على الاعتبارات المكانية والموقع الجغرافى ، بل على أهمية وطبيعة الحركة التى تغذى الطريق ، وهذا أساس بلغ من الحقيقة مبلغا كبيرا ، حتى أننا نلاحظ أن بعض الصناعات قد اتخذت لنفسها طرقا خاصة للنقل .

ولعل أكثر هذه الصناعات دلالة ، صناعة استخراج الملح ، ففى بعض المقاطعات مثل فرانش كونتيه ، نشأت أحسن وسيلة لتوزيع هذه السلعة الضرورية ، معتمدة على نظام طرق خاص ، أسمها طرق الملح . ومركزها سالين ، وقد نشأت طرق الملح viae salaraioe فى كل مكان ، حتى فى قلب الصحراء ، ولما كانت طبقات الملح الصخرى ، تقع بالقرب من مراكز المعدنين ، كما هى الحال فى نوريكوم واللورين وفرانش كونتيه مثلا ، كانت طرق الملح فى الوقت نفسه طرقا للمعادن ، ذات وظيفة مزدوجة وظيفة حربية وأخرى تجارية ، إذ كان التنافس شديداً بين الدول على امتلاك مناجم الملح ، ومناجم المعادن الأخرى ، كما كان التنافس بينها شديداً على السيطرة على الأنهار . وألسنا نسمع كثيراً عن طرق الكهرمان ، والمرجان ، وطرق البهار وطرق الحرير ؟ ـ من العبث أن نحاول تقسيم رحلات هذه الطرق ، كما لو كانت هى السبب فى شق تلك الطرق ؛ كما أنه من العبث أيضا أن نصنف الموانى تبعاً لمواقعها الجغرافية . فاذا بدأنا نميز بين الموانى الساحلية ، والموانى النهرية ، ثم نقسم الإخيرة إلى موانى قائمة على خلجان كبيرة أو

صغيرة ، أو قائمة على فيوردات ، ونقسم الأخيرة إلى موانى خليجية نهرية وموانىء خارجية ، عند مصب النهر[١]، فإن هذا في رأينا يشبه دراسة نفسية أفراد أسرة من صورها الشمسية على طريقة وصف جوازات السفر ، الأنف متوسط ، الذقن مستديرة ، الوجه بيضاوى ، إلا أنه هناك حقائق ذات أهمية كبرى ، مثل اتصاف بعض البشر بالعين المنحرفة ، وبعضهم بالأنف الأفطس ، كذلك من الحقائق الهامة أن هناك موانى نهائية عند مصاب الأنهار لها قيمتها وأهميتها ؛ ولكن هذا الوصف الأخير لموقع الميناء لا يزال مطلقا على طبيعة التجارة التى تصرفها الميناء ، كما أن الوصف الجسمانى للأول لا يدل على نفسية أصحاب العيون المنحرفة أو أصحاب الأنف الأفطس ، فكلا من مارسيليا وجنوة موانى على خلجان ، ولكن احداها انقطعت عن ظهيرها ، فهى مجرد سوق كبير أو مخزن للبضائع ، واتجاهها الجغرافى نحو البحر فحسب بينما الأخرى ، منفذ لسلع المناطق الصناعية والزراعية الكبيرة ، تتجمع فيها وتقوم بتصديرها . ولكن إلى جانب هذين المبدأين اللذين يشبه أحدهما الآخر فى الموقع الجغرافى ، والتخطيط الطبوغرافى ، كل منهما يقع على نفس الشاطىء من نفس البحر ، فى نفس الاقليم الاقتصادى ، من نفس المدينة ، هناك عدد لا حصر له من أنواع الموانىء ؛ التى أتعبت الجغرافيين حتى الآن فى محاولة تصنيفها على أى أساس جغرافى

ليس من السهل ايجاد التشابه الجغرافى بين موانى التوزيع الكبرى مثل

---

(١) عن هذه التصنيفات أنظر أسادا ، « أنواع الموانى ، دراسة فى التصنيف » (١٢) جزء ٢٧ ، ١٩٣ (١) ص ٢٦٢ وما بعدها .

بومباى ، هونج كونج ، وزنزبار وموانى المرور مثل عدن ودكار والجزائر أو بين منافذ الأقاليم الصناعية مثل بوسطن ونيويورك وبرشلونه وروتردام وانفرس بل أكثر من هذا فأى محاولة فى عمل ذلك تضليل. وان كل من يتصدى لإنشاء ميناء يجب أن يأخذ فى الاعتبـار الظروف الجغرافية ، مهما كانت هذه الظروف صعبة ، لأننا نجد بعض الموانى تخلق خلقا ، بالرغم من الظروف الجغرافية الغير مواتية ، لأن الانسان يجد من مصلحته الاقتصادية الكبرى — فى هذا الاقليم — انشاء ميناء ومن أحسن أمثلة تلك الموانىء زيبروج Zebrugge ، أنها من خلق الانسان بأدق معانى هذه الكلمة فلم يكن هناك أى موقع صالح لانشاء ميناء فى هذا الساحل القفر؛ ليس هذا فحسب بل لم تكن هناك ضرورة ملحة لانشائها ؛ فلم يكن ثمت اقليم صناعى أو مركز تجارى ؛ دون منفذ بحرى آخر له ، ولم تكن هناك فرص للتوسع تستدعى انشاء ميناء جديد . فلم تكن بروج هذا المركز التجارى الكبير ، ولم تكن الدلائل تبشر بنشاط تجارى غير عادى يستدعى قيام ميناء جديد لها . بل على العكس ، كانت بروج مدينة قديمة نائمة ، تهتم بمجدها البحرى القديم وظنت أن إنشاء ميناء سيعيد اليها هذا المجد القديم ومن ثم انشئت زيبروج ، لتكون فى خدمة بروج إذا عاد نشاطها التجـارى وتوسعت فى المستقبل ، أو كما قال أحد الكتاب (١) ، كانت منفذا لاحياء مستقبل ، ولكنها لم تكن منفذاً لازدهار حاضر .

---

(١) J. Nissens - Hart, " Les ports et leurs fonctions èconomiques, " in société scientifique de Bruxelles, vols, IV, louvain, 1909, p.p - 179 - 180

ولكن إنشاء الموانىء ، حتى على الرغم من الظروف الطبيعية ، مسألة يسيرة أمام التقدم الهندسى الحالى. ولكن هناك فرق بين الميناء وبين المصنع ففى حالة المصنع ؟ يكفى إقامة العدد والآلات وإدارتها وإخراج المنتجات ولا يبقى إلا مسألة توزيعها ، أما فى حالة الميناء فيجب جذب الزبائن ، بل ولا بد من خلق الظهير ، وليس هذا بالأمر اليسير فى عالم بلغت فيه المنافسة التجارية ذروتها ، حيث تتحكم فى التجارة العالمية منشآت ومؤسسات تجارية احتكارية كبرى ، نشأت لتضبط من النشاط التجارى فى العالم ، وقادرة على وأد أى نشاط تجارى حر ، بل وتستطيع أن تتحدى كل الاعتبارات الجغرافية أو الطبيعية . ومن ثم لم تكن زيبروج بقادرة على النمو « الا فى خطوات وئيدة وبعد نشاط دائب صبور » وأخيراً فان ازدهار هذا الميناء الصناعى لا يعتمد على الظروف الطبيعية ، كما أن جغرافيتها التجاريه لا تقوم على أساس سليم ونشاطها يجب أن يعتمد على تدخل الانسان باستمرار وسنرى أن كان خلق المهندسين يلاقى نجاحا أو فشلا .

ومن ثم فاننا نجد أن الموانىء احدى المبتكرات الانسانية الكبرى — يسير الآن نحو التحرر من الظروف الجغرافية ، فاذا أردنا أن تصنفها تصنيفا مفيدا ، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وظائفها الاقتصاديه والأفضل من هذا القيم النسبية التى تشتمل عليها ، وما تجمعه من توافق بين مختلف الوظائف الخاصة التى تقوم بها [1] . وليس من المستحسن أن نعلق معانى كبيرة على

(١) أنظر روسبير (١٦٦)

حكمة «اقتصادية» ، إذ أن كل العمليات التجارية والمالية تتأثر إلى حد كبير بالمعتقدات العامة للشعوب ، فالرأسمـــالية مثلا ليست إلا أسلوبا فى التفكير ونظاما فكريا خاصا وقد كان أسادا Assada ، وهو مؤلف دراسة ممتعة عن الموانى ، محقا عندما قال أن الظروف الاقتصادية لاتكفى لتبرير طبيعة ميناء أو نشاطه ولكن يجب دراسة الظروف الاقتصادية على ضوء الظروف الاجتماعية . ويضرب لذلك مثلا : « قد يبدو غريبا أن نرجع تصدير القمح على نطاق واسع إلى أسباب اجتماعية ، فالواقع أن هذا التصدير يعتمد على درجة المدنية التى يتمتع بها السكان الريفيون لظهير ميناء التصدير ، كما يعتمد على أسلوبهم فى الحياة وإذا كانت اودسا قد تخصصت فى تصدير القمح فانما يرجع ذلك إلى روسيا لاتزال دولة حديثة ، حيث كثافة السكان قليلة بالنسبة لمساحة الأرض ، وحيث حاجات الشعب بسيطة ، هذا إلى جانب خصوبة التربة السوداء »[1].

* * *

فى الواقع لم تبدأ بعد دراسة أمثال هذه الموضوعات دراسة جدية . فليس من اليسير ، فـــيما يختص بالدول العريقة فى المدنية ، استخدام الاحصائيات ، ولاسيما فيما يتعلق بالسكك الحديدية ، ومعرفة أهمية تجارة سلعة من السلع ، وإذا وجدت حالات خاصة بالتعريفة الجمركية ، أمكن أيضا معرفة الحركة التجارية الخاصة بين دولة وأخرى ، وبالرغم من أن

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٦

هذا الموضوع دقيق ؛ الا أنه قد يكون أقرب منالا من تناول احصائيات الجمارك جملة وتحليلها . لأن أهمية الميناء تقاس بتقدير ثلاثة أشياء :بمجمل حمولة السفن التي تزورها ، بمجمل حمولة الصادر وبمجمل حمولة الوارد ، وبمجمل قيمة التجارة التي تمر بها . وهذا ليس من السهل تقديره ، كما أن أي تقسيم قائم على تقدير واحد من هذه الأشياء الثلاثة فقط . لايمكن أن يكون مضبوطا . إلا أن الموانى لاتتفق فى مدنا بجميع هذه الاحصاءات التى نريدها . وعلى نفس الأسس التى نتوخاها . ومن ثم كانت معظم الاحصاءات مضللة . لأننا نعالج نظاما متداخلا معقدا ، ونحلل عناصر تجارية من الصعب التمييز فيما بينها . وليس الأمر قاصرا على المدينات المعقدة العريقة ، فان نفس الصعوبة تقابل المؤرخ والجغرافى والاقتصادى اذا حاولوا دراسة المدنيات البسيطة .

ومن المفيد ترتيب هذه الحقائق فى مجموعات ، اذ أن فهمها يكمن فى اعتبارات فنيه ليس من اليسير فهمها بسهولة .

ولنضرب مثلا بطرق الصحراء الكبرى . فهى تشبه الى حد كبير الطرق الملاحية البحرية ، أو كانت تشبه إذا توخينا الدقة ، حيث أن جزءا كبيرا من هذه التجارة قد نضب معينه . هذه الطرق تمتد بين ساحلين متقابلين ـ اذا شبهنا داخلية الصحراء بالبحر ـ ساحل أفريقية الصغرى فى الشمال وساحل السودان فى الجنوب عبر بحر من الرمال والصخور الجرداء فيصل بينها ، ولابد من اختراق هذا البحر بأقل خسارة ممكنة . وتقوم على كل من الساحلين الشمالى والجنوبى سلسلة من الموانىء أو المحطات القوافليه النهائيه من جانب تندوف ، طرابلس، بنغازى ومن الجانب الآخر تمبكتو ، كانو،

زندر ، كوكا ، أبيك ، والفاشر . وهذه المدن جميعا قامت حول نويات من محلات التجار البربر والعرب [١] ، الذين يقومون بتنظيم تجارة الصحراء ، هؤلاء الوسطاء التجار يخزنون تجارة الشمال ، من ملابس وخرز وروائح وسكر وورق ، ثم يوسقون القوافل عوضا عنها بسلع يجمعونها من ممالك الزنج ، مثل الذهب والعاج وريش النعام وأهم من هذا كله الرقيق . وفى الطريق يضاف الى هذه السلع ، سلع صحراوية أصيلة وأهمها الملح ، الذى كان تجارة قائمة بذاتها ، جديرة بأن تجـــذب الناس إلى فيافى الصحراء وهكذا تسير منتجات البحر المتوسط والاقليم السودانى والصحراء فى طرق الصحراء [٢] ولكن تجارة عبر الصحراء الحالية ليست إلا أثراً ضئيلا مما كانت عليه فى الماضى ، عندما كان بالقرب من ١٠٫٠٠٠ الى ١٥٫٠٠٠ ألف جمل تضرب على الدروب من تمبكتو الى توات ومن ثم الى تافليت أو من اغادميس الى طرابلس أو من كانو وزندر الى غات والى مرزوق أو من أبيك الى بنغازى عن طريق واحة الكفرة ، ولماذا اذن أقفرت دروب الصحراء الآن ؟

يرجع ذلك الى اختفاء تجارة الرقيق ، وبالتالى أهم سلعة بين السودان والبحر المتوسط . ولا شك فى هذا ، ولكننا نضيف الى هذا عاملا آخر

---

(١) منيو (١٨٣) الجزء الأول ، ١٧٥

(٢) قارن بصفة خاصة دراسة كورينز الدقيقة (١٢) جزء ٢٥ ، ١٩١٢ ، (١) ص ٩ ومابعدها . ولا سيما ص ٩٧ . ٩٨ فيما يتعلق بتجارة الملح .

أوضحه مينود : فان خمسة عشر ألف جمل تستطيع أن تحمل حمولة قدرها ١٥٠٠ طن . وكان هذا يبدو رائعا فى الزمن الماضى ؛ عندما كانت حمولة السفينة هارى الكبير ألف طن ، وكانت تزهو بهذة الحمولة بين السفن أيام اليزابيث؛ وعلى هذا القياس كانت حمولة قوافل الصحراء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تضارع حمولة أضخم الأساطيل الأوروبية أما الان فان أصغر السفن التى تمخر العباب الى أمريكا الجنوبية أو افريقية أو استراليا أو الشرق الأقصى ، تتراوح حمولتها من ٦٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ طن ، وتسير بسرعة تتراوح ما بين ١٤ ، ١٥ عقدة وتصل حمولة بعض السفن التجارية إلى ٢٠٫٠٠٠ طن ، ولكن معظمها تتراوح حمولته بين ٣٫٠٠٠ — ١٠٫٠٠٠ طن وتبلغ حمولة أكبر سفينة حديدية من ١٥٠٠ — ٥٠٠٠ طن (١) . أليس من المفيد مقارنة هذه الأرقام الأخيرة بأرقام عصر اليزابيث ؟ وأليس من الحق أن نقول أن ظروف سفن البحر تسمح لها بأن تسحق منافسة سفن الصحراء سحقا (٢) ، وخصوصا بعد أن تم تعبيد الطرق التى تصل بين ساحل البحر المتوسط وداخلية البلاد ، أو بين خليج غانة وقلب القارة الافريقية . بهذا تم للتجارة البحرية أن تسود تجارة الصحراء والحياة الاقتصادية للسودان .

---

(١) منيود (١٨٣) نفس الموضع

(٢) فالو (٢٥٦) ص ٢٨٠

ومجمل القول : طبيعة الأرض لا تلعب الا دورا ثانويا فيما يختص بإنشاء الطرق التجارية أما الدور الأول فتلعبه الحاجة الدافعة إلى انشاء هذا الطريق ، والانسان كفيل بتخطى كل العقبات التى تعترض سبيله ، ولن تقف فى طريقه مستنقعات ، أو هيارات ثلجيه ، أو جبـــال شامخة أو صحارى مجدبة .

- ٣ -

الطرق الدينية والطرق الثقافية

ما يصدق على الطرق التجارية ، يصدق أيضا على الطرق الدينية ، فالناس لا ينتقلون من مكان إلى مكان لغرض التجارة فحسب . وتدل أقدم وثائق التاريخ التى نستطيع أن نستنبئها . أن الإنسان كان يقطع المسافات الطويلة لكى يحج إلى المراكز الدينية الكبيرة ، وإلى مراكز الحياة المتقلبة وهل نحتاج إلى أن نذكر مثلا رحلات الحج فى بلاد اليونان القديمة. وتلك الجموع التى كانت تحتشد قادمة من جميع انحاء بلاد اليونان فى مواعيد معينة لزيارة دلفى وكورنث والاولمب وأثينا وديلوس ؟ لم تكن لهذه الرحلات دون علاقة بالظروف الجغرافية . ولكن الحجاج كانوا يفضلون دون شك أيسر الطرق وأسهل المسالك ، ولكن فيما عدا ذلك ، لم تكن للظروف الجغرافية دخل فى مواعيد الحج ، أو فى دواعيه ، أو فى اتجاهاته أو فى حركاته الموسمية (الفصلية) أو فى الخبرات التى يكتسبها الحاج من حجه . وقد كانت هذه الظاهرة الخاصة بالحج دائمة مستمرة فى التاريخ ونحن نعرف مقدار أهمية الحج فى العصور الوسطى، وكيف أنه كان السبب فى انشاء عدد من الطرق ، وتعبيدها والعناية بها ، وكيف كانت هذه الطرق تنتظم عددا من الأديرة والفنادق والمبرات ، وكيف كانت توضع فى وصفها الكتب الخاصة .

وأهم طرق الحاج كانت تؤدى إلى روما أو إلى القدس من ناحية وإلى سانتيا جودى كومبوستيلا Santiago de Compostella من ناحية أخرى. ونحن نعرف طرق الحاج إلى روما [١]، عبر ممر سان برنار الكبير ووادى آوستا، ووادى أرك، وممر سينى، دورا رباريا؛ وأحيانا قليلة الطرق الجنوبية، مونت جنيفر، ممر تندا، وطريق الساحل أو الكورنيش ومن ثم يعبرون إلى روما عن طريق ممــر سيسا Cisa، أو عن طريق ممرات الأبنين، بين فورلى وأريزو Arezzo [٢]. وكانت برنديزى ميناء السفر الى الأراضى المقدسة ولكن أحيانا كان الحـاج يستقلون السفن من البندقية أو جنوة أو بيزا [٣]. وليس من المهم أن نذكر أن هـذه الطرق يرتادها الحاج فى الصيف، وأنها كانت تعبر الجبال فى المعابر والممرات ذات الظروف الجغرافية الحسنة، فأهم ما كان يميز هذه الطرق، وظيفتها الدينية وغايتها، أما ما عدا هذا فأمر ثانوى، ومن المهم أن نذكر أن معظم هذه الطرق كانت مهيأة أيضا للسير على الأقدام، وأن رحلاتها كانت تبدأ فى تواريخ محددة فى بعض الأحيان، لحضور حفلات دينية خاصة فى الطريق وأحيانا لم تكن تتقيد بتاريخ، ولذلك كان أمر اختيـار الفصل الخاص

---

(١) Bedier, Les Légandes épiques, 2d. ed. vol, II,1916, p. 143 ff Les chansons de gestes et les routes d'Italie. Carte P. 153.

(٢) Male' "L'art du Moyen Age et les pélerinages" Rev.de Paris, t.CLV. Oct. 15, 1919. p. 718.

(٣) بيديير. نفس المرجع ص ٢٦٦

بالرحلة متروكا لتقدير الحاج . ولسنا هنا بازاء حركة مرور هامة عاجلة ، مثل نقل المواد والسلع الضرورية للحياة .

كما اننا نعرف الطرق التى تتجه من أنحاء أوروبا كلها صوب سانتياجو دى كومبو ستيلا فى غاليسيا . [1] ونحن نعرف أيضا أن هذا الطريق كان مزدهرا فى القرن العاشر ، ثم ازدادت حركة الحاج فيه فجأة فى القرن الثانى عشر ، وهذا يرجع إلى نشاط رجل نشيط طموح ، هو ديجو جلميريز ، اسقف ثم كبيرأساقفة كومبوستيلا ، وهنا أيضا نرى الدافع الفردى الانسانى وراء كل هذه الحركات الانسانية الجماعية ، ووراء المنشآت العديدة ، مثل الموانىء والأديرة والصناعات الأخرى . ونعرف أيضا مدلول حركة الحج هذه ، وماتؤدى اليه ، عن تعبيد الطرق ـ طرق سانت جيمس الشهيرة مثلا . وانشاء المبرات ودور الضيافة على طول هذه الطرق ، والملاجىء التى تفتح أبوابها فى الليل أمام الحاج ، وتكوين جمعيات الاخوة فى كل مكان ، والعناية بمؤسسات ونظم دينية وحربية ، تقوم على حراسة الحاج فى الطرق الهامة [2] . ولم يحدث هذا فقط فى الطرق المؤدية الى روما وسانتياجو ، حيث كانت الطرق تزدحم بالحجاج ، فى الصيف ، فى أعداد غفيرة ، حتى أنه أطلق عليها طرق الحاج العامة ، وكان غيرهم من التجار والجنود والسفراء والقسس لم يكونوا يشاركونهم الطريق ، بل أنها أيضا كانت تزحم الطرق

---

(١) بيدير ، نفس المرجع جزء ١ ، ١٩١٩ ، ص ٣٦٦

(٢) بيدير نفس المرجع ، ١ ص ٣٦٧

الرومانية القديمة. [1] وكان هناك مئات أخرى من المواضع المقدسة المسيحية تجذب اليها الحاج من مختلف أنحاء أوربا . منها - فى فرنسا وحدها - شارتز ، كليرمونت ، لى بى ، تور ، بواميتيه ، سانت ، كونك ، مواساك وتولوز . ونستطيع أن نفهم بسهولة الدواعى التى رسمت تلك الطرق الدينية ، وهى وجود أكبر عدد ممكن من المبرات فى الطريق ، وهى على أكبر عدد ممكن من الأماكن المقدسة فى الطريق كذلك . [2]

وليست ظاهرة الحج قاصرة على المسيحيين فى القرون الوسطى ، فكاميل جوليان يذكر لنا نشاط الأديرة وأماكن تجمع الحجاج فى الأماكن الكلتية المقدسة ، وكانت تشبه أديرتنا فى العصور الوسطى ، مراكز نشاط تجارى صناعى فى نفس الوقت [3] ، ومن هذه الزوايا ذات الأهمية المعدنية المعروفة ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ صناعة الحديد ، كما يقول الكسندر برتراند - فى نفس المكان الذى أتخذته احدى المؤسسات الدبلية (الدرويديكال) Druidical الكلتية مركزا لها » . كما أن المراكز المقدسة هذه كان لها نشاط تجارى ، فنشأت رابطة اقتصادية بينها ، ويمكن ربط المجتمعات القديمة التى نستطيع ارجاعها إلى عصر البرنز والحديد فى أوربا ، بارتباطها برباط اللغة والمصلحة والدين ، وكان مركز هذا كله ، محلة دينية مقدسة ، ويربط بين المحلات الدينية المختلفة طرق خاصة ليس هذا

---

(١) نفس المرجع جزء ٢ ، ص ١٤٨

Male. Revue de Paris vol. CLVII Fev. 15, 1920p.774 ff (٢).

jullian, Rev. des Et. Anc. t. XXII, 1920, PP. 211-212.(٣)

فحسب ، بل أن أحد الباحثين ربط بين صناعة الأجراس فى فرنسا ومراكز صناعة الحديد Clocca (بالفرنسية Cloche) والأجراس الدينية الكلتية القديمة . فهى توجد فى مراكز معينة فى شمال ايطاليا ، والانجادين ، وفرنسا ، واستوريا والبرتغال . ويقال أن القسس الايرلنديين هم الذين أدخلوا السيف والناقوس الى القارة الأوربية وأن انتشار استعمالها تبع طرق الحاج التى تسير من بوبيو الى سانتياجو دى كومبو ستيلا ، ولنرجع الى أبحاث بيدير وميل وغيرهما عن انتشار الحضارة الروحية والفنية والعقلية فى القارة الأوربية لنستزيد معرفة وعلما .

ومثل هذا يمكن أن نجده فى الأقطار الاسلامية والأقطار البوذية ، ويظهر هذا بوضوح فى مراكز الحج فى مكة ، أو أماكن الزيارة أيام موالد الصالحين فى القيروان وتلمسان . وقد درست طرق الحاج الى مكة ، كما درست طرق الحاج الى لهاسا بعناية أيضا . ولماذا نذهب بعيدا ، فلنلاحظ حركة الركاب بالسكك الحديدية الجنوبية فى فرنسا أيام المواسم الدينية فى لورد ، وفى يوم عذراء أوراى Auray أما عن لورد فهى تحتل مكانا ممتازا من الناحية الجغرافية ، كما أنها مدينة تاريخية قديمة ، صغيرة ينبثق فيها عين ماء مشهور من قديم ، كما أنها مزودة بصخرة منعزلة مهيأة تماما لأعمال التحصين والدفاع ، وتحيط بها الحقول والمروج ، وتلعب أيضا دور السوق الريفية المحلية ، التى تقوم عند عين ماء ، تحتمى بقلعة حصنية . وقد أضيف الى أهميتها هذه صفة دينية تجتذب الحجاج وهى الآن فى طريقها لتصبح عاصمة البرانس .

لنلاحظ أخيرا أن هذه المراكز المقدسة لها فى الغالب وظيفة مزدوجة

وظيفة الدين ، ووظيفة الحضارة العلمية ففى بلاد اليونان القديمة ، كانت الأعياد الدينية تقام فى نفس الوقت الذى تقام فيه المباريات الرياضية ، والمباريات الأدبية والفنية والموسيقية. ومراكز الاديرة الكبيرة فى القرون الوسطى ، كانت نويات نمو مراكز الثقافة الكبرى فى أوربا ، والجوامع الكبرى والمساجد الشهيرة فى البلاد الاسلامية مراكز للثقافة أيضا وهل نحتاج إلى الاشارة الى نظرية بيديس عن نشأة الأغانى الفرنسية Chansons de gestes وما وصل اليه فى بحثه ، من وجود رابطة بين المراكز الأدبية والانتاج الأدبى ، وبين تأثير مراكز الحج فى أوربا أثناء العصور الوسطى ، لاشك أنه فى مرحلة متقدمة من تطور المجتمعات الانسانية ، فيفصل بين النشاط العقلى والنشاط الدينى ، وبين مراكز الثقافة العقلية ، ومراكز الحج الدينية ، ولكن ألم تتحول المراكز الدينية الكبرى إلى جامعات ، فأصبحت نقطا تجتذب اليها كل من يهمهم أمر الثقافة والدين معا من كل مكان . فأدى هذا الى حركة مرور جديدة ، من نوع جديد ، من طرق الحج القديمة ، ونحن نعرف مركز جامعة باريس كمركز للجاذبية العقلية ، فى العصور الوسطى ، وقد ظلت حركة الحاج قائمة حتى عصر النهضة حج من نوع جديد ، حول فرنسا وحول ايطاليا ولكن يقوم به طلبة العلم الآن . ولاتزال بعض الجامعات الألمانية والانجلوساكسونية مراكز يحج اليها طلبة العلم من جميع أنحاء العالم .

٤

الطرق السياسية، ونشأة الدول

هذه طرق تجارية ودينية وثقافية، ولكنها ليست الطرق الهامة التي تخلق الدول أو تحفظ الامبراطوريات.

لا يمكن أن تقوم الدول إلا اذا رغب بعض الناس أن يعيشوا معا، تربطهم أمان وآمال ومصالح واحدة. وتلعب الطرق دورا هاما فى حياة الوحدات السياسية، ولكنه دور تختلف أهميته من وقت الى آخر، ومن ظرف الى آخر. ولكنه فى الوقت نفسه تمكننا دراسته، فى قطر ما، فى عصر ما ومقارنته بالدور الذى لعبت شبكة الطرق لاقليم آخر، فى نفس الفترة أو العصر، أو مقارنته بشبكة الطرق لنفس القطر، عصر آخر من أن يلقى ضوءا على مميزات هذا القطر وأغراض الدولة التى تحكمه. وقد بين فيدال دى لابلاش هذا فيما يختص بفرنسا، فى آخر كتابه «خريطة فرنسا». وليس أدل من المقارنة التى يعقدها بين خريطة الطرق الرومانية فى بلاد الغال، والطرق الملكية فى آخر القرن الثامن عشر والسكك الحديدية الحالية. فهى تبين شبكة كاملة من وسائل المواصلات وطرقها، بشكل يمكن الدولة من أن تهيمن على موارد القوة ومصادرها وتسيطر على وسائل النقل والمواصلات السريعة بين مركزها وبين الدول المجاورة التى تنافسها، كما تبين أن الطرق الدولية تكون نظاما موحدا معينا ـ وهذا بخلاف الطرق الأخرى. ولاشك فيما يختص بالطرق الفرنسية انها وضعت لكى تخدم النظام

الملكى المركزى لفرنسا ، كما أن الطرق الرومانية كانت تتبع نظاما معينا تربط أجزاء الامبراطوريات بعضها بالبعض الآخر ، وكذلك الحال فيما يختص بالطرق الملكية الفارسية أيام داريوس ، ولايزال هذا صحيحا فيما يختص بشبكة الطرق والسكك الحديدية فى معظم الدول الحديثة ونحن نستطيع بقليل من الجهد أن نميز بين الخطوط الحديدية الستراتيجية وبين الخطوط الحديدية الثانوية العادية التى تخدم الركاب والبضائع ، وهذا أيضا صحيح فيما يختص ببعض الطرق الملاحية ، مثل الطريق الى الهند ، عن طريق البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر أو المحيط الهندى ، تحرسه الممتلكات البريطانية من مبدئه حتى غايته . وهذا أحسن الامثلة لهذه الطرق الملاحية الامبراطورية .

هذه الشبكات اذن أمر يهم التاريخ والسياسة أكثر مما يهم الجغرافيا ، أنها مسألة صنع أقوى الدروع لحماية عناصر معينة للتنظيم السياسى ، ومثل هذا العمل صعب وليس من اليسير المحافظة عليه ولذلك يتطلب عمـــلاء متخصصين لخدمته ؛ ولاتخضع الدول فى محاولاتها هذه لحكم الضرورة القصوى ، ولكنها مسألة سياسية ومصالح ، وصلت اليها الدول المختلفة. بعد محاولات عديدة وارتكاب أخطاء عديدة وهى مسألة من صنع السياسة كما كما هى من صنع التاريخ .

وأكثر من هذا ليس هناك ضرورة معينه ـ أو ضرورة جغرافية ـ تحتم ترابط أو تكتل مقاطعات معينة لكى تكون دولة واحدة . فتكتل بعض المقاطعات . يوازى تكتل غيرها دون أى إستحالة أو خروج على حكم

المنطق . بل أحيانا ما تهمل التسهيلات التى تقدمها الظروف الجغرافيه فى سبيل مصالح أو أطماع معينة . ويقول فيدال دى لابلاش فى الكتاب الصغير الذى ذكرناه من قبل لولم يكن اتحاد المقاطعات الغالية حقيقة واقعة . قبل أن تبلغ القبائل الجرمانية الشمالية مرحلة الوعى القومى ، فمن يدرى ، ربما تكونت دول أخرى . من اتحاد بعض المقاطعات الفرنسية على جيرانها . أليس حوض باريس أقرب الى حوض لندن ، وأليس اللورين أقرب الى سوابيا . من الناحية الجغرافيه البحتة . أكثر من قرب هذه المقاطعات من مقاطعات البحر الأبيض المتوسط الفرنسية ؟ [1] » . وهذه فكرة رائعة فليست الدول اذن أشياء ولدت وحدها ، ونمت فى فراغ . بل هى تتأثر بالعوامل الخارجية فى بلادها ونشأتها . هذا الدافع خارجى باستمرار ، فليس هناك دولة من صنع مدنيتها الخاصة ، والا فانها لم تكن بقادرة الا على خلق مدنية محدودة الافق . كالساعة التى تدور بعض الوقت ثم تتوقف عن الدوران . ولكى تنمو الدولة أو المدينة ، يجب أن تكون وثيقة الصلة بالتيارات المدنية الخارجية ، التى تغذيهـا عناصر جديدة باستمرار [2] ، وبعبارة أخرى ، هناك « طريق » باستمرار فى حياة كل دولة . مثل الحبل السرى الذى يربطها بجسم المدنية الكبرى فى العالم . والذى تنبض من خلال ومضات الحياة من هذا الجسم الكبير . وهو كما نرى غير الطرق الصغيرة التى تربط أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر .

---

(١) فيدال « ٢١٠٠ » ص ٥٣ ــ ٥٤

(٢) نفس المرجع ص ١٧

ويتحدث فيدال دى لابلاش ، فى موضع آخر ، عن هذا الشيء الغير المادى الذى يسمى طريقة المواصلات [1] ، أنه كما بينا ذلك الطريق الذى كان السبب فى قيام الأمم الكبرى ، والوحـــدات السياسية الكبرى : ومضة كهربائية تسرى فى كيان عدد من المقاطعات ، تربط بعضها بالبعض الآخر . أو « تصل » بعضها بالبعض الآخر . وتسلك هذه الأجزاء المختلفة فى عقد واحد هو فى الواقع شيء غامض . ولكنه رابطة بيئية ، يجعلها جميعا تتحد ، فى حكم معين . دون بقية الاشكال أو الأحتمالات وهذا عمل عظيم كبير الأهمية ولكن هذا الرباط المعنوى — لكى يكتب له البقاء — يجب أن يتحول إلى رباط مادى - طريق من الحجارة والاسمنت . « فلم تصبح ايطاليا أمة واحدة الابعد أن ربطت طرق ابيان، وفلاميذيان، أطرافها البعيدة بعضها بالبعض الآخر » ولم تتكون الأمة الفرنسية الابعد أن أقام الكلت قبل الرودان شبكة من الطرق العديدة ، ربطت أجزاء فرنسا بعضها بالبعض الآخر وأوجدت تيارات عديدة ، تلاقت وأولدت وأتمت الوحدة الفرنسية .

هذا مثل من أمثلة عقلية ذلك الجغرافى الكبير الذى سبر أغوار التاريخ وما قبل التاريخ والذى كان يجمع الحقائق ويمثلها ويخرجها آراءا ناقدة جديدة . لا يستطيعها غيره من المفكرين . فهو قد تحرر من فكرة الحتم الجغرافى ، والقرارات التى تفرضها طبيعة الأرض والظروف الجغرافية الأخرى ولكنه يقدرها تقديرا سليما صحيحا ببصيرة نفاذه . فلم يتصور فرنسا عدداً من المقاطعات اتصل بعضها بالبعض الآخر اتصالا آليا ، كمن

---

(١) نفس المرجع ص ٥٢

يبنى منزلا طابقا فوق آخر . بالطوب والحجارة . ولكنه كان يعلم علم اليقين أن دوافع الفكر الانسانى ، وهى تكوين الدول والأمم . لم يأت عفو الساعة ولكنه عمل نشأ أول الأمر نشأة بسيطة . ثم ظل ينمو ويتعدل ويزداد صلابة كلما تخطى دور الطفولة . حتى يتغلب على الصعـــاب التى تترصد له خلال العصور الطويلة ، وأن وراء هذا البنيان إرادة قوية تكافح لكى تتغلب على الصعوبات . وتلائم بين رغباتها وبين ظروف البيئة الطبيعية . وتجاهد فى استغلال عناصر البيئة لتلائم تلك الرغبات ـ ولكنها لاتخضع لها خضوعا سلبيا مطلقا .

الفصل الثالث

المدن

— ١ —

التفسيرات المتطرفة

لقد كتب بعض الجغرافيين الرسائل الجيدة عن المدن فى فرنسا ولسوف نعود حالا إلى النتائج التى وصلت اليها هذه الرسائل كما ظهر أيضا — خارج فرنسا وبخاصة فى ألمانيا — دراسات حاول فيها أصحابها أن يقسموا المدن الى أقسام ومجموعات حسب مميزاتهـــا الجغرافية ، وقد أسس بعض هؤلاء دراستهم على الموقع ، ومنهم راتزل الذى يتبعه[1] أكثر الكتاب ، وبعضهم أسس تقسيمه على تخطيط المدن كما اختار بعضهم مميزات أخرى أساسا لتقسيمهم مثل مادة البناء وشكل المدنية والمظهر الخارجى للمنازل والمبانى [2] وقــد أفرغت المدن المدروسة فى قوائم ثم قسمت إلى أسر وفصائل وطرز ، هذا عمل جليل ، مهم فى نتائجه ، أو على الأقل فى طريقته ، ؛ ولا شك فى قيمـة

---

(١) راتزل «١٦٢»

(٢) هاسرت «١٥٤»

هذا العمل، بشرط أن يتذكر أصحابه أن تقسيمهم هذا مبدئى، وألا يندفعوا فى التعميم جزافاً.

هذه مدن أربع، زيورخ ولوسرن، ثون، جنيف [1]، كل منها يقع على طرف بحيرة، على جانب النهر الذى يصرفها؛ فهل هى تكون مجموعة طبيعية؟ الا يحق لنا أن نطلق عليها ذلك التعبير الجذاب، «طراز»، الذى يثير الخيال؟ بلاشك. اذا أردنا. ولكن ما هى قيمة تلك المقارنة بين ثون المدينة الثانوية، وبين زيورخ المدينة الكبيرة. عاصمة سويسرا الصناعية — أو بين لوسرن، مدينة الفنادق الصغيرة يؤمها الأجانب، وبين جنيف؟ فهل يشفع مجرد الموقع. أو الصفة الجغرافية المشتركة بينها فى الجمع بين هذه المدن المختلفة تحت طراز واحد، أو يمكن أن يخلق ذلك وجها للمقارنة بين وظائف هذه المدن؟ لا وجه للمقارنة فى الوظيفة بين هذه المدن اطلاقا. الواقع أن أهم عامل فى هذه المدن المختلفة هو وظيفتها، يمكن أن نقسم المدن الى أقسام وطرز حسب وظائفها كما فعلنا لدى الحديث عن الطرق والموانى، إذا أردنا أن يكون تقسيمنا للمدن على أساس سليم؛ وإلا فانه يجدر بنا أن نقسم الأمزجة العقلية لدى الأفراد حسب طول الأنف أو شكل العين.

ربما كان للوظيفة أثر فى شكل، أو مظهر، أو تخطيط المدينة، ولكن العكس [2] غير صحيح ولذلك فلابد من فهم هذه النقطة فهما جيداً. فعندما

---

(١) برون «٦٦» س ٢٤٥

(٢) هاسرت «١٥٤» بناء المدينة س ٩٣ — ١١٢

نقول أن « البندقية ، وامستردام ، ودانزج مدن قائمة على البحر أو قرب البحر ، وكلها تتفق فى كونها مدينة قناة : فهى ولاشك تستحق أن تجمع معا وأن تعقد بينها المقارنة [١] » فاننا لا نملك سوى أن نعلق على هذا الحكم ، ولكن ما قيمة هذه المقارنة ؟ هل هى تتضمن شيئا مفيداً أم مجرد أمر شيق؟ هل تزيد على الاشتراك فى صفة البناء على بحر ، أوقرب بحر ، أو على قناة ؟ وما قيمة هذا ؟ ليس كل مقارنة ذات قيمة فى نفسها ، فتقسيم ملوك فرنسا إلى ملوك سمان أو نحاف طوال أو قصار لا يقدم كثيراً فى معرفتنا بحكمهم، أو صفاتهم السياسية .

ويضيف نفس المؤلف الذى استشهدنا به فى الفقرة السابقة قوله[٢]: « انفائدة هذا التقسيم تنصب على الصفات الجوهرية التى تمتاز بها ، وبذلك نستطيع أن نقارن بين مدينة وأخرى ، بل بين جزء من مدينة وما يقابله فى مدينة أخرى تشاركها فى نفس الطبيعة الجغرافية » ودعنا نقتبس بعض أمثلته كيفما اتفق ، هامبورج ، بروغ ، متز ، « وستراسبورج بحيها المسمى Klein Frankreich — حى المصانع والطواحين ، حيث يتفرع نهر إل الى خمسة أفرع ، بأرصفتها وموانيها ، التى تحمل ذكريات « وطنية » عديدة مثل Zum Franzœsel [٣] ولكن ماهو ذلك القدر الجغرافى المشترك

(١) برون «٦٦» ص ٢٤٦

(٢) نفس المرجع

(٣) Seyboth, Strasbourg historique et Pittoresque, Strasbourg, 1894, P. 581.

مهما كان ضئيلا ، بين هذه الأحياء المختلفة . وربما كان من المضحك أن ننسب حى المصانع فى ستراسبورج الى صفة البندقية . واذا قيل لنا أن جميع الأحياء المائية فى المدن الاوروبية متشابهة فى أن السماء تظللها جميعا ، وأن بها منازل ، وأنها مطلة على الماء ، فاننا نقبل ذلك فى الجبال ، ولكننا لانقبل مطلقا أن يقال لنا أن هذه المقارنة جغرافية ، والا لأصبحت كلمة جغرافيه التى كانت تعنى أكثر مما ينبغى ، لا تعنى شيئا . وليس من شك أننا نستطيع أن نقارن أحياء معينة فى بعض المدن بأحياء مماثلة ، ولكن لاتعنى هذه المقارنة سوى رجل الأعمال . أن وجه الشبه بين متز وستراسبورج وبارلى ووك وعدد من مدن شرق فرنسا هو وجود حجرات تجفيف واسعة فى مبانيها ، وكانت هذه الحجرات تتطلبها صناعة معينة كانت تنتشر فى هذه الجهة من فرنسا ، صناعة يدعو اليها الماء الآسن ، وقد يدفع بنا الى أن نعتقد أن الانسان اهتدى الى حل واحد لمشكلة واحدة ، فهنا فى العادة كان على الانسان أن يواجه الحاجيات الصناعية باستعمال الأدوار الأرضية ، ولكن أين الجغرافيه هنا ؟ اذا أردنا أن نعتبر الجغرافية علما ؟ ان هذا لامر غامض .

لقد استطاع فيدال دى لابلاش فى الواقع أن يلخص مشكلة المدن ويحللها فى عبارة موجزة معجزة عندما قال «الطبيعة تهيء الموقع ، والانسان ينظم المدن بحيث تفى بحاجاته [1] » هذا حق صريح ، ولكن علينا أن نبدأ باضافة شيء من التمييز .

---

(١) فيدال ٤٠ ص ١٠٧

« الطبيعة تهيء الموقع » صيغة غير زمانية ـ اذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير ـ ومن هنا ينشأ الشك فيها عند المؤرخ ؛ فقد تسمح لنا بأن نخلط ـ كما فعل الجغرافي الذى اقتبسنا عنه مدن البحيرات ومدن القنوات ـ بين الصفات التى ميزها المؤرخ كاميل جوليان بعناية ، وقسمها الى عناصر هامة تضيف الى حيوية المدينه ـ وهى تكوين المدينة ونموهـــا . فأى دراسة تخلو من فحص هذين العنصرين والتمييز بينها ، تعتبر دراسة ناقصة لا يمكن قبولهـا ، ومن الممكن مثلا أن يكون موقع زيورخ ولوسرن وثون وجنيف على طرف بحيرة ، بالقرب من نهر يصرفهـــا ، من الممكن أن يكون هذا الموقع الخاص ذا أثر فى نشأة هذه المدن الأربع ، أى أن يكون لهذا الموقع أثر فى عصر تكوين المدينة ، واذا كان هذا صحيحا ، واذا هدتنا دراستنا لهذه المدن أن هذا الموقع بالذات كان له ذلك الأثر التكوينى فى نشأة المدن ، فاننا نرحب بتلك النتيجة ونغتبط بها ، أما أن نقول ببساطة أن مدينة كذا ومدينة كذا تشتركان فى صفة معينة للموقع وأن ننظمهما فى طراز واحد بمجرد ذكر تلك الصفة المعينة للموقع فأمر لاجدوى منه. فالمميزات الطبيعية من قديم أدت إلى ظهور عوامل مختلفة كل الاختلاف فى نمو المدن واكسابها أهميتها هى عوامل نمو ـ أو كما يسميها جوليان ـ عوامل تنمية .

- ٣ -

مدن القـــلاع

والآن فلنرجع إلى بعض الحقائق ، ونحاول أن نسلكها فى مجموعات ، على ضوء هذا التمييز الهام ، ودون أن يغيب عن أذهاننا اعتبار وظائف المدن ، وليس من شك أن هناك بعض خصائص طوبوغرافية ذات أثر فى وجه معين من وجوه وظيفة المدن : فهناك مواقع أسهل وأنفع وأوفى بغرض معين من أغراض نشأة المدن المختلفة .

*

وعندما نفكر فى وظائف المدن وأغراضها يتبادر إلى الذهن قيمة المدن الحربية ، هذه المدن التى تمتاز بحصونها وقلاعها . ولكن إلى جانب تلك الحصون والقلاع يجب أن تزود هذه المدن بمصادر طبيعية للقوة ومصادر القوة الحربية عديدة ومتنوعة مثل جبل سريع الانحدار أو تل ذو شرفات عديدة ناتئة أو صخرة تشرف على سهل ، ذات قيمة حيوية لأمة تريد أن تعتصم فى مركز حربى ، مثل قلعة أثينا ، Acrocorinthus ، Acropolis أو جبل أوكسيوس أو هضبة جيرجوفيا أو جبل Beuvray أو سرتة Cirta الأفريقية وإذا أضاف انحناءة نهر إلى ذلك عامل تحصين المدينة بخندق مائى صعب العبور ، فإن الموقع يزداد حصانة .

وقد روعى هذا التحصين الحربى منذ الأزمنة الكلتية ، وربما منذ أزمنة أبعد منها ، ومن أمثلة ذلك مدينة بيسانسون Besançon الحربية ، التى

كانت تسمى قديما Vesondio . والمدينة القائمة على جزيرة عاصم جيد ، من السهل الدفاع عنها ، مثل مدينة صور أو السيتى Cité أصل مدينة باريس وقلبها . وليس من الضرورى أن نعدد هذه الأمثلة فهى فوق الجدل ، على أننا نلاحظ أنه بمضى الزمن يقل عدد المدن الدفاعية شيئا فشيئا ؛ وليس معنى هذا أن حضارتنا لم تعد تعرف المدن الدفاعية ، ففى شرق فرنسا من لانجر وتول وفردان وبلفورت وهى لا تزال تلعب دورها العريق فى الدفاع عن فرنسا ، ولكن مما هو جدير بالذكر انه لم يكن هناك قسم جغرافى فيما يختص بهذه المدن كما سنبين فيما بعد .

فهذه المدن لم تكن النتيجة الطبيعية لصخرة أو انحناءة نهر أو مجرى ماء أو مستنقع — بل كانت أصلا من بناء الإنسان بإرادته .

وهناك أمر لاشك فيه ، هو أن الموقع الحصين ليس شرطا لازما لإنشاء حصن يواجه حاجة المجتمع للدفاع عن كيانه . فاذا نشأت هذه الضرورة فان الإنسان يحتال على تحقيقها بالاستفادة من أى مظهر تضاريسى ، كنتوء فى الأرض أو صخرة طبيعية أو وجود تلال ، ثم ينظم هذه المظاهر الطبيعية لتفى بحاجته ، أما إذا لم توجد فهو يستطيع أن يتصرف بدونها .

مثل ذلك إنشاء حائط دفاعى سريع الانحدار ، أو حفر خندق لكى يسد النقص فى طبيعة المظهر التضاريسى بالإضافة إلى حصانته الطبيعية ، أو يخلق هذه الحصانة صناعيا إذا لم توجدها الطبيعة .

وأحيانا لا يملك الإنسان اختياراً . فقد ينشىء وقت السلم والطمأنينة مدنا للتجارة والتبادل ولذلك فهو ينشؤها فى الإقليم المكشوف المشمس ،

سهلة الوصول إليها ، غنية فى مواردها الطبيعية ، ولكن الظروف السياسية قد تتغير ، وتظهر فى الأفق سحب الحرب والإنذار بالغزو[1] فلا بد من الدفاع عن المدن الكبرى التجارية التى أسست فى السهول ، إذ ليس من اليسير التخلى عنها أو نقلها الى مكان أكثر أمنا ، فملتقى الطرق الطبيعية الكبرى لا يمكن نقلها ، فعند غزو البرابرة ، وقت ضعف روما ، كان لا بد من العمل على تحصين المدن التجارية التى قامت عند تلاقى الطرق الرومانية والتى لا يمكن إزالتها . فلم يكن لسكان مدن فريولى وفينيتيا مفر من الفرار من التينوم وبادوا ورافينا كى يدفنوا أنفسهم بين المستنقعات الحصينة ، والعودة الى المرافىء الطبيعية قبل التاريخية ، ولم يكن بناءهم أكواما وسط المستنقعات والغاب التى لا يتوفر فيها مواد البناء ، من اختيارهم ، بل كانوا عليه مكرهين .

فمدينة بواتييه Poitiers القائمة على ملتقى ثمان طرق رومانية لا يمكن إزالتها . كما لا يمكن إزالة تور القائمة فى مركز شبكة تصل خيوطها إلى أورليانز ، الى مانز ، ونانتس ، وبواتييه ، وبورج وان كان هناك بقعة حصينة أخرى صالحة للانتقال اليها قريبة منها ، فإنها تنتقل اليها ويتغير اسمها وهذا ما لاحظه جوليان وما سنشير اليه فيما بعد . ولكن قليلا ما نجد مثل هذه البقعة قريبة من المدينة المهددة ، وهنا لا مناص من بناء تحصينات صناعية . وهنا يتحدى النبوغ البشرى الطبيعة . فهناك أنشئت كثير من المدن الدفاعية

---

(١) قارن على سبيل المثل Blanchet, le enceintes romaines de la Gaule, 1957 p.s.

المعروفة وسط أقاليم مسطحة ، وهى حربية فى أصلها وفى تصميمها ، لم تعرف وسائل للدفاع غير الحوائط والخنادق على غرار مدينة فوبان Vauban .

كما أنه يوجد أيضا باستمرار مواقع عديدة يمكن أن تستخدم للأغراض الدفاعية ، ولكن الإنسان أهملها أو على الأقل لم يستغل طبيعتها لبناء مدينة . وهنا يأتى عامل النمو أو التكبير ، كما يسميه جوليان ، وهذه العوامل أبعد ما تكون عن الطبيعة الجغرافية . فنمو المجتمعات المدينية وحياتها مشروطة على الأخص بعلاقاتها السياسية والدولية فى مختلف العصور ، و هذا ينطبق أيضاً على المدن الحربية الضعيفة . فقد تتغير الحدود أو تتعدل بواسطه بعض المعاهدات ولكن مظاهر السطح لا تتغير ، والميزات المادية التى تدافع عنها القلعة أو الصخرة أو الخندق لا تتغير ، فتقل قيمة مدن الحدود التى تعدلت وتصبح أدنى من قرية بسيطة . ومن أمثلة تلك المدن المحتضرة لاموت La Mothe التى تقمصت زمناً طويلا روح المقاومة اللورينية أو المدن التى لم تعد سوى متحف للعمارة الحربيـة مثل Semur en Auxois أو الكاركسون ، تلك المدن التى قضى عليها تغير الحدود أو ازدياد الأمن والطمأنينة فى الإقليم ، وأيضاً تشاهد الآن بعض المدن التى لا ترجع أهميتها الى قيمتها الحربية فحسب ، والتى تكتسب أهميتها من نواح أخرى ، بجانب كونها قلعة ، أو قائمة على منحنى نهر ، وهى تعانى أزمة كبيرة بسبب تغير الحدود فى الألزاس فى فرنسا وألم تعان مدن الألزاس بعض الصعاب بسبب تغير الحدود بين فرنسا وألمانيا ؟

- ٣ -

عوامل التكوين وعوامل النمو

خلق مدينة حربية أمر سهل فى الظاهر فقط . قد يظهر بسيط اذا ركزنا اهتمامنا الى عنصرها التكوينى مثل التل التى بنيت فوقه أو انحناءة النهر التى شيدت عليه . ولكن مظهر البساطة هذا يزول عندما نمعن النظر فى عناصر نموها . وهذا الفرق ظاهر فى كل مكان . فكثير من المدن تدين بنموها الى ينبوع ، مثل مدينة نيمس Nîmes ، التى لا يزال يوجد ينبوعها الشهير حتى الآن ، والذى كان يقدسه أهلها الى حد العبادة ، محققين عبارة بلينى «الينابيع تصنع المدن وتخلق الآلهة» فما لاشك فيه أن ينبوع نيماوسوس Nimausus حدد ميلاد مدينة نيمس ، فهو سبب نشأتها ، لولاه ما قامت تلك المدينة ، وليس هذا بمثل فرد ، فللماء فضل فى نشأة المدن حتى الان ، ألم يكن للمياه المعدنية أيضاً والينابيع الحارة فضل فى بلاد لاكسويل Luxeuil ، اكس لاشابل وبوربون.. . الخ وأليس لهذه المياه الفضل الآن فى ميلاد مدن فيشى ولوشون وداكس . . الخ ، ولكن ما أن تنشأ المدن ، أى تبنى المبانى حول الينبوع حتى يكف الماء عن التأثير فى تاريخها . فتتدخل عوامل أخرى ، عوامل ضرورية لتحويل هذا العدد القليـــل من البيوت التى قد تبقى قليلة ضئيلة مدى قرون ، إلى ذلك البناء العنصرى النشيط وهو لمدينة .

من هذه العوامل المختلفة ايجاد مركز للتبادل ، وهذا من أكبر عوامل

نمو المدينة ، وكثيراً ما تكون القلعة سوقا فى الوقت نفسه ، وكثيراً ما يقوم السوق تحت أبراج القلعة وبين الأسوار التى تحد المدينة ، (فقد كان طول أسوار قلعة Bibracte ثلاثة أميال وكانت تشغل ٢٥٠ فداناً وكانت أسوار قلعة جرجوفيا تبلغ ٢½ ميلا فى الطول ومساحتها ٢٠٠ فدان) ويسمى مكان السوق فى اللاتينية فورم Forum وفى لغة الغال ماجوس وهذان الاسمان يظهران فى كثير من أسماء المدن والأماكن الفرنسية [١] . ولكن ليس هذا بقاعدة مضطردة أو ضرورة من الضروريات ، فأحياناً يكتفى بإقامة الأسواق العامة المؤقتة [٢] التى تشبه المعارض فى وقتنا الحاضر ، بدلا من اقامة سوق دائم ، وهذه لايحتاج اقامتها الى أماكن معينة ؛ بل يكتفى بما تقدمه الهيئات المختلفة [٣] من أنواع الحماية للبائعين والمشترين . ويمكن أن نضيف الى ذلك أن أسواق التموين كانت قاصرة على النساء [٤] دون الرجال فى الأزمنة القديمة ، ولكن حينما ظهرت فى الأسواق مواد يحتاج فى جلبها الى سفر طويل ، يبدأ السوق فى التحكم فى تلك التجارة الواسعة المجال التى تحتاج الى حماية حربية وتلك هى وظيفة الرجل .

على أى حال نستطيع أن نقول أن كثيراً من المدن تدين فى نشأتها الى

---

(١) جوليان «١٧٢» جزء ٢ ص ٢٨٨

(٢) هوفرلان «١٦٥» ص ٩

(٣) نفس المرجع فصل ١٣

(٤) Lasch, Das Marktwesen auf den primitiven Kulturstufen (Ztschft f. Sozialwissensch, 1906)

التجارة وقد درس جوليان عدداً من هذه المدن فى بلاد الغال القديمة[1] وقد لاحظ جوليان أن هذه الأسواق قامت على أطراف المدن ، أو عند نقطة التقاء مجموعات مختلفة من المنتجين ، مثل هذا مدينة نيجون بالقرب من بورمونت (Noviomagus) وبين Liugons و Leuques ؛ وسوق Mosomagus سوق الميز والتى تسمى الآن موزون بالقرب من حدود ريمى و Treveri ، وسوق Tornomagus وهى تورنون (فى الاندر) على حدود اقاليم تورون و Biturges و Pictones — ولكن هذه الأماكن لم تلعب دوراً هاما فى الحياة الاقتصادية ، بل انها لم تلعب دورا بالمعنى الصحيح وهذا دليل آخر — ان أعوزنا الدليل — على ان للإنسان باستمرار الارادة فى ان يختار من المواقع المعينة ما يريده لكى ينشىء مدينة أو سوقا او مركزا اقتصاديا حسب حاجته فى الأوقات المختلفة كما ان Tongres فى العصر الرومانى و Quentoirc ، Tiel ، Durslede فى العصور الكارلوفيجى كانت المراكز التجارية فى الأراضى الوطيئة ، بينا لم يظهر سوى ليبج ولوفين ومالينز وانفرس وبركسل وبروغ وايبريس وغنت فى أوائل العصور الوسطى .[2]

ويختلف اهتمام الناس بالأسواق المختلفة باختلاف مستوى المدينة التى يعيشون فيها وطبيعة انتاج السلع المصنوعة ووسائل هذا الانتاج وحالة الطرق ووسائل المواصلات وفوق ذلك الأحوال السياسية والدوليه السائدة

---

(١) جوليان «١٧٢» جزء ٢ ص ٢٢٨٨

(٢) بيرين «١٦١» ٢ — ٤ ، ١٥

فى ذاك العصر . وهذه العوامل جميعا تقريبا تاريخيه أكثر منها جغرافيه وبواسطتها يؤثر المجتمع فى المكان . وهناك أمثله عديدة لأسواق اكتسبت أهمية وفقدتها دون أن يعتريها تغير فى حد ذاتها ، مثل ذلك اضمحلال سوق شامبانيا ، واستبدال موانىء الأطلسى بموانىء البحرالمتوسط فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر وأخيراً استبدال قادش بأشبيليه أو الهافر بروان . . كل هذه أمثلة توضح تلك القضية . ومن العبث أن ترجع عهد الكشوف الكبرى إلى أسباب مجردة ، فهذا يدخل فى نطاق التاريخ .

وهناك نوع آخر من المدن ترجع أهميتها إلى ان المواصلات أكثر من التجارة ، نعنى تلك التى ترجع فى أهميتها الى ما أطلق عليه جوليان « مظاهر الطريق » مثل المعابر والمخاضات والجسور أو مدخل منطقة غابات اومنطقة صعبة بصفة عامة ، أسفل منحدر شاهق أو أول محطة فى السهل بعد عبور سلسلة جبال أو ملتقى عدة طرق، مفترق طرق وربما أضيف إلى ذلك الموانىء اذ أن الميناء فوق كل شىء « مكان توقف » نهاية مرحلة على طريق هام ؛ إنه المكان الذى تلتقى فيه طرق البر بطرق البحر ، بل نستطيع أن نقول أنها محطة « إعادة تنظيم » . هذه المظاهر جميعاً عوامل تكوينية فى تاريخ المدن ؛ والمهم أنها جميعاً عناصر هامة فى تاريخ نشأة المدن ونموها .

فازدهار المدن واضمحلالها يرجع أولا إلى الطرق ؛ فقد تغير المدن مواقعها تبعا لتغير الطرق ، فإلى الطرق تدين بكونها مراكز تجميع الحاصلات الزراعية والصناعية وتخزينها أو كونها مراكز توزيع لتلك السلع إلى أماكن بعيدة . إذن فلا يعادل تاريخ الطرق شىء آخر فى تقرير مصير المدن ، سواء

أكانت نشأتها راجعة إلى طريق أو إلى ينبوع أو مكان مقدس أو قلعة على تل .

وأكثر من ذلك فإن قوة الطريق التكوينية لم تنته حتى الآن ، فنحن نستطيع أن نشير الى جماعات يرجع تجمعها إلى وقوعها مباشرة على طريق مواصلات . مثل المدن الصغيرة القائمة عند مداخل أنفاق الألب ومخارجها والمدن التى قامت عند تقاطع الخطوط الحديدية ، حيث تتلاقى أو حيث تتقاطع ، مثل لاروش وسانت جرمان دى فوسيه وسكانها الذين يرتزقون من الفنادق أو المكونين من عمال السكك الحديدية . تلك أمثلة توضح هذا الرأى ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه الحقائق جميعا لا تمت الى الجغرافية بصلة ، فمدن الأنفاق لا تشبه مدن الممرات التى تعلق عليها مدرسة راتزل أهميـــة كبرى ، كما لا تشبهها مدن السكك الحديدية التى قامت عند تقاطع الخطوط الحديدية أو تقابلها ، فنشأة تلك المدن الأخيرة ذات صبغة خاصة ، صبغة صناعية تختلف كل الاختلاف عن الظروف الجغرافية .

كذلك الأمر فيما يتعلق بالمدن الصناعية ، ويقال لنا أن توزيع هـذه المدن مرتبط بالموارد الطبيعية التى يمتـــاز بها الإقليم . ولكننا نستطيع أن نتشكك فى هذا الأمر . فالمناجم تجتذب مركزاً للتعدين ، وهـــذا طبيعى ، ولكن حرفة التعدين لا تمتاز بالثبات قط . فهى نتيجة مظهر اقتصادى أو سياسى معين . تعتمد على مستوى المدنية التى يتمتع بها أهل الإقليم أكثر مما تعتمد على الظروف الجغرافية بالمعنى الدقيق فاستعمال البوكسيت أو الفلورسبات أمر حديث ، والمعادن الأوليثية أصبحت ذات قيمـة أضأل عند

المعدنين وكانت المعادن الفوسفورية عديمة القيمة حتى زمن حديث عند ما بدأ الاهتمام بها يزداد شيئاً فشيئاً . كل هذه أسباب أحدثت تغيرات كبيرة فى بعض مناطق معينة وهذه ترجع الى تقدم العلم والمعرفة الآلية ، والى ظهور حاجيات جديدة : وتلك أسباب لا تمت الى الجغرافية بصلة ، وليس أدعى للاهتمام أو أكثر تشوقاً من دراسة الأسباب المحلية لنشأة الصناعات ودراسة المجتمعات التى تعتمد عليها ولكن كيف لنا أن نفسر قيام كليرمونت فران — مثلا — ونموها على صناعة المطاط ؟ فالإقليم الذى يحيط بهذه المدينة سيء المواصلات براً وبحراً ، كما أن المدينة لا تملك أى مطلب من مطالب الصناعة ، ونحن أمام مدينة من خلق الإنسان ، أو بالأحرى جهود عدد قليل من الرجال ، وهنا نجد أنفسنا أمام ظروف مفتعلة تماماً(١) وامام حالة كانت الظروف الطبيعية فيها اضعف بكثير من مجهود الانسان وحتى هذا الجهد لم يعتمد على امكانيات جغرافية .

وهل تحتاج الآن أن نتحدث عن العواصم السياسية . والمراكز الدينية الكبرى ، أو عن مراكز العلم والمعرفة ؟ ولا شك أن أهمية الطرق التى تشرف عليها العواصم تفسر جزئيا الدور الذى تقوم به العواصم الكبرى وتفسر نموها ، والحقيقة التى لا مرية فيها أن مركز باريس فريد فيما يتعلق بسهولة مواصلاتها ببقية أنحاء فرنسا وأن أهمية برلين ترجع إلى موقعها عند تقابل الطرق المائية الكبرى فى ألمانيا ؛ ولكن موقع العاصمة لا يفسر قط

---

(١) Bataillon (L.), Clermont-ferrand Ville industrielle (Action nationale 25 octobre 1920)

حجمها ولا ثباتها ، ولا السبب الذى من أجله أصبحت عاصمة . فكم من مدينة فى أوروبا فقدت صفة العاصمة فجأة لأسباب سياسية وتاريخية ولا علاقة لها البته بموقعها ؟ فقد دانت فرسايل بمولدها إلى نزوة ملكية ، ولم تسبب الظروف الجغرافية سقوطها (١) والواقع أن الدولة تصنع العاصمة وأن ازدهار العاصمة من رقى الدولة واضمحلالها من اضمحلال الدولة ولذلك كان أثر العوامل التاريخية والسياسية أعظم فى تطور العواصم من الظروف الطبيعية التى ساعدت على قيامها .

أما عن مراكز المعرفة والدين ، فهل نحتاج إلى أن نذكر أن عدد طلاب الجامعات الألمانية يتراوح كثرة وقلة حسب قدوم أستاذ أو رحيل آخر؟ هل كانت للظروف الطبيعية أى أثر فى نشأة القيروان وتلمسان أو لورد التى اجتذبت آلاف الحجاج ؟ وهناك مدن سياحية ، فهل هى أمثلة كبيرة على الحتم الجغرافى ؟ فيكفى أن يؤم المدينة رحالة مشهور أو طبيب هام أو رياضى معروف حتى تغدو قبلة الأنظار ، تلك المدن السياحية تنشأ وتتطور وتنمو على أسس غير صالحة أحيانا لنمو مدينة. واننا لنرى كيف أن الأسواق العالمية وحالتها من الرخاء والشدة قد تؤثر على حياة هذه المدن ، أو تودى بها وتتركها خرابا بلقعا .

(١) Foncin (M.) Versailles, étude de géographie historique, XI, t.xxvIII. 1919, p.321 sq.

— ٤ —

الانسان والاحتمالات المدينيه

استغلال الاحتمالات هى المشكلة الجغرافية الوحيدة الصحيحة ، ولكن هـذه المشكلة تبلغ من التعقيد حـدا يجعل من الحق أن نحـاول من الصيغ البسيطة أو بأحـد القوانـين الجغرافيـة المزعومة ، ومن فضل الرسائل التى كتبت عن المدن والتى أشرنا اليها ، أنها أثبتت هذا البيان ، ومن أهم هـذه الرسائل وأحراهـا بالانتباه ، تلك الـتى حررهـا بلانشار عن مدنيـة أنسى Annecy ونشرها فى ملخص أبحاث معهد الجغرافية الألبية فى جرينوبل؟ (١)

تتصل أنسى بموقعها بمقاطعات عديدة غير متسعة المساحة ، وتقع عنـد نهاية ممر ضيل ملتو عسير ، ولذلك لم تهيؤها الظروف كى تحتل مركزا ممتازا ، ولـكن موقعهـا ليس بسيطا ، فموقعهـا يتألف من اتحاد عدد معين من العناصر المختلفة .

فهنـاك حافـة صخرية ، السمنوز Le Semnoz ، تشرف على البحيرة والمنطقـة التى تحيط بها ، وهى صالحـــة للدفاع وهناك تل منخفض . تل

---

(١) Recual Traimaux de l, Institut de geographie. Alpine de Grenoble. T.IV, 1916, Fasc. lv.

أنسي القديمة ، خصب التربة ويتجه نحو الجنوب وملائم لزراعة الفواكه ، أما ساحل البحيرة فمعرض لخطر الفيضان ، غير مأمون الجانب وغير صحى ولكنه يمد المدينة بالسمك،ويسمح بمواصلات مائية سهلة وله قيمة دفاعية أما السهل الذى تقوم عليه المدينة فهو جاف خصب ، تربته خفيفه يسمح بسهولة الحركة وقيام الزراعة وتكاثر السكان وأخيرا فوجود نهــــر منتظم الجريان يقدم تسهيلات كبيرة للصناعة .

كل هذه العوامل لها ميزاتها ولها مضايقاتها ، ولا يستطيع عامل واحد منها أن يؤمن تماما قيام مدينة ولكن من الحقائق المعترف بها أن المدينة ظلت حيرى بين هذه العوامل المختلفة ، تارة يدعوها عامل من هذه العوامل إلى القيام فى بقعة معينة ، وتارة يجتذبها عامل آخر إلى القيام فى بقعة اخرى ، تتحرك من البحيرة الى السهل ومن السهل الى التل وتقفز من التل الى صخرة سمنوز وتهبط ثانية إلى ضفة نهر ثيون Thion وتتحول من موقع يجتذبها فى وقت من الأوقات إلى موقع آخر يجتذبها فى وقت آخر حسب مقتضيات الظروف والأحوال التاريخية . ولكنها فى كل مرة من هذه المرات تقوم مدينة فقيرة بسيطة سيئة التكوين . ولا بد من زيارة المدينة الحديثة لنرى كيف أنه كان ينبغى أن يستفاد من جميع هذه العناصر المختلفة وأن تبنى المدينة على هذا الموقع المركب المتعدد المظاهر وأن تستفيد منها جميعا فى آن واحد . فساحل البحيرة مصدر جمال ، وسهول الفنز تغطيها المبانى الملائمة ، وتل أنسى القديمة يغطيه البيوت الريفية والفيلات الأنيقة ولا تزال حافة سيمونز مركز المدينة وأخيرا فنهر ثيون أصبح — أكثر من

أى وقت مضى ـ روح المدينة الصناعية . وهكذا تم استغلال جميع عناصر الموقع الطبيعة ، مما جعل انسى مدينة كبيرة جميلة ، تأسس ازدهارها على عناصر متنوعة تستطيع ـ كما يبدو ـ ان تواجه خطوب القدر .

تلك رسالة كبيرة الفائدة وفى الوقت نفسه مثل جيد للدراسات التى كتبت عن المدن ، وتلك ملاحظة ساقها كاميل جوليان تناسب المقام تماما [١]. فأن كانت المدن أو الاماكن قد غيرت أسماءها فى كثير من الأحيان ، فان ذلك كما يخبرنا راجع الى تغير السكان أو تغير عاداتهم فقد يحدث أن يتغلب اسم حى واحد على المدينة كلها فلمنكوم مثلا لم تصبح شامبرى Chaurbéry ، اذ أنها لاتزال موجودة ، فلمنك Lemincum على الربوة المرتفعة الى يمين الطريق ، بينما شامبرى تقع على يساره وعندما أزدادت أهمية شامبرى طغت على بقية الاجزاء وأطلق أسمها على المدينة كلهـــا « لاتقل أن اسم فليرى سير لوار Fleury - Sur - Loire قد تحول الى سان نيو Saint-Benoit صحيح تغير اسم المجموعة كلها ، ولكن لايزال اسم فليرى يطلق على أحد أحياء المدينة الحديثة » [٢] وفى الواقع لاتوجد دراسة أمتع من دراسة نشأة الأحياء المختلفة التى تتكون منها المدن الفرنسية وقد قضى كاميل جوليان عدة سنوات يحضر فى هذا المـــوضوع فى الكوليج دى فرانس [٣] وبعد أن

---

(١) Jullian,Rev. des Etudes anciennes, t.xxll,1920,p.23.

(٢) نفس المرجع

(٣) أنظر Jullian, Rôle Monuments dans la formation topographique des villes (Rev. des cours et conférences, 22 ann. Mars 1914. No 8).

اكتملت لديه عناصر دراسته التى استقاها من عدة بلدان فرنسية ، توفر على تحليلها واستخلاص وظائف الأحياء المختلفة والدور الذى تلعبه فى حياة المدن وأن ملاحظاته الأخيرة عن ائتلاف الأحياء المختلفة فى مدن تقدم لنا آراء ناضجة مثمرة جدا ، وأنها تفتح للمؤرخين ميدان بحث جديد لاشك فيه فى تاريخ المدن .

نحن نقول « للمؤرخين » ولسنا نعنى بذلك إقصاء أى باحث آخر مستعد لأن يقدم معونة ، وما نريد بذلك أن نثير الموضوعات المحلية بين مدرسة أو أخرى ، تلك الموضوعات التى تعتبر عارا فى جبين العلماء ، أن لم تكن فى جبين العلم نفسه ، ولكننا أردنا أن نقول أن هذه الأبحاث لا تمت فى الواقع الى الجغرافية بأى صلة ولئن قام بهذه الدراسة بعض الجغرافيين المجربين . فأننا لنميل الى أن نجد فى بعض « الجغرافية الاجتماعية » تاريخا مجددا فى مصادره ، مجددا فى مناهجه . انقلابيا لحسن الحظ فى موضوعاته .

— ٥ —

هل ضعف أثر الظروف الطبيعية على الانسان

أن مثل أنسى يجعلنا نسأل ذلك السؤال القديم : هل ضعف أثر الظروف الطبيعية الآن على الانسان ؟ فى رأينا هذا سؤال لا يمكن الاجابة عليه بالنفى أو بالإيجاب ولاشك أن من السهل أن نبنى من بعض الحقائق القليلة قضيتين تعارض أحداهما الأخرى. احداهما تستقى أمثلتها من انتصارات الحضارة الحديثة والأخرى تعتمد على الحضارات القديمة. ألم ينقذ التقدم الحديث الانسان من مجابهة الاقاليم الزراعية الطبيعية فى الجهات التى يسكنها. وألم يجبر التربة على انتاج الفواكه وغيرها من المحاصيل رغم أنف المناخ ؟ وأليست المدنية الحديثة - كما رأينا شديدة اللهفة على استغلال جميع عناصر البيئة الطبيعية ؟ ألم تعد للمراعى الجبلية قيمتها ، بعد أن إحتال الانسان على طلب الحبوب من أطراف الأرض وحول جهوده الى العناية ببيئته المحلية وبصناعة الرعى ؟ وهكذا تحولت سفوح الجبال الى مروج خضراء وعلى رأى أربوس Arbos فى كتابه عن الرعى « أن تقدم المدنية لم يزد على أنها استغلت الظروف الطبيعية استغلالا اقتصادياً » هذه الحقائق التى يمكن مضاعفتها تؤيد القائلين بأن حضارتنا الحديثة تسير نحو التناسل[1] وهم يدعمون نظريتهم كذلك بجهود المستعمرين الحديثة فى الأراضى الجديدة

---

(١) أنظر أعلاه الباب الثاني ، الفصل الثالث ٣

فهناك يتحسس الانسان طريقه لاول مرة . فهو لا يقتبس دفعة واحدة ، يخطىء ولكن لا تلبث ارادته أن تسود وهدفه أن يتحقق ، ولماذا نعدد الأمثلة ؟ فربما كان من الأفضل أن نفسر تفسيرا صحيحا مايتوارد الى أذهاننا من أمثلة .

هل يجب علينا أن نسلم بخضوع الانسان للطبيعة ؟ لقد قال ذلك حديثاً أحد الكتاب الذين بحثوا عن جغرافية مدينة مارسيليا[١] وقد بين بوضوح كيف أن موقع المدينه كان خلوا من أى ميزة ، فالأرض مقطعة تقطيعا. تشقها المسايل فى كثير من المواضع ، ولم تكن هناك بقعة مسطحة صالحة لا بناء الاقليم إلا فى الجنوب بل هناك سلسلة من التلال تحيط بالاخدود الذى يكون الميناء : وفوق ذلك فهى خالية من الماء والمناخ غير ملائم والأمطار قليلة (٦٥٠ مليمتر) سئية التوزيع (على ٥٥ يوم) فى الشتاء . تهب عليها المسترال قوية لافحة فى الصيف ، باردة جدا فى الشتاء ؛ يحيط بها مدرج من الصخور الجيريه الجرداء تنحدر مسرعة نحو البحر غربا ، مكونة عقبة كئودا فى سبيل المواصلات . والحق أن العامل الفرد الذى أقام الميناء هناك هو وجود ميناء مثالى ، هو ميناء لاكيدون Lacydon .

ولعلنا لانجد مثلا أفضل من هذا من أهمية العناصر المكونة للبلدان ، التى يسمونها نويات المدن كما تحدثنا عن نويات الدول .

وليس هذا المثل بالفريد فى نوعه ، فقد تحدث بلانشار عن جرينوبل

---

(١) G. Rambert, l,agglomération marseillaise, ètude de géographie urbaine (la vie urbaine,1919, no.3)

التى شيدت فى مكانها الحالى بالرغم من المناخ ومن الرياح القارصة الشمالية ، ومن خطر الفيضان فى النقطة الوحيدة التى يقابل فيها نهر ايزير نهر الدراك Drac ؛ وألم تواجه تولوز فياضانات الجارون الجارفة لكى تحافظ على مكانها على النهر حيث تتقاطع عدة طرق كبرى ؟ ولكن أى نتيجة يريد المؤلف أن يصل اليها من هذه الأمثلة ؟ أن الانسان ليس عبدا الطبيعة ؟ أنه يتحداها ، ويسخرها ويواجه بشجاعة كل صروفها ، ما دامت له مصلحة بشرية فى ذلك . هل هذا ما يجب أن يصل اليه المؤلف ؟ كلا بل أنه ينهى من كل هذا بقوله ، يجب على الانسان ، اذن ، أن يخضع لقوانين الطبيعة ، [1] وهذا لأنه وجد أن أهل مرسيليا قد توسعوا فى أسهل الجهات صلاحية للبنيان وأنه راعى اختيار كل الصفات التى يمكن أن يعثر عليها ، وبنى على هذه الحقيقة التى تدل اليها البديهة السليمة حكمه ، هذا مثل رائع لأثر الطبيعة على الانسان » ومن الحق أيضا أن الانسان بدأ باحتلال المنخفضات ، حتى اذا ما ضاقت عليه زحف على سفوح التلال الوعرة وهنا نجد النتيجة ، مثل آخر رائع لاستجابة الانسان لقوى الطبيعة . [2]

أليس لنا أن نأسى بعد ذلك على ذلك الأسر الذى يقع فيه الباحثون المجدون ; وهم فى ربقة فلسفة صبيانية ، تدور حول أثر الطبيعة على الانسان ولولا تلك الملاحظات المتلاحقة لكان عمل هؤلاء الباحثين رائعا ، مفيدا ، دقيقا ، يستحق كل ثناء .

«١» ص ٣١٤ من المرجع السابق

«٢» ٣١٥

هناك وسيلة واحدة للخروج من هذا الجدل البيزنطى : هل هى الطبيعة التى ...؟ أو الانسان الذى ...؟ الحق أن السؤال الذى يجب أن نسأله ، ليس كما يأتى. هل ضعفت قبضة الظروف طبيعية على الانسان ؟ » كما وصفه العرافون والمنجمون وأتباع الطبيعة البدائية المؤرخين، أو الجغرافيين ، بل أن المشكلة حقاً فى السؤال الآتى » هل قويت قبضة الانسان على الطبيعة ؟ ولا ريب فى الاجابة على هذا السؤال .

ليس طلبة سان سير[1] وحدهم هم الذين « يدرسون ليقهروا » . ان الانسان المتحضر ، بفضل فتوحات العلم وبفضل التقدم العلمى الآلى ، لم يعد قانعاً كأسلافه باستعمال النار لمواجهة الطبيعة ، إنه لا يحرق الغابات و المراعى ويغير وجه الكرة ويشوهها ، كمن يحرق منزله لكى يسلق بيضة ، كلا انه يستغل سطح هذا الكوكب بمهارة تدهشنا اذا توقفنا وركزنا فيها فكرنا لحظة واحدة ، ليس هناك « طبيعة » جاهزة يأخذها قضية مسلمة وينحنى لها باحترام ، انه — دون أدنى اعتبار للطبيعة البكر — يدخل نباتاً هنا ، ويلغى نباتاً من هناك ، ويقلب بعض الاقتصاديا ـ رأساً على عقب . لأنه يتسير بالصناعة الرأسمالية الحديثة ، التى تتطلب باستمرار مواد أولية من نبات وحيوان لكى تطحنه وتسحقه وتحوله .

وهاك مثل الثورات الاقتصادية التى تتابعت فى سيلان خلال ثلاثين عاما الماضية . لقد كانت سيلان منذ أجيال طويلة موطن التوابل والبهارات

«١» الكلية الحربية فى فرنسا «المعرب»

ولكن عندما لم تعد للتوابل تجارة رابحة أصبحت سيلان جزر البن. ولكن الانسان أدخل محصول البن على نطاق واسع فى البرازيل . ولذلك تخلت سيلان عن البن وتحولت نحو الشاى ولكن البرازيل أقلمت الهفيا Hevea وكانت لتلك التجربة نتائج باهرة . لهذا إستبدلت سيلان المطاط بالشاى وأصبحت سيلان جزيرة المطاط لدرجة أن أمريكا الجنوبية تخلت عن هذا المحصول – وهى موطنه – كما تخلت عن الكينين لجزيرة جاوة . وما تلك بالنهاية . قديما أصبحت سيلان جزيرة القطن وغدا . وماذا بعد غد .

ولربما قيل ان كل شيء يعتمد على المناخ والتربة. تتعذر الزراعة بدونهما. وربما اجبنا على ذلك إن الرى والسماد الطبيعى والصناعى والطرق العلمية فى الزراعة وفى النقل . كل هذه تذلل الصعاب الطبيعية. ولا شك ان هناك حدوداً لكل شيء ولا يدور بخلد أحد أن الأناناس يمكن زراعته فى جرينلندة . ولكن فى كل نطاق مناخى نباتى متسع لمئات من الزراعات التى يمكن أن تنتج تحت ظروف المناخ والتربة المحليتين ، والى يمكن أن تنتج ليس لذلك التجريد البغيض « الانسان » بل للصناعة الحديثة التى تلتهم المواد الخام فى كميات كبيرة وعلى نطاق واسع ، لأسباب بعيدة كل البعد عن « العوامل الطبيعية » ولكن لأسباب مالية واقتصادية ، وأى جنون يمكن أن يدفعنا الى القول بأن الظروف «الطبيعة» هى التى تحكمت فى توزيع النباتات الزراعية فى الأقطار الجديدة التى فتحها الانسان المتمدين واستعمرها حديثاً؟ ففى بلد مثل نياسالاند

«١» المطاط الطبيعى

كانت تنمو أيام راتزل عندما كتب « الجغرافية السياسية » نباتات زيتيـة فى السهول المنخفضة بالقرب من البحر ، بينما كان البن والشاى والنيلة تزرع على الهضبة بعيداً عن البحر ، فهل كان السبب فى ذلك راجعاً إلى التربة أو المؤثرات المناخيه ؟ كلا ، بل أجور النقل ، فالبن والشاى والنيلة محاصيل ثمينة ، غير ذات حجم كبير ، بينما النباتات الزيتيه ثقيلة ، قليلة القيمه ولا يمكن أن تكون مربحة الا اذا كانت قريبة من الموانى للإصدار ، فالربح وحساب تكاليف الانتاج هى التى تحكم العالم الآن وليس « الطبيعة » .

ولكن هل دراسة تلك الثورات الاقتصادية والخلقية داخلة فى نطاق الجغرافية ؟ لاريب ولكن بتحفظ .

فالانسان ، وعمله ، وآثاره المادية التى تتركها جهوده على سطح الأرض كل هذه تكون ، كما كانت تكون فى الماضى ، الآثار الجغرافيـة على سطح الكوكب . فكما قال فيدال دى لابلاش ، ومن زمن طويل « ان الانسان بمؤسساته التى يخلقها على سطح الأرض ، بآثاره على الأنهار ، بل وعلى شكل تضاريس الأرض . وعلى الحيوان والنبات ، كل هذا ينتمى إلى الجغرفية؟. والفرق بيننا وبينه أنه يبحث عن السبب ، وليس عن الأثر .

الانسان مخلوق وهب القدرة على السلوك الذاتى ، مزود بأسلحة لمجابهة قوى الطبيعة غير هياب ولا وجل ، واثق من أنه سيصل إلى هدفه فى النهاية ـ ألم يفتح برزخ بناما بعد أن أتم فتح قناة السويس أليس يستطيع إذا شاء أن يحفر أنفاقا تحت بحر المانش ، ألم يحرر نفسه من قيود الأرض

ويطير فى أجواز الفضاء وأليس بقادر على تحويل «عراق» نيجريا إلى حقول واسعة من القطن عندما يجد أن الصناعة تحتاج الى ذلك ؟ أن مصلحته فقط هى التى تملى عليه مايريد .

وهكذا الانسان، متمدينا اليوم ، قد أخرجته الجغرافية كمخلوق سلبى ، ولكنه رغم هذا قد احتل مكان الصدارة كعامل سائد من جديد .

خاتمة

واجبنا الحالى ـــ المناهج الحيوية والمناهج الجغرافيه

أننا لا نرى أن كتابا كهذا يحتاج لخاتمة . فما هو بكتاب مقرر ، وليس هو بدراسة كاملة ، ولكنه بجرد مناقشة نقدية ، حاولت أن تصل الى خاتمة عند كل مرحلة انتهت اليها ، وأى تلخيص لها يصبح تكرار لاجدوى منه.

ولكن قبـــل أن نترك القارىء ، يصح لنا أن نعود الى نقطة واحدة تمكننا من الرد على أى اعتراض . فكل نقد يعرض صاحبه الى شك مزدوج انه يخلق مادة للنقـد كى يتيح لنفسه فرصة هدمها ، وأنه لايقدم لنا الا عملا هادما سلبيا ، ونحن نعتقد أننا لانستحق أى الاتهامين .

. . .

قد يعترض علينا أن كل هذا الحديث عن الحتم الجغرافى انمـا هو وهم لاوجود له فى الحقيقة ، فليس هناك من يعتقد فيه أو يتحدث عنه الان وهنا لن يعـدم المعترضون عدداً كبيراً من الكتب ومن القصص الصحيحة التى لا تقبل الشك ، وكلـها يهاجم الحتم الأعمى ، هذا صحيح ، ولكن فلنتذكر دائمًا تلك الفقرة التى اقتبسناها من راتزل فى مطلع هذا الكتاب،

وليس راتزل بالوافد الجديد أو الذى لايؤبه له فى ميدان الجغرافية . ولعله من الخير أن نكرر تلك الجملة المأثورة عنه عن سطح الأرض « المتشابهة دائما ، الموجودة فى نفس الموضع من الفضاء ، وهى مكان ثابت يحمل آمال البشر المتغيرة باستمرار » هذه الأرض التى « تتحكم فى مصاير البشر تحكما أعمى لارحمة فيه » كما يستطرد راتزل، تلك الأرض التى تذكر الناس بقوتها إذا عن لهم أن يتجاهلوها ؛ وتحذرهم باستمرار بأن حياتهم كمجموع تنظمة دولة إنما تضرب بجذورها فى تربة الأرض » وأخيراً فهو يردد الحكم الأخير الذى يجب أن نتذكره باستمرار « يجب أن يعيش الناس على الأرض وأن يرضخوا لحكم الأقدار ، يجب أن يموتوا عليها مسلمين بما قدر لهم » .

ولحسن الحظ ، فان كتاب مؤسس الجغرافية البشرية ملىء بالحقائق والأمثلة التى تكشف اللثام عن خطأ هذا التأكيد التقريرى إلى أن راتزل وحده ليس معين الجغرافية الأوحد،فهناك فيدال دىلابلاش الذىلم يقبل النظرية على علاتها ، بل فكر وقدر وعبر عن آرائه الناقدة بحماس من عنده هو أيضا ، وكرر نقده لهذه الغلواء (بأوسع معانى الكلمة) التى ركن اليها راتزل، وأكثر من هذا فانه لايزال فى العالم الان اتباع لراتزل أو للراتزلية الجديدة ، الذين فى محاولتهم لتصحيح آراء راتزل ، اضطروا إلى غلواء أبعد من غلواء أستاذهم ليس هذا فحسب ، بل هناك الجغرافيون الذين عارضوا راتزل أشد المعارضة . ولكنهم ناقضوا أنفسهم وتورطوا فيما وقعوا فيه من متناقضات ، فان المدرسة القديمة لاتزال تستحوذ عليهم وعلى تفكيرهم،وعلى مايزعمون من مؤثرات » .

لا يستطيع أحد أن يزعم أننا نناقض أنفسنا عندما ندافع عن الجغرافية البشرية ضد نقد علم المورفولوجيا الاجتماعية ـ أو بعبارة أدق دفاعنا عن حقها فى الوجود الحر المستقل ـ بالرغم من أننا كنا ناقدين لأنفسنا فى صفحات الكتاب بأكمله . فليس نقدنا موجها ضد الجغرافية البشرية فى ذاتها ولكن ضد أى تصور غير صحيح لها أو لطبيعتها . كما أنه يجب أن يلاحظ أننا أعتدنا فى بحثنا كل الاعتماد تقريبا على كتابات عقل لم يخترع مطلقاً الجغرافية البشرية (ومن من الناس « اخترعها » ؟) ، كتابات عقل كبير لم يسمح لنفسه أن يضلل أو يتأثر بالتعميمات الكبيرة الجريئة ، أو بالآراء المفلسة التى تخفى خطأها وراء احتمالات فلسفية ، أو بنظريات راتزل المهلهلة ـــ التى لا تؤيدها الحقائق مطلقا ـــ ولكنه بنى لنفسه بصبر وتؤده، وتواضع وبدون أى ضجة ، خطوة خطوة ، عن طريق التفكير المستقل، طريقة مثمرة للبحث فى مشاكل « الجغرافية البشرية » .

ولا حاجة لنا مطلقا الى أن نحذر تلاميذه وأتباعه أو معتنقى آرائه أو هؤلاء الذين يتابعون طريقته المفيدة المتواضعة ، من المغالاة والتطرف أو أو التبسيط الضعيف الخطر ـ ونحن لم يخطر لنا ببال أن نفكر فيمن يسمون أنفسهم جغرافيين الذين وجدوا من أنفسهم الجرأة على أن يظهروا للملأ بناء طموحا فارغا لاينهض على أساس متين ، ولايصلحون إلا للتأثير على الجهلة أو الهواة العوام ، فهؤلاء لا يعرفون تماما ما تقدم أيديهم . انما نحن نحذر الطلبة مخلصين ؛ ولا سيما هؤلاء الذين يهتمون بكتابات من سبقهم الذين أورثوهم المشاكل التى لم يستطيعوا حلهـــا ، وهى موجهة إلى الذين

يستخدمون كلمة « مؤثرات » والذين يلتقطون بعض آراء الجغرافيين دون تمحيص أو اختبار ويحاولون أن يستنتجوا منها كثيراً من المبادىء أو النظريات عند دراستهم للتاريخ أو الأدب أو الفن على طريقة تين Taine القديمة.

أن المشكلة لا تزال غير واضحة ، وطريقة معالجتها ليست كاملة بعد . ولكن عذرنا أنه ليس بين أيدينا بعد العدد الكامل الشامل من الدراسات وقليل من الدراسات المقارنة الممكنة وهذا ما يجب أن نقوله وأن نكرره حتى لا نسمح لأنفسنا بأن تغرنا المظاهر البراقة الكاذبة التى قد تخدع البسطاء .

* * *

أننا لن نتعب من أن نكرر أن غرض الجغرافيا ليس البحث عن «المؤثرات كتأثير الطبيعة على الانسان ، أو الأرض على التاريخ . فهذه أوهام . فتل هذه التحديدات لا شأن لها فى أى دراسة عميقة . بل وكلمة « مؤثرات » لا وجود لها فى القاموس العلمى ، بل هى تعبير وهمى. اذن فلنترك المؤثرات جانبا نهائيا،نتركها للمنجمين والمهرجين كما قال الأستاذ بودان Bodin بالرغم من أنه انزلق فيها بنفسه .

الحق أننا إما أن ندور حول أنفسنا مكررين بعض الكلمات التى نرفعها إلى صفة القوانين بمجرد كونها كلمات مجردة تزعم أن الانسان خاضع للطبيعة ، أو الطبيعة خاضعة للانسان ، وإما أن نعالج المشكلة وجها لوجه . أنها مشكلة « علاقات » وليست « مؤثرات » . كلمة « علاقات » كلمة معقولة ولا يحيطها الغموض .

ما هى العلاقات بين المجتمعات البشرية الحالية وبين بيئاتها الجغرافية؟ هذه هى المشكلة الأساسية والمشكلة الوحيدة التى تحاول حلها الجغرافيا البشرية .

ولسنا بهازلين اذا قلنا « المشكلة الوحيدة » إذ اننا نرى أنه يجب علينا أن نميز بين مشكلتين فالجغرافيا البشرية من ناحية عليها أن ترينا الى أى حد وبأى طريقة يعتبر الانسان عاملا جغرافيا، مثله مثل الماء أو الرياح أو النار التى تعمل فى سطح الأرض بالتغيير والتعديل ومن ناحية أخرى على الجغرافيا البشرية أن تبرهن أن العوامل الجغرافية كالسطح والمناخ . . ألخ . تلعب دورا حاسما كبير الأهمية فى حياة المجتمعات البشرية . والفرق بين الأمرين فرق أكاديمى دقيق لا يؤدى فى الواقع الى شىء .

فالانسان لا يقف بعيدا عن بيئته وهو يعمل فيها ، فهو لا يهرب من قبضتها فى نفس الوقت الذى يحاول أن يجرب حظه فيها .

فالطبيعة التى تعمل فى الانسان والتى تعدل من شكل المجتمعات البشرية ليست طبيعة عذراء ، مستقلة عن كل أثر انسانى ، فهى طبيعة قد تناولتها يد الانسان بالتعديل والتشكيل ، فهناك باستمرار تفاعل وتجاوب بين الانسان والبيئة ولذلك فانه يستحسن أن نقول أن هناك علاقات متبادلة بين المجتمع والبيئة ، وهذا التعبير صحيح فيما يتعلق بالحالتين السابقتين المتمايزتين . ففى هذه العلاقات الانسان يأخذ ويعطى كما أن البيئة تأخذ وتعطى .

ويجب على من يتصدى لبحث العلاقات المتبادلة بين المجتمع والبيئة أن يكون على علم تام بحقيقة الطبيعة واصفات المجتمعات البشرية الحقيقية .

سيقولون لنا « معرفة تامة بالبيئة الجغرافية ! » هذا أمر لا شك فيه لا بأس عليهم فيما يقولون . ولكننا لا نطلب هـــذا النوع من الدقة الهادئة الوادعة ، التى تتأتى من قراءة الكتب والأبحاث ، مهما كانت جيدة ، بل نريد المعرفة العلمية ـ بكل ما تتضمنه من أنكباب على العمل وشك وحماس ، يجب أن نتذكر أن الجغرافيا الطبيعية لم تولد الا بالأمس القريب : وأنها علم حديث جديد ، وأنها لا تزال تقتصر على عدد كبير من العلوم الأخرى الحديثة بدورها . والتى تظهر فيها كل يوم اكتشافات جديدة ، أما عن المستقبل فنحن لا بد لنا أن نعتمد على الدراسة القائمة على ملاحظة البيئة ملاحظة شخصية مباشرة ، ملاحظة جميع عواملها ، والانتباه الى صفاتها الرئيسيه والثانوية، ولا نعتمد على المعلومات السطحية المستعارة من الدراسات الأولى . هذه هى الخطوة الحاسمه اللازمه لتقدم الجغرافيه البشريه .

إن ميـــدان العمل فسيح ، فى البحث والتفكير، فهناك أولا الجغرافية الطبيعية ، إذ عليها يعتمد كل شىء ، كيف نستطيع أن نجادل عن العلاقات القائمة بين هذا المناخ أو ذاك أو عن تشكيل السطح أو عن طراز معين من المجتمع البشرى أو النشاط البشرى فى مجتمع ما ، سواء فى منطقة معينة أو فى العالم كله كمجموع ، إذا لم نتمكن من عزل احدى حقائق المناخ أو السطح وعرفناها ودرسناها من جميـــع نواحيها ، ليست دراسة علماء مناخ أو جيولوچيين بل دراسة جغرافيين ، طبقا لطرق خاصة بالجغرافية ولأهداف

جغرافية خاصة بهذا العلم ؟ ولكن هذا النوع من البحث فى العالم الطبيعى بواسطة الجغرافيين لا يزال فى طفولته . فما قيمة ثلاثين عاما من العمل النافع إذا تأملنا فى ضخامة المجهود الذى يجب أن نبذله ؟ وأكثر من ذلك فهناك مناطق بأكملها ومساحات شاسعة من الأرض لم تر الآلات العلمية . فهناك أقطار خالية من المعالم ، أو المحطات المترولوجية ، أو وسائل الحصول اليها بسهولة ، أو لا خرائط لها أو لا تزال فى دور الاستكشاف ، وتلك هى الأقطار التى يسهل فيها ، طبقا لنظرية تحتاج لشرح دائم وتفسير مستمر ، أن نبين البيئة الطبيعية والمجتمع البشرى بشكل سهل ومفيد فى نفس الوقت .

التقدم العلمى فى هذا الاتجاه لا يأتى عن طريق الالهام أو ومضات العبقرية ولكنها نتيجة بحث طويل شاق مشترك ، وهو احدى جوانب العبقرية البشرية التى لا تقل عن الجانب الالهامى أهمية أو نفعا . أن البرنامج الوحيد النافع هو أن نعمل ونستمر فى العمل بصبر وننتظر ثمار هذا العمل .

* * *

أما عن فهم طبيعة مظاهر المجتمع البشرى بأوجهه المختلفة وفهم خواصه، فاننا نحتاج أيضا إلى أن نعرف ما نريد أن نعمل .

نحن لا نطلب من هؤلاء الذين يبحثون العلاقات بين البيئة الجغرافية ، والمجتمعات البشرية أن يمتازوا بثقافة انسكلوبيدية ، أو أن يحشوا رءوسهم بمعلومات فجة غير مهضومة اقتطعوها من الانتولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والأخلاق ، بل والفلسفة بحيث تتركهم غير قادرين على العمل المثمر الأصيل .

على العكس فاذا نحن طلبنا منهم ألا يعرفوا عن الانسان أى شيء لانهم الجغرافيين — هؤلاء المتخصصين فى تحليل المظهر العـــام للأرض Landscape ، الذين لايهتمون بدراسة المجتمع البشرى كما هو ، من ناحية المظهر الخارجى ، فان طلبنا هذا سيكون ضرباً من المحال . اذ معنى ذلك ليس دراسة جميع الخصائص من النواحى التى أشرنا اليها من قبل فحسب ، بل دراسة كل التفسيرات المترولوجية والجغرافية الممكنة لكل صورة من صور الحقائق البشرية من حيث كنهها متعلقة بسطح الأرض ويمكن تمثيلها تمثيلا تصويرياً (بالخرائط والرسوم مثلا — المعرب) .

لسنا نحتاج لدائرة معارف اذن ، بل الى ذكاء .

الآراء تتسلل باستمرار وتتدخل بين الانسان وبيئته الاجتماعيـــة . فالحقائق البشرية لا تتصف قط بالبساطة ومن ناحية أخرى لاتعمل الحقائق الطبيعية بشكل آلى أعمى قدرى على حياة الإنسان ، يجب أن نقول ذلك ونكرره باستمرار حتى لا يبوء بعض الناس إلى نوع من « الطبيعية » من حيث لايشعرون ، عندما يتحدثون عن الإنسان أو المجتمعات البشرية وعن نشاطها على سطح الأرض . ونستطيع أن نقول أن كثيراً من الجغرافيين يفضلون أقرب المجتمعات البشرية إلى الفطرة ، حيث يظهر بوضوح أثر العوامل الجغرافية ، كما لو لم تكن مجتمات الإنسان المتمدن الراقى هى أقدر المجتمعات على وضع مشاكل الجغرافية البشرية .

ليس علماء الاجتماع وحدهم هم الذين يضحون ـ اذا كانون يضحون ـ فى سبيل فكرة الانسان البدائى أو الفطرى .

إذن فالدعائم الأساسية التى تقوم عليها أى دراسة جادة أو نافعة للجغرافية البشرية هى : معرفة البيئة الطبيعية معرفة جيدة أصيلة وفهم عام لظروف التطور البشرى .

* * *

ولا تختلف مشكلة الجغرافية التاريخية فى أى حال عن المشكلة العامة للجغرافية البشرية ، ونعنى هنا الجغرافية التاريخية بمعناها الصحيح الى لا تهتم بمجرد الأسماء أو الأقسام الادارية التى قد يتعب بعض العلماء أمثال لونجيون Longnon فى اعدادها ، ونحن لا نطعن فى أهمية مثل هذا العمل كمجهود علمى فى حد ذاته ولكنا لا نعده بحال من الجغرافية التاريخية .

ان الجغرافية التاريخية تعنى بمشاكل الجغرافية الاجتماعية الحالية ولكن فى الماضى ، تعنى بعلاقات المجتمعات البشرية فى الأزمنة الغابرة ، فى عصور سابقة من التاريخ فى أقطار مختلفة من العالم ، علاقة تلك المجتمعات بالبيئات الجغرافية فى تلك الأزمنة والعصور ، ومحاولة اعادة تصور تلك العلاقة بقدر ما تسمح به معلوماتنا ، وهى تتطلب من الباحثين عنها ما تتطلبه الجغرافية البشرية وأوجزناه فى الفقرة السابقة ، وإلى جانب ذلك تتطلب معرفة نظرية وعملية بطرق البحث الجغرافى ، إذ أنهم سيرجعون الى النصوص والوثائق لاعادة تصور الحضارات البائدة وعلاقاتها بالبيئة الجغرافية ، التى تغيرت الآن فى مظاهرها الطوغرافية والمناخية عما كانت فى تلك العصور .

لا يهم بعد ذلك أن نسمى هؤلاء الباحثين جغرافيين أو مؤرخين أو اجتماعيين أو مورتولوجيين اجتماعيين . ولكن المهم أنهم يجب أن يبدءوا من

الظروف الموجودة حاليـــاً وأن يوطدوا أقدامهم كجغرافيين بشريين : وسيكون غباؤهم متيناً مادام معتمداً على أساس متين من الجغرافية الطبيعية هذا الأساس الذى لا غنى عنه مطلقاً للجغرافية البشرية . فكلما ازداد قرباً من عناصر البيئة الجغرافية ، كلما كانت نتائجنا فى الجغرافية البشرية أكثر دقة وأكثر قيمة ، وكلما كان بحثنا فى الجغرافية ، ذلك الفرع الذى يمتـاز بسعة الأفق والشمول ، أكثر قيمة .

ولنعد ما قلناه من قبل : على الباحثين فى هذا المضمار أن يتعلموا كيف يبحثون وكيف ينتظرون ومهما كانت دقتهم فى البحث ، فعليهم ألا يهملوا الفروض ، مهما كانت لجة ، ما داموا سيعالجونها كفروض خاضعة للاختبار العلمى ، فبركنر Bructner لم يتعد حدوده قط مادام يبحث فيما اذا كانت الدورة المناخية مكونة من ثلاثين عاما أو أكثر أو أقل ، ومادام يبحث فيما اذا كانت هذه الدورة ذات أثر او غير ذات أثر فى حركات السكان فى أوروبا وأمريكا الشمالية بالرغم من أن العامل المتغير هنا هو اعتماد المحاصيل الزراعية على أمطار الصيف والحرارة ، ولـكن — من الناحية الأخرى — ليس لنا قط أن نـكبر من أهمية الغرض منذ البداءة وأن نعلن فى حماس أن الجنس البشرى يتحرك مع ارتفاع الترمومتر وانخفاضه أو ارتفاع مقياس الخطر وانخفاضه . كما أنه ليس لنا أن نرفض أى فرض مدفوعين بالتعصب الأعمى فحسب . بل علينا أن نتحلى بسعة الأفق ، والتسامح الفكرى ، وأن نـكون على استعداد دائماً لتقبل الآراء وتمحيصها ومقارنتها حتى يمكن تغذية علم حديث أما تلك التعميمات الطموحة ، وتلك الآراء الصبيانية . التى تتسمى

« بفلسفات الجغرافية » والتى تعتبر أسوأ ما فى « فلسفات التاريخ » القديمة فيجب أن نطرحها جانباً ، بكل ما يحيط به من لألاء فارغ وحتمية آلية ونظم عالية تحاول أن تربط بين الآراء المختلفة ربطاً مفتعلا ، لا يستهوى الا صغار الأحلام دون أن تحقق فرضاً أو تشرح أمراً .

* * *

ونحن عندما نجاهد فى سبيل تغيير جوهرى فى طريقة البحث ؛ وعندما نطالب انهاء عصر الفلسفة السوفسطائية فى الجغرافية إلى غير رجعة ، نتساءل هل نحن نساير العلوم الأخرى التى تحاول أن نستفيد منها فى علمنا هذا الحديث أو نحن نتعارض معها ؟

لعل فى تلخيص تطور علم الأحياء فى السنوات القليلة الأخيرة ما يطمئننا فى اتخاذ هذه الخطة التى فحصناها سابقا .

لقد كانت نظرية الملاءمة مع البيئة هى السائدة دون منازع فى علم الأحياء حتى عهد قريب . وكانت تلك النظرية تحاول تفسير الصفات التى يبدو أنها ملائمة للكائن الحى لكى يؤدى وظيفته أو تجعله قادرا على أداء وظيفته إذا التجأ اليها . وطبقا لهذه النظريه فان ظروف الكائن الحى الحالية هى نتيجة حتمية آلية لا نعرفها لفعل العوامل الخارجية التى يتعرض لها . هذا ما كان يعتقده كل من داروين ولامارك، أحدهما ينادى بأن الاختيار الطبيعى هو نتيجة الصراع فى سبيل البقاء . والآخر يرى أنها الحاجة ، ولكن النتيجة فى الحالتين واحدة ، ومن هنا فقط اختلفت نظريات التطور كما يدعى كوينو

غير أن هناك فكرة واحدة تسرى فى كيانها ، هى فكرة الآلية Cuénot الحتمية . تلك الفكرة التى انتشرت بسرعة وكان رائدها بشكل لم يعهد من قبل فى تاريخ العلم ، لسبب واحد هو ضيقها وسهولتها . لقد افترض العلماء أن الكائن الحى سلبى ليست له القدرة على السلوك التلقائى الذى يمكنه من البدء من جديد فى بيئة غير متغيرة ، تلك المقدرة التى تميز الحيـاة فى حقيقة الأمر ، ومن هذا الفرض سار العلم فى غايته . ولكن بعد عدد كبير من الاكتشافات لم يجد العلماء مندوحة من الاعتراف فى علم الأحياء بنظرية برجسون التى سماها الدافع التلقائى Pre - adaptation والقوة الخالقة فى الحياة وقد صور كوينو الاتجاه الجديد فى علم الأحياء بنظرية الاستعداد للتلاؤم الموجود لدى الكائن الحى ، وبهذه النظرية عادت الحيوية vitalism الى علم الأحياء وكانت ضربة فى الصميم أعقبها نظرية الصدفة التى كانت القضاء النهائى على النظرية الآليـة العمياء فى علم الأحياء . وقد أفرد هنرى بر Henry Beer لنظرية الصدفة حيزا كبيرا فى كتابه عن التكامل التاريخى
Synthése en Hist.

علينا أن نختار بين أمرين : إما ان الكائن الحى كائن سلبى يخضع لقوى البيئة الطبيعية وهنا نستطيع أن نحسب انفعالاته بدقة ومن ثم نستطيع أن نتنبأ بسلوكه إذا احتسبنا قوة مقاومته للقوى الخارجية المعروف تدرجها والتى تضغط عليه ، وإما أن الكائن الحى مجهز بنشاط ذاتى وقادر على خلق آثار جديدة وارتداعها وفى هذه الحال لا بد من وضع حد للحتمية ، بمعنى الكلمة ، ولا بد من احتفاظنا بالاحتمالات التقريبية ، اذن فنحن من ناحية سنفقد بساطة التفسير الآلى القديم وتأكيده وسنحقق من جهة أخرى - كما

لاحظ لافيت Lafitle من زمن بعيد قديم ، وجهة نظر أغنى وأوسع أفقاً وأكثر تعقيدا ، وأقرب فى مجموعها لظاهرة الحياة المعقدة ، ولهذا لابد من أن نسير فى طريق وسط ، دون أن نطغى احدى الكفتين على الأخرى دون أن نلعن اليوم ما كنا نمجده بالأمس ، أو ننفى تماما أو مكان وجود الملاءمة بالمعنى القديم أو التخصص التدريجى طبقا لمقتضيات البيئة وأسلوب الحياة . ولكننا نعترض فقط على قبول المبـــدأ دون تمحيص أو أن نستنتج من مقدمات لم تناقش . بل لابد من اخضاع الحقائق لوسائل الاختبار وأن تمحص فى حد ذاتها دون أى اعتبار لأى نظرية دون أن نسمح لأى فلسفة من فلسفات الطبيعة بالتدخل فى عملنا العلمى .

* * *

لقد بينا أن فكرة الاستعداد للتلاؤم كانت المظهر الهام للاتجاه الفكرى الجديد فى علم الحياة ، ولنا أن نتساءل ألم تكن فكرة أساليب الحياة فى الجغرافية ، التى نادى بها فيدال دى بلاش ترجمة لهذا الاتجاه الفكرى الجديد سواء أكان يقصد صاحبها ذلك أو عن غير قصد ؟

ليس علم الأحياء وحدة هو الذى واجه مهمة ضرورة تغيير الطريقة ، والانتقال التدريجى من المرحلة الميتافيزيقية ذات النظم العامة الى مرحلة الملاحظة والفرض والاختبار وماينبغى لنا أن نخشى الاعتراف بفكرة الصدفة ، وهى تدخل فى تطور حياتنا ، ومن الممكن أن تخضع للبحث العلمى وما ينبغى أن تخيف هذه الفكرة أى جغرافى أو مؤرخ وماينبغى أن يخرج أى طالب فى العلوم الاخلاقية ان يشارك زميله فى العلوم الطبيعية الآخذبها

خشية أن يقال أنه حاد عن جادة الصواب ، فأمامهم رجال العلم الأفذاذ يرجعون اليهم .

يقول عالم الأحياء الأمريكى دافنبورت Davnport كما يروى كوينو Cuéno « وجد الكائن الحى أولاً وبعد ذلك بحث عن البيئة التى تـلائم تركيبه ، ومعنى ذلك للجغرافى فى رأى فيدال دى بلاش ان الانسان وجد أولا ، وأن عاداته وصفاته الخاصة ، وأسلوب حياته ليست بالضرورة نتيجة لوجوده فى هذة أو تلك ، فهذه كلها ليست نتائج البيئة ، أنه يحملهـا معه ، وينقلها معه انى ارتحل فهى نتيجة طبيعيته الخاصة وماينبغى لنا أن نسلم دون تفـكير بأن منطقة كذا وكذا تلزم سكانها بالضرورة بأن يسلكوا أسلوبا معينا فى الحياة ، بل الأجدر بنا ان نقول ان العـادات والتقاليد البشرية لجاعة من الجماعات تقوى وتثبت مع الزمن وتتوارث من السلف الى الخلف وتؤثر تأثيرا كبيرا فى وجهة نظر افرادها الى الحياة » وهذا يؤدى فى النهاية الى تغير مظاهر القطر من الاقطار تغيرا تاما ، ونستطيع ان نقول أن الظاهرة العامة نتيجة نشاط السكان أنفسهم ، هذا جانب آخر من الحقيقة لا يحـق للجغرافيا مطلقا ان تهمله إما من أجـل مصلحتها هى بالذات ، قـد تتدهور إلى شكلية لفظية مملة تردد قوانـين راتزل التنجيمية دون تفهم أو بصيرة ، وأما من اجل التاريخ الذى يعتمد تقدمه على نشاط البشر الذى يحتاج من اجل تفهمه الى وثائق الجغرافية المستنيرة .

لقد وصلنا إلى تلك الرحلة من « التكوين » عندما يبـدأ النور يبين من

دياجير الظلام ، وأمامنا مجهود كبير ضخم يواجه كلا من الجغرافى والمؤرخ إلى ما شاء الله . وليس لدينا وقت لأن نجلس فى بلاهة نفخر بنظام عقيم ضئيل مقفر لا جدوى منه ولا غناء ، بناه أسلافنا ، نظام يعتمد على غير اساس حتمية لفظية تدفعنا إلى الخجل ، ليس أمامنا سوى طريق واحد — هو ان نعمل .

فهرس بالأعلام التي وردت بالكتاب

ز

س

ص

ن

ثبت بالمراجع التى أشار إليها مؤلف الكتاب

A. — ATLAS

BERGHAUS (H.), **Physikalisher Atlas,** 1re éd., Gotha, 1849-52, 6 fasc. in-folio. — Nlle éd., Gotha, 1887-1892, 7 fasc. in-folio: **a) Geologie,** par BERGHAUS; **b) Hydrographie,** par le même; **c) Meteorologie,** par HANN; **d) Erdmagnetismus,** par NEUMAYER; **e) Pflanzenverbreitung,** par DRUDE; **f) Tierverbreitung,** par MARSHALL; **g) Volkerkunde** par GERLAND...... ١

BARTHOLOMEW (J. G.) **Physical Atlas.** Vol. III. **Atla of meteorology** par BARTHOLOMEW et HERBERTSON Edimbourg, S. d. (1899), in-folio. — Vol. V. **Atlas of Zoogeography,** por BARTHOLOMEW, CLARKE et GRIMSHAW.E dimbourg, 1911, in-folio ٢

STIELER (A.), **Hand-Atlas,** 9e éd., Gotha 1905, in-folio (10e éd. "Hundertjahrausgabe, 1821-1921" en cours) ٣

VIDAL DELA BLACHE (P.) **Atlas général, historique et géographique.** Dern. éd., remaniée, Paris, 1921 in-folio ٤

KIEPERT (H.), **Atlas Antiquus,** Zwolf Karten zur alten Geschichte, 6e éd. Berlin, 1876, in-folio.......... ٥

SPRUNER (k. v.), **Hand-Atlas fur die Geschichte des Mittelälters u. der neueren Zeit,** 3e éd., avec texte de Th. MENKE, Gotha, 1880, in-folio.......... ٦

DROYSEN (G.), **Allgemeiner historischer Hand-Atlas.** Bielefeld et Leipzig, 1880, in-folio ٧

SCHRADER (F.), **Atlas de géografie historique,** Paris 1896, in-folio................................ ٨

POOLE (R. L.), **Historical Atlas of modern Europe from the decline of the Roman Empire,** Oxford, 1896-1902 in-4o ٩

BARTHOLOMEW (J. G.), **Atlas of the World's Commerce,** Londres et Edimbourg, 1907, in-folio...... ١٠

BARTHOLOMEW (J.G.), **Atlas of Economic Geography** Londres, 1914, in-4.......................... ١١

B. — REVUES ET PERIODIQUES

Annales de géographie, Paris, depuis 1891 (avec fascicules distincts de Bibliographie géographique annselle, publiés sous la direction de L. RAVENEAU, 1er bibliographie, 1893; dernière parue, 1913-14; suite en préparation) ١٢

La Géographie, Bulletin de la Société de Géographie de Paris, Paris, depuis 1900, in 8o ١٣

Petermann's Mitteilungen aus Justus Perthes. Géographisches Anstalt, Gotha, depuis 1855, in-4o. Fascicules distincts, Erganzungshefte, groupés en volumes, Erganzungsbande (Band 1, 1860-1861).. ١٤

Géographische Zeitschrift, hrsg. von A. HETTNER

eipzig, depuis 1895, in 8o ١٥
The Géographical Journal, including the Proceedings of the R. Geogr. Society, Londres, depuis 1893, in-8o.................................. ١٦
L'Anthropologie, Paris, depuis 1890, in-8o ١٧
L'Année sociologique, Paris, depuis 1896, in-8o.... ١٨
Revue de Synthèse historique, Paris, depuis 1900, in-8o ١٩
Scientia (Rivista du Scienza), Bologne, Londres, Paris, depuis 1907, in-8o ٢٠

C. — QUESTIONS DE MÉTHODE

BERR (H.) **La synthèse en histoire.** Paris, 1911, in-8o ٢١
BERR (H.), **Histoire traditionnelle et la Synthèse historique,** Paris, 1921, in-16 .... ٢٢
DURKHEIM (E.) **Règles de la méthode sociologiques,** Paris, 7o éd., 1919, in-16 .... ٢٣
HAUSER (H.) **L'enseignement des Sciences sociales,** Paris, 1903, in-8o ٢٤
MANTOUX (P.), **Histoire et Sociologie** (Rev. Synthèse, 1903) ٢٥
RAUH (F.), **De la méthode dans la phychologid des sentiments,** Paris, 1899, in-8o ٢٦
RAUH (F.) **Etude de morale**: La Patrie. Paris, 1916, in-8o

ĖIGNOBGS (Ch.) **La méthode historique appliquée aux Sciences sociales**, Paris, 1904, in-8o ٢٧

SIMAND (F.), **Méthode historique et Science sociale** (Rev Synthèse, 1903) ٢٨

VIDAL DE LA BLACHE (P.), **Le principe de la géographie générale** (Ann. de géogr., IV. 1895-1896) ٢٩

VIDAL DELA BLACHE, **Des divisions fondamentales du sol français** (en tête de **La France**, 1 vol. du Cours de géographie de VIDAL DE LA BLACHE et C. d'ALMEIDA, Paris, 1897, in-12 .... ٣٠

VIDAL DE LA BLACHE **Les cônditions géographiques des faits ciaux** (Ann de Géogr., XI, 1902) ٣١

VIDAL DE LA BLACHE, **La géographie humaine, ses rapports avec la géographie de la vie** (Rev. Synthèse, 1903, t. VII) ٣٢

VIDAL DELA BLANCHE, **Les caractères distinctifs dâ la géographie** (Ann. de Gêogr. XXII, 1913) ٣٣

GALLOIS (L.) **Régions naturelles et noms de pays**, Paris, 1907, in 8o ٣٤

D. — E PROBLEME DU MILIEU: HISTORIQUE

HEIBEIRG (J.L.), **Théories antiques sur l'influence morale du climat** (Scientia, XXVII; juin 1920) ٣٥

BODIN (j.), **Les six livres de la République**, éd. reveue corrigée et augmentée de nouveau, Lyon; 1580 in-folio (l.V, ch. I, p. 461 sq.)..... .... ٣٦

CHAUVIRÉ (R.) **Jean Bodin, auteur de la République** Paris, 1914, in 8o ٣٧

DUBOS (J.-B., abbé), Réflexions critiques sur la Poésie et la Peinture (1719), Paris, 7e éd., 1770, in-8o ... ٣٨
BRAUNSCHVIG (M.), L'abbé Dubos, rénovateur de la critique au XVIIIe siecle, Parls, 1904, in-8o (These Paris) ٣٩
MONTESQUIEU, De l'Esprit des Lois (1er éd., Genève, 1748; utiiisée, éd. de Londres, 1757)........... ٤٠
DEDIEU (J.), Montesquieu et la tradition politique anglaise en France: les sources anglaises de l'Espriet des Lois, Paris, 1919, in-8o (Thèse Bordeaux) ٤١
BUFFON, Œuvres, choisies, t. I, Paris, Didot, 1861 in-12 .... ٤٢
LAMARCK, Philosophie zoologique, Paris, 1809, 2 in-8o (réimpr., Paris, 1908, in-8o) ٤٣
MICHELET (J.), Histoire de France: Préface de 1869 et livre III, Tableau de la France ٤٤
JULLIAN (Cam.), Introduction au vol. d'Extraits des historiens frauçais dn XIXe s., Paris,6e èd., 1910. in-18 ٤٥
TAINE (H.), Histoire de la Littérature anglaise, Paris, 1864, in-12. .... ٤٦
TAINE (H.), Philpsophie de l'art, Paris, 1881, 2 in-12 ٤٧
LACOMBE (P.), La psychologie des individus et des sociétés chez Taine, historien des littératures, Paris, 1906, in-8o ٤٨
LACOMBE (P.), Taine historien et sociologue, Paris, 1909,in-8o. ٤٩
DARWIN (Ch.), De l'origine des especes, trad. Barbier, Paris, 1876 ... . ٥٠
BRUNETIERE (F.), L'Évolution des genres dans l'histoire

de la littérature. I. Évolution de la critique depuis la Renaissance jusqu'a nos jours, Paris, 1890 in-16 .... ٥١

CUÊNOT (L.), La genese des especes animales, Paris, 2e éd., 1921, in-8 .... ٥٢

E. — LE PROBLEME DU MILIEU : DONNEES PHYSIQUES ET ETHNIQUES

MARTONNE (E. de), Traité de géographie physique, Paris, 3e édit., 1921 .... ٥٣

SUPAN (A.), Grundzilge des physischen Erkunde, Leipzig, 6e éd., 1916 .... ٥٤

SUESS (E.), La Face de la Terre, trad. E. de MARGERIE Paris, 1897-1901, 3 vol. in-8o en 7 fasc. (dont 1 de tables) ٥٥

PENCK (A.), Morphologie der Erdoberflache, Stuttgart, 1894, 2 in-8o ٥٦

HANN (J.), Handbuch der Klimatologie, Leipzig, 3e édit, 3 vol., 1908- 1911 .... ٥٧

HANN (J. von), Lehrbuch der Meteorologie, Leipzig, 3e édit, (p.p. Suring), 1915, in-8o ٥٨

DRUDE (O.), Manuel de géographie botanique, trad. Poirault, Paris, 1897, in-8o ٥٩

SCHIMPER (A. F. W.), Pflanzengeographie auf physiologischer Grundlage, Iéna, 2e édit., 1908 .... ٦٠

QUATREFAGES (A. de), Introduction à l'étude des races humaines, Paris, 1887-1889, 2 vol. in-8o ٦١

DENIKER (J.), Races et peuples de la Terre, Paris, 1900 in-8o ٦٢
PITTARD (E.), Les races et l'Histoire (Introduction elhnographique è l'histoire), Paris, 1922, in-8 (L'Evolution de l'humanité, no 5) ٦٣
GUMPLOWICZ (L.), La lutte des races, trad. fr, Paris 1895; in-8o.................................. .... ٦٤

F. — GÊOGRAPHIE HUMAINE ET GÈOGRAPHIE POLITIQUE (OUVRAGES GÉNÉRAUX.)

BAGEHOT (W.), Lois scientifiques du développement des nations, trad. franç., Paris, 1885, in-8o ٦٥
BRUNHES (J.), La géographie humaine, Paris, 1910, in-8o (2o édit, 1942) ٦٦
BRUNHES (J.), La géographie de l'histoire, (Rev. de géogr. ann., t. VIII, 1914, fasc. I) ٦٧
BRUNHERS et VALLAUX (C.), La géographie de l'histoire, Géographie de la paix et de la guerre sur terre et sur mer, Paris, 1921, in-8o ٦٨
CHERUBIM (C.), Flusse als Grenzen von Staaten und Nationen in Mitteleuropa, Inaug. Diss., Halle, 1897, in-8o ٦٩
CURZON OF KEDLESTON (Lord), Frontiers (The romanes lecture. 1907), Oxford, 1907, in-8o ٧٠
HUCKEL, La géographie de la circulation F. Ratzel (Ann de Géogr., XV, 1906 et XVI, 1907) ٧١

HUMBOLDT (A. de),Cosmos, essai d'une description physique du monde, trad. FAYE, Paris, 1855-1859 4 in-8o ٧٢

HUMBOLDT (A. de), Tableaux de la nature, 3e édit, Stuttgart, 1849 .... ٧٣

HUNTINGTON (E.), Civilization and climate, New-Haven, 1915, in-8o ٧٤

JULLIAN (C.), L'ancienneté de l'idée de nation (Rev. pol. et litt, janvier 1913) ٧٥

JUNGHAUS (O. E.) Der Fluss inseiner Bedeutung als Grenze zwischen Kultur und Natur-Vôlkern, Leipzig, 1899, in-8o.. ٧٦

KRAEMER (H.), Der Mensch u. die Erde, Berlin-Leipzig, 1905-1915, 10 in-4o, trad. fr. par SCHALCH DE LA FAVERIE; L'Univers et l'Hmanité, préf. d'E. PERRIER, Paris,s. d., 5 vol. grand in-8o ٧٧

KRETSCHMER (K),Historischen Geographie von Mitteleuropa,Leipzig, 1904, in-8o ٧٨

LESPAGNOL (G.), L'Évolutionde la Terre et de l'Homme, Paris, 1905, in-16.. ٧٩

MEILLET (A.), Introduction à l'étude comparative des languesindo-européennes, Paris, 3e édit., 1912, in-8o. ٨٠

MEYER (Ed.), Histoire de l'antiquité, t. I, Introduction à l'étude des Sociétés anciennes: Evolution des groupements humains. trad. DAVID, Paris, 1912, in-8o. . ٨١

PENCK (A.), Klima, Boden und Mensch (Jahrb. f. Gesetzgebung, hrsg. v. G. Schmoller, 1907, p. 577 sq.) ٨٢

RATZEL (F.), Anthropogeographie, t. I. 3e édit., Stutt-

gart, 1909. — T. II, 2e édit., Stuttgart, 1912 ٨٣

RATZEL, Politische Géographie (Gographie der Staaten, des Verkehrs und Krieges) Munich et Berlin, 2e édit., 1903 .... ٨٤

RATZEL, Kleine Schriften (p. p. H. Helmot), 1906, 2e in-8o ٨٥

RATZEL, Le Sol, la Société, l'État (Année sociol., 1898-1899) ٨٦

RECLUS (E.), Nouvelle Géographie universelle: la Terre et les Hommes, Paris, 1875-1804, 19 in-4o ٨٧

RECLUS (E), La Terre, 3e édit., Paris, 1876, 2 vol. in-4o ٨٨

RECLUS (E.), L'Homme et la Terre, Paris, Librairie Universelle, s. d., 6 in-4o ٨٩

RITTER (C.,) Géographie génèrale comparée, trad. Buret et Desor, Paris , 1836, 4 in-8o. ٩٠

SEMPLE (E., miss), Influences of geographic environment, Londres et New-York, 1911, in-8o ٩١

SIEGFRIED (A.), Tableau politique de la Francedel'Ouest sous la 3e Républipue, Paris, 1913, in-8 o ٩٢

SIEVERS (W.),Allgemeine aLanerkunde, Leipzig et Vienne, 6e édit—Europa, p. PHILIPPSON, 2e édit., 19.6 Asien, par SIEVERS, 1893. — Afrika, par HAHN, 2e édit, 1901. — Nord-Amerika, par DECKERT, 3e édit 1913. — Sud u. Mittel-America par SIEVERS, 3o edit, 1914 - Australien Ozeanien u. Polarlander, par SIEVERS, et KUKENTHAL, 2e èdit., 1902 .... ٩٣

VALLAUX (C.) Géographie sociale: le Sol et l'Ètat Paris, 1911, in-16 .... ٩٤

VENDRYES (J.), Le Langage (Introduction linguisrique à l'Histoirc) Paris 1921, in-8o (L'Évolution dc l'Humanité, no 3) ٩٥

VIDAL DE LA BLACHE. (P.), La Géographie Politique d'apres les écrits de M. Fr Ratzel (Ann. ee Gèogr. VII, 1898) ٩٦

VIDAL DE LA BLACHE (P.), Les genres de vie dans la géographie humaine (Ann. de Géogr, XX, 1911) ٩٧

VIDAL DE LA BLACHE (P.), La répartition des hommes sur le globe (Ann. de Gèogr, XXVI, 1917) ٩٨

WOEIKOF (A.) De l'influence de l'homme sur la terre (Ann. de Géogr. X. 1901) ٩٩

WOEIKOF (A.), Verteilung der Bevolkerung auf der Erde unter dem Einfluss der Naturverhaltnisse und der menschl. Tatigkeit (Peterm. Mit., LII, 1906, p. 241-251 et 265-270; 4 cartes, pl. 17-20) ١٠٠

G. — LES EXPLOITATIONS DE L'HOMME: VEGETALES, ANIMALES ET MINERALES

BERNARD (A.), Le Dry-Farming et ses applications dans l'Afrique du Nord (Ann. de Géogr.. XX, 1911) — Republié, avec remaniements, en tête de Widtsoe, CXXII ١٠١

BILLARD (R.) La vigne dans l'antiquité, Lyon, 1913, gr in-8o . ١٠٢

BRUNHES (J), L'irrigation dans la Péninsule ibérique

el dans l' Afrique du Nord, Paris, 1902, in-٤o. ١٠٣

CANDOLLE (A. de), L'origine des plantes cultivées, 2e édit., Paris,1896, in-8o ١٠٤

COSTANTIN, Les végétaux et les milieux cosmiques, Paris, 1898, in-8o ١٠٥

COSTANTIN, Biologie de la végétation tropicale (Ann. de Géogr., VII, 1898) ١٠٦

COSTANTIN, La nature tropicale, Paris, 1899, in-8o.. ١٠٧

DÉHÉRAIN (P.-P.), Les plantes de grande culture, Paris, 1898, in-8o ١٠٨

ENGELBRECHT (Th.-H.), Die Landbauzonen der aussertropischen Lander, Berlin, 1898-1899, 2 in-8o ١٠٩

FISCHER (Th), Der OElbaum, seine geographische Verbreitung, seine Wirtschaftliche u. kulturhistorische Bedeutung (Petenm. Mit., Erg. no 147), Gotha,1904, in-4o ١١٠

FISCHER (Th.) Die Dattelpalme, ihre geographische Verbreitung und kulturhistorische Bedeutung (Peterm.Mit'. Erg. no 64), Gotha. 1881,in-4o..... . ... ١١١

GALLOIS (L.) et LEDERLIN, La culture du coton dans le monde (Ann. de géogr., VII,1898) ١١٢

GATIN (C. L.) Les palmiers (Encycl. du Dr Toulouse), Paris (s. d.), in-12 .... ١١٣

GIBAULT (G.), Histoire des légumes, Paris, 1912, in-8o ١١٤

HAHN (Ed.), Demeter und Baubo (Versuch einer Theorie der Entstehung unseres Ackerbaus), Lubeck, 1896. in-8o ١١٥

HEHN (V.), Kulturpflanzen und Haustiere in ihrem Uebergange aus Asien nach Griechenland und Italien, sowie

in das übrige Europa, 8o édit., par O. Schrader, Berlin, 1911, in-8o. — Cf. remarques critiques du même O Schr., Die Auschauungen V. Hehns von der Herkunft unseren Kulturpflanzen und Häustiere im Lichte neuerer Forschung, Berlin, 1912. 17 p. in-8o ١١٦

JORET (Ch.) Les plantes dans l'anliquité et au moyen âge, histoire, usages, symbolisme. — I. Les plantes de l'Orient classique, Paris, 1897. in-8o ١١٧

RICHTHOFEN (F.v.), Vorlesungen über allgemeine Siedlungs u. Verkehrsgeographie, hrsg. von O. Schluter, Berlin, 1908, in-8o ١١٨

RISLER (E.), Géologie agricole, t. I, II, III, IV. Paris, 1884-1897, in-8o ١١٩

ROCHÉ (G.) La culture des mers en Europe : piscifacture, pisciculture, ostréiculture, Paris, 1898, in-8o ... ١٢٠

ROSCHER (W.), Nationalôkonomik des Ackerbaues u. der verwandten Urproduktionen. 13e édit., par H. Dade, Stuttgart et Berlin,1903, in-8o ١٢١

SEMLER (H.), Die tropische Agrikultur. Ein Handbuch fur Pflanzer und Kaufleute, Wismar, 1866. in-8o ... ١٢٢

SOMEREN BARND (Van), Les grandes cultures du monde, luer histoire, leur exploitation leurs différents usages, trad. du hollandais, par F. RODE, Paris 1905, in-4o ١٢٣

WIDTSOE (J. A.), Le Dry-Farming,trad. A.-M. BERNARD, Paris, 1912, in-16 (Préface d'Aug.BERNARD) ١٢٤

WILDEMAN (E. de), Les plantes tropicales de grande culture, Bruxelles, 1902 ١٢٥

WOEIKOF (A.), La géographie de l'alimentation humaine

(La Géographie, XX, 1909) ١٢٦

WOEIKOF (A.), L'étude des sols (Ann. de Géogr. XVII, 1907). ١٢٧

CAULLERY (M.), Animaux domestiques et plantes cultivées (Ann. de Géogr. VI, 1897)................. ١٢٨

GROFFIER (V.), La production de la soie dans le monde (Ann. de Géogr., IX,1900) ١٢٩

HAHN (Ed.), Die Haustiere und ihre Beziehungen zur Wirtschaft des Mensches ; eine geographische Skizze, Leipzig' 1895, in-8o ١٣٠

HESSE (R), und DOFLEIN (Fr.) Tierbau u. Tierleben, t. II, Das Tier als Glied des Naturganzen, Leipzig et Berlin, 1904, in-8o ١٣١

KROPOTKINE (P.), L'Entr'aide,un facteur de l'évolution (trad. Bréal), Paris, 1906, in-16 ١٣٢

MULLER (R.), Die geographische Verbreitung der Wirtschaftstiere mit besonderer Berücksichtigung der Tropenlander, Leipzig, 1903, in-8o ١٣٣

LAUNAY (L. de), L'or dans le monde, Paris, 1907, in-18 ١٣٤

LAUNAY (R.), La conquéte minérale, Paris, 1908, in-18.

LOZÉ (Ed.), Le charbon dans le monde (Économiste français, 1904-1905) ١٣٥

LOZÉ (Ed)., Le minerai de fer dans le monde (Ibid., 1906. ١٣٦

LOZÉ (Ed)., Le fer et l'acier dans le monde (Ibid., 1906 - 1907.) ١٣٧

MENGEOT (A)., Du pétrole et de sa distribution géographique dans le monde (XVIe Congrès Soc. franç. de

géogr., Bordeaux, 1895)............... ١٣٨
VILLAIN (G.), Le fer, la houille et la métallurgie à la fin du XIXe s., Paris,1901, in-8o ١٣٩
ZIMMERMANN (M.), Les foyers de production de l'or dans l'antiquité et au moyen âge (Bull. Soc. géogr., Lyon, XX, 1905) ١٤٠

BOURDEAU, Histoire de l'habillement et de la parure, Paris, 1904, in-8o................. ١٤١

H— CIRCULATION DES HOMMES ET DES PRODUITS : INSTALLATIONS HUMAINES

ANDREE (K.), Geographie des Welthandels, hrsg. von Fr. Heiderich u. Rob. Sieger, Francfort, 1910 -1913, 3 gr. in-8o ١٤٢
BAULIG (H.), Sur la distributien des moyens de circulation et de transport chez les indigènes de l'Amérique du Nord (Ann. de Géogr., XVII,1908) ١٤٣
BÉDIER (J.), Les légendes épiques, Recherches sur la formation des chansons de geste, 2e édit, Paris, 1914-1921, 4 in-8o ١٤٤
HUBER (F. C.), Die geschichtliche Entwickelung des modernen Verkehrs, Tubingen, 1893, in-8o. ١٤٥
HUVELIN (P.), Essat historique sur le droit des marchés et des foires, Paris 1897. in-8o ١٤٦
ROUSIERS (P. de.,) Les grands ports de France.

leur role économique, Paris,1909, in-16 .... ١٤٧
BERNARD (A.), et LACROIX (N.), L'Évolution du nomadisme en Algérie (Ann. de Géogr., XV, 1906). ١٤٨
FABRE (L.-A.), L'exode montagneux en France (Bull. géogr. hist. dt descrip , 1908............. ١٤٩
GONNARD (R.), L'Émigration européenne au XIXe s., Paris, 1806 .... ١٥٠
LEROY-BAULIEU (P.), De la colonisation chez les peuples modernes,6e édit, Paris, 1908 2 in-8o... ١٥١
BLANCHARD 'R.), Grenoble, ét.de de geographie urbaine, Paris, 1911, in-8o ١٥٢
BLANCHARD (R.), Annecy, esquisse de géographie urbaine (Rec. trav. Institut géogr. alpine, Grenoble. t. IV. 1916) ١٥٣
DUPUY (P.), Le solet la croissance de Paris (Ann. de Géogr., IX, 1900)......................... ١٥٤
HASSERT (K.), Die Staedte geographisch betrachtet (vol. 163 de la coll. Aus Nrtur und Geisteswelt), HLeipzig, 1907, in-16 .... ١٥٥
HETTNER (A.), Die Lage der menschlichen Ansiedlungen (Geogr. Ztsch., 1895)................ ١٥٦
HETTNER (A), Die wirtschaftlichen Typen der Ansiedlungen (Geogr. Ztsch., 1902)................ ١٥٧
LEVAINVILLE (J.), Rouen, Étude d'une agglomération urbaine, Paris, 1913, in-8o................ ١٥٨
MASQUERAY (E.), Formation des citéschez les populations sédentaires de l'Algérie. Paris, 1886,in-8o ١٥٩
MEURIOT (P.), Des agglomérations urbaines dans

l'Europe contemporaione, Paris, 1897, in-8o ١٦٠

PASQUET (D.), Le développement de Londres (Ann. de Géogr., VII, 1898) ١٦١

PIRENNE (H.), Les anciennes démocraties des Pays-Bas, Paris, 1910, in-18.................. .. ١٦٢

RATZEL (Fr.), Die geographische Lage der grossen Stadte (dans Die Grosstadt, Dresde, 1903 in-8o). ١٦٣

MEITZEN (A.), Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen und Ostgermanen derKelten, Romer,-Finnen und Slawen, Berlin. 1895, 4 in-4o, atlas.... ١٦٤

Ministére. de l'Instruction publique. Comité des travaux historiques Enquête sur les conditions de l'habitation en France, les Maisons types, avec une introduction d' A. de Foville, Paris, 1894, in-8o ١٦٥

Ministère de l'Instruction publique. Comité des travaux historiques, t. II, avec une étude de Flach (J.), L'origine historique de l'habitation et des lieux habités en France, Paris, 1899, in-8o...... ١٦٦

I. — LES SOCIÉTÉS HUMAINES : MONOGRAPHIES

A. — PRÉHISTOIRE ET ANTIQUITÉ.

ARBOIS DE JUBAINVILLE (H. D') Les Premiers habitants de l'Europe, 2e édit., Paris, 1889-1894, 2 in-8o ١٦٧

BÊRABD (V.), Les Phéniciens et l'Odyssês Paris, 1902-1903 in 4o ١٦٨

BOULE (M.), Les hommes fossiles. Eléments de

paléontologie humaine, Paris, 1921, in-8o. ١٦٩
BUCHER (K.), Etudes d'histoire et d'Économie politique, trad. Hansay, Bruxelles et l'aris, 1901, in-8o ١٧٠
DAREMBERRG (Ch.) et SAGLIO (Edm.), Dictionnaires des antiquités grecques et romaines, t. IV, Paris, 1877 sq., in-folio ١٧١
DÈCHELETTE (J.), Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine, Paris, 1910-1921, 6 vol. in-8o (dont 2 d appendices) ١٧٢
FRAZER (J.G.), Le Rameau d'or, trad STIEBEL et TOUTAIN (sur la 2e édit.) Paris, 1910-1911, 3 vol. in-8o
JULLIAN (cam.), Histoire de la Gaule, Paris. 1908-1920, 6 vol. in-8o ١٧٣
MEILLET (cam.), Aperçu d,une histoire de la langue grecque, Paris, 1913, in-16 .... ١٧٤
MORGAN (J. DE), Les premières civilisations. Etudes sur la préhistoire et l'histoire, Paris, 1909, in-8o ١٧٥
MORGAN (J. DE), L'humanité préhistorique ('Evolution de l'Humanité 1re section, t. 11), Paris, 1921, in-16 ١٧٦

B. — AFRIQUE.

BARTH (H.), Reisen und Entde ckungen in Nord und Central Afrika (1849-1855), Gotha, 1857-1858, 5 vol. in-8o ١٧٧
BERNARD (A.), La Maroc, Paris, 1913, in-8o...... ١٧٨
BURTON, Voyage aux grande lacs de l' Afrique

orientale, trad. LOREAU, Paris, 1862, in-8o ١٧٩
CHEVALIER (A.), L, Afrique centrale française(1902 -04), Paris, 1908, (in-8o récit de voyage de la mission Chari-Tchad) ١٨٠
CUREAU (Dr. Ad.), Les sociétés primitives de l'Afrique équatoriale, Paris, 1912, in-18.......... ١٨١
DECORSE (J.), La chasse et l'agriculture au Soudan (Anthropologie, 1905) ١٨٢
GAUTIER (E.), La conquéte du Sahara, Paris, 1910 (2e édit., 19,9), in-16 .... ١٨٣
GAUTIER (E.), Études sahariennes (Ann. de Géogr., XVI, 1906) ١٨٤
GAUTIER et CHUDEAU (R.), Missions au Sahara, t. I, Sahara algérien, par GAUTIER, Paris, 1908, in-8o; t. II, Sahara soudanais, par CHUDEAU, Paris, 1909, in-8o ١٨٥
HUBERT (H.), Mission scientifique au Dahomey, Paris, 1906, in-8o ١٨٦
HUBERT (H.), Contribution à l'étude de la géographie physique du Dahomey, Paris, 1908, in-8o (Thése sciences, Paris) ١٨٧
HUBERT (H.), Mission scienttfique au Soudan, 1 er fascicule (météorologie), Paris, 1916, in-8o ١٨٨
MENIAUD (J.), Haut-Sénégal, Niger (Soudan français). Séries d'études publiées sous la direction de M. le gouverneur Clozel; 2e série, Géographie économique, Paris, 19,2, 2 in-8o ١٨٩
NACHTIGAL (G.), Sahara et Soudan, trad. GOURDANET, Paris, 1883, in-8o ١٩٠

SCHWEINFURTH (G.), Au coeur de l'Afrique, trad. TOREAU, Paris, 1870, 2 in-8o ١٩١

C.— ASIE

CAHUN (L.), Introduction à l'histoire de l'Asie, Paris, 1896, in-8o ١٩٢

HEDIN (Sven), Durch Asiens Wüsten, Leipzig, 1899, 2 in-8o, trad franç. : Trois ans de lutte au désert d'Asie, Paris , 1889 . . . . ١٩٣

HEDIN (Sven), Im Herzen von, disin, Leipzig, 1903, 2 in - 8o ١٩٤

HEDIN (Sven), Transhimalopar Entdeckungen u. Abenteuer in Tibet, Leipzig, 1909, 2 in-8o . . ١٩٥

HUC, Souvenirs d'uu voyage dans la Tartarie, le Thibet et la Chine pendant les années 1844, 1845 et 1846, Paris, 1850, 2 in-8o ١٩٦

LANDON (P.), A Lhassa, la ville interdite. Description du Tibet central et des coutumes de ses habitants, Paris, 1906, in-8o (trad. de l'anglais)

LEGRAS (J.) En Sibérie, Paris, 2e édit., 1904, in-16

LUNET DE LA JONQUIÈRE (E.), Ethnographie du Tonkin septentrional, Paris, 1906, in-8o ١٩٧

MAITRE, Les Jungles Moï, Pario, 1912, in-8o . . ١٩٨

PALLAS (P. S.), Xoyages en differentes provinces de l'Empire de Russie et dans l'Asie septentrionale trad. de l'allemand par GAUTHIER DE LA PEYRONIE. Nouv. édit., revue par LAMARCK et LANCLES, Paris, an II, 8 in-8o, 1 atlas gr. in-4o. ١٩٩

RECLUS (E. et O.), L'Empire du Milieu. Le climat, le sol, les races, la richesse de la China, Paris,

1902, in-8o ٢٠٠
RICHTOFEN (F. von), CHina, vol. I, Introduction, Berlin, 1877, in-4o; vol. II, Nôrdliche China, 1882, in-4o.— Atlas von China, I, Nôrdliche China, 1885, in-folio.— Vol. III. Südliche China, p.p. Tiessen, 1912, in-4o. — Atlas von China, II, Sudliche China, par GROLL, in- folio, s. d. (1912 ?) ٢٠١

SION (J.), Le Tibet méridional (Ann. de Géogr., XVI 1907) ٢٠٢
VIDAL DE LA BLACHE (P.), Le peuple de l'Inde d'apres la série des récensements (Ann. de Gèogr., XV, 1906) ٢٠٣
WOEIKOF (A.), Climat de la Sibérie orientale (Aun. de Cèogr., XII, 1898) ٢٠٤
WOEIKOF (A.), Le Turkestan russe, Paris, 1914, in-8o ٢٠٥

D. — AMÉRIQUE.

BEUCHAT (H.), Manuel d'archéologie américaine, Paris, 1912, in-8o ٢٠٦
BRIGHAM (A. P.), Geographic influences in American hiotory, Boston, 1903 in-16 . ... ٢٠٧
LE COINTE (P.), Le Bas-Amazone (Ann. de Géogr., XII, 1903)....................... ٢٠٨
LE COINTE (P.). La Foret amazonienne (Bull. Soc. géogr. commerc., Paris, XXV, 1903) ٢٠٩
CAPITAN (L.)et LORIN (H.) Le travail en Amérique avant et apres Colomb, Paris, 1914, in-8o ٢١٠
METIN (A.), Etude sur la colonisation du Canada, La Colombie britannique, Paris, 1907, in-8o ٢١١
SEMPLE (E.C.), American history and its géographic conditions, Boston et New-York, s.d. (1903) in-8o ٢١٢

E. — OCEANIE, AUSTRALIE.

COOK (J.), Voyages dans l'hémisphere austral et autour du monde .... écrit pr Jacques Cook, trad. de l'anglais, Paris, 1776-1778, 4 in-4o ٢١٣

FRASER (J.F.) L'Australie. Comment se fait une nation, adapt. FEUILLOY 6e édit, Paris, 1916, in 8o ٢١٤

LESPAGNOL (G.), Sur le caractere desertique de l'Australie intérieure (Ann. de Geogr., VII, 1898) ٢١٥

PRIVAT-DESCHANEL (P.), L'Australie pastorale (La Géographie, XVII, 1908) ٢١٦

QUATREFAGES (A. de,) Les Polynésiens et leurs migrations, Paris. 1865, in-4o ٢١٧

RUSSIER (H.), Le partage de l'Océanie ,Paris 1905in-8o ٢١٨

SION (J.). Océanie et Indo-Chine: Notices bibliographiques (REV. de géogr. ann. t. I. 1906-1907, paris, 1907 in-8o) ٢١٩

SPENCER (B.) et GILLEN (F. J.), The native tribes of Central australia, Londres, 1899, in-8o ٢٢٠

SPENCER (B.) et GILLEN (F. J.), The northern tribes of Central Australia, Londres, 1904, in-8o ٢٢١

F. — SOCIETES POLAIRES.

BYRAN (A.), Die Polarvolker (vol. 63 de la coll. Wissenschaft und Bildung, Leipzig, 1909, in-16) ٢٢٢

MAUSS (M.)et BEUCHAT (H.), Essai sur les variations saisonnieres des sociétês eskimos. Etude de morphologie sociale (Année sociol., XI, 1904-1905) ٢٢٣

NORDESHJOLD, Le Monde polaire, trad PARMENTIER et ZIMMERMAN, Paris, 1913 in-8o ٢٢٤

G. — EUROPE ET FRANCE.

BLANCHARD (R). La Flandre, Lille 1906 in-8o ٢٢٥

BOYE (P.), Les Hautes Chaumes des Vosges, Paris, 1903 in-8.

BRIOT (F.), Etudes sur l'Economie alpestre, Paris-Nancy 1896, in-8o ٢٢٦

BRIOT (F.), Nouvelles études, Paris, 1907, in-8o ٢٢٧

BRUNHES (J.), Géographie humaine de la France, 1er vol. (t. 1 de G. HANOTAUX, Histoire de la nation Française), Paris, 1921, in-4o ٢٢٨

BUREAU (P,), Le paysan des fjords norvégiens, paris, 1906, in- o ٢٢٩

CUIJIC (J.), La penisnule balkanique: Géographie humaine paris, 1918, in-8o ٢٣٠

DEMANGEON (A.), La picardie leset régions voisines, paris, 1905, in-8o ٢٣١

LEVAINVILLE (J.), Le Morvan, étude de Géographie humaine, Paris, 1909. in-8o ٢٣٢

MANTOUX (p,), La révolution industrielle en Angleterre au XVIIIe siecle. Essai sur les commencements de la grande industrie moderne en Angleterre, paris 1906in-8 ٢٣٣

MILIOUKOV (p.), Essais sur l'histoire de la civilisation Russe, trad. DRAMAS et SOSKICE, paris 1901 in-8 ٢٣٤

RABOT (CH , Aux fjords de Noverges et a: x forets du Suede. paris, 1906, in-8o ٢٣٥

SION (J,), Les paysans de la Normandie Oriental, etude Geographique, Paris, 1909, in-8o ٢٣٦

SORRE (M.), Les Pyrenees mediterraneenres, essaie de Geographie biologique, Paris, 1913, in-8o ٢٣٧

VALLAUX (C.), La Basse-Bretagne, etude de Geographic hnmaine, Paris, 1907, in-8o ٢٣٨

VIDAL DE LA BLACHE (p.), Tableau de la Géographie de la France t. I. de LAVISSE, Histoire de France paris, 3e éd,i, 1908, in-4o ....: ٢٣٩

H. — EXPANSION MARITIME.

HERRE (P.), Der Kampf um d. Herrschaft in Mittelmees Leipzig, 1909, in-8o ٢٤٠

MAHAN (A. T.), Influence de la puissance maritime danr l'histoire, trad. BOISSE Paris, s.d. (1899), in-8o ٢٤١

PHILIPPSON (A.), Das Mittelmeergebiet, seine geogra, phishe und kulturelle Eigenart, 2e Auflage. Leipzig. 1907, in-8o ٢٤٢

SCHOTT (G.), Geographie des Atlantischen Oseans, Hamburg, 1912, in-4o ٢٤٣

VALLAUX (C.), Géographie sociale. La Mer, Paris, 1908, in-18. .... ٢٤٤

المحتويات

الجزء الاول

استدراك

وقع أثناء الطبع بعض الأخطاء التى يستطيع القارىء تداركها بسهولة ونحن نستدرك هنا مانرى استدراكه ضروريا .

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
همبولدت	هبولدت	١٣	١٨٨
« «	« «	٥	٢٠٠
التقريرية	التقديرية	٧	٦٦
التقريرية	التقديرية	٩	٨١
« «	« «	١	١٣٨
الإجتماعيه	الجماعية	٣	٧٠
المورفولوجيا	المورنولوجيه	١٦	٧٢
« «	« «	١	٨٦
المتمدينة	المتدينة	٩	٨٨
الاقتصار	الانتصار	٦	١٠٢
الكانتونات	الكانتوبات	١٤	١٢١
نورماندى	رماندى	١٧	١٢١
تيناولوا	تينالوا	٦	١٢٣
أ	لمأ	٨	١٢٨
تتبنى لها	تتبنى ولها	١٠	١٣٣
أن يظهرونا على	أن يظهرن على	١١	١٣٥
أناس سلبيين	أناس سلبية		
وصول	لنرى	١٥	١٣٨

الصواب	الخطأ	السطر	صفحة
يستعدون	يستمدون	١٣	١٣٥
١٨٤٨	١٩٤٨	٩	١٤٤
الحاليةوا تجاه	الحالية	١٢	١٥٠
انحدروا	انحدوا	٢	١٥٧
أفتتح	أخذت	١	١٦٦
تفسر	تنشر	١٥	١٦٧
الفلاندرز	الفلاتورز	١٢	١٦٩
تيرا دلفوجو	تيرا ولفوجو	٣	١٧٠
درجات الحرارة بالفهرنهيت			٢٠٣
» »	» »		٢٠٤
للمحراث	للممرات	١٣	٢٠٤
الساموبد	السامبون	٣	٢١٣
كثافة السكان للميل المربع (خريطة رقم ٥)			٢١٥
٢٧	٢٧٠	١٢	٢١٨
المبتسره	المتيسرة	١٠	٢٢٤
قربا لما	قرنا	١٢	٢٢٥
وجود وحدة	وجود	٣	٢٣٦

صفحة تصويب الاخطاء

رقم الصحيفة	رقم السطر	خطأ	صواب
٢٥٧	٤	قـوه	قـوة
٢٥٧	١٣	قـسوى	قـد
٢٥٨	١٠	إت	أت
٢٥٩	١٧	نضيف	نضف
٢٦٠	٤	أن	إن
٢٦٠	١١	احـداها	أحـدها
٢٦٠	١١	الاخرى	الآخـر
٢٦٠	١٤	تحـل	تحالل
٢٦٠	١٨	مكن	مكنا
٢٦١	١	جـزء	جزءا
٢٦٢	٦	تقـط	نقط
٢٦٢	١٠	ا لا	الى
٢٦٤	١٢	الغـير	غير
٢٦٦	٢	عكس	عكسى
٢٨٤	١	يخـطىء	يخطىء
٢٨٥	١٦	فيـافى	قياف
٢٩١	٧	الجغرافى سور	الجغرافى داخل سور
٢٩٤	٦	اللذين	الذين
٢٩٨	١	الألفاض	الألفاظ
٣١٧	٨	ترجع	يرجع
٣١٧	١٠	أخص الساحل	اخص على الساحل
٣١٩	٥	يغامرون الى البحار	يغامرون فى البحار
٣٢١	٤	السوحل	السواحل
٣٢٥	٥	جـزر	جزراً
٣٢٩	١٦	أغـدت	أغدقت
٣٣٦	٥	التركنسات	التركستان
٣٤٥	٤	هنـاك	هناك
٣٤٧	٧	تشابه	تشابها
٣٥٣	١	فريق	فريقا

رقم الصحيفة	رقم السطر	خطأ	صواب
٣٧٠	١٥	أحد	إحدى
٣٧٣	١٣	حرفه	حرفة
٣٧٧	١٦	دليل قاطع	دليلا قاطعا
٣٨١	٩	لسكشوف	السكشوف
٣٩٧	٤	لنعيد	لنعـد
٤٠٩	١٦	البدو قو	البدو قوم
٤١١	٨	للظـام	للنظام
٤٢٤	١١	ذاعـا	دائما
٤٣١	٦	زراع	زراعا
٤٣٩	١٢	لونحون	لوتجيون
٤٤٧	٣	مبادءها	مبادئها
٤٥١	٨	نشأت	نشأ
٤٦٨	٢	الاتسان	الانسان
٤٨٥	١	اساس علمى يجب ألا	اساس علمى لا
٤٨٨	٢	فـرق	فـرقا
٥٠٣	١	الغـير	غـير
٥١٠	٣	ذات	ذو
٥١٢	١٨	أنشئت	أنشىء
٥١٥	١٥	تدن	يدين
٥١٧	٨	ترجع أهميتها	يرجع أهميته
٥٣١	٤	متمدينا	متمدين
٥٣٤	٢٠	يستطيوا	يستطيعوا
٥٤٠	١٩	اجتمعيين	اجتماعيين
٥٤١	٤	الجغرافية كلما كانت	الجغرافية كانت
٥٤١	٥	قيمة وكلما كان	قيمة وكان
٥٤٣	٧	مندوحة من الاعتراف	مندوحة عن الاعتراف
٥٤٤	١٤	وحدة	وحـده
٥٤٥	١٠	ان	إن

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا ورحلات
دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

١ - حضارة الاسلام
٢ - اتجاهات الفلسفة المعاصره
٣ - البوليس والكشف عن الجريمة اليوم
٤ - اسكتلنديارد
٥ - فلسفة الخير
٦ - حركات الشباب الاجتماعية
٧ - بلاد ما بين النهرين
٨ - آثار حضارة الفراعنة
٩ - الحياة الناجحة
١٠- كيف تقرأ الجريدة
١١- الحياة اليومية فى مصر القديمة
١٢- الديانات فى أفريقيا السوداء
١٣- الطفل من الخامسة الى العاشرة
١٤- علم نفسك الاقتصاد
١٥- تاريخ العالم ١٩١٤ - ١٩٥٠
١٦- نحو مجتمع أفضل
١٧- الأحلام والجنس
١٨- تاريخ طابع البريد
١٩- تاريخ الجيوش
٢٠- صحوة أفريقيا
٢١- الجريدة
٢٢- الحرب بين الماضى والحاضر
٢٣- الانقلاب الصناعى فى انجلترا
٢٤- مرشد الآباء والأمهات
٢٥- الحضارة العربية
٢٦- الاسلام فى المغرب والاندلس
٢٧- قصة الجنس البشرى
٢٨- مدخل الى علم الآثار
٢٩- الجغرافيا والسيادة العالمية
٣٠- الرحالة العرب
٣١- فى طلب التوابل
٣٢- أهرام مصر
٣٣- مصر ومجدها الغابر
٣٤- الشعوب البدائية
٣٥- طبقات المجتمع
٣٦- بذور الشر
٣٧- مناطق الهجرة فى العالم
٣٨- قصة التجارة الدولية

٣٩- موجز تاريخ الشرق الاوسط
٤٠- السلام العالمى فى العصر الذرى
٤١- الصحراء
٤٢- تاريخ الصحافة
٤٣- الاستعمار فى الخليج
٤٤- الصحافة فى العالم
٤٥- دراسات فى جغرافية مصر
٤٦- مدخل الى علم النفس
٤٧- ثورة آسيا
٤٨- سبل الحرية
٤٩- عبد الله النديم
٥٠- ستة من رجال الأعمال
٥١- دائرة معارف الناشئين
٥٢- ستة رواد
٥٣- أندية الشباب المدرسية
٥٤- النجاح
٥٥- مختارات من علم النفس
٥٦- كتب غيرت وجه العالم
٥٧- تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية
٥٨- بناة الولايات المتحدة
٥٩- الدولة
٦٠- ستة من علماء الطبيعة
٦١- بسمارك
٦٢- فجر الضمير
٦٣- الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته
٦٤- الانسان والأخلاق والمجتمع
٦٥- الطفل الموهوب
٦٦- رجل بلا وطن
٦٧- الحياة العامة اليونانية
٦٨- موجز تاريخ العالم
٦٩- علم الاجتماع
٧٠- نفسية المجتمع
٧١- القلب
٧٢- ٢٠٫٠٠٠ فرسخ تحت سطح البحر
٧٣- باستير
٧٤- الادارة العربية
٧٥- الجغرافيا مغزاها ومرماها
٧٦- التاريخ مصدر تسلية
٧٧- الرحالة الصغير فى ايطاليا
٧٨- على مبارك وأعماله
٧٩- الدولة العربية الى نهاية الدولة الأموية
٨٠- ماهو الجنس ؟
٨١- الأرض والتطور البشرى

مطبوعات الدار المصرية للطباعة والنشر
فى مشروع الألف كتاب

	ملیم
١ ـ تاريخ الصحافة	١٥٠ر —
٢ ـ ثورة آسيا	١٥٠ر —
٣ ـ اندية الشباب المدرسية	١٤٠ر —
٤ ـ فسيولوجيا الانسان	٢٣٠ر —
٥ ـ الارض والتطور البشرى ح١	٢٣٠ر —
٦ ـ الارض والتطور البشرى ح٢	٢٨٠ر —
٧ ـ تاريخ الموسيقى	١٩٠ر —
٨ ـ نسيب مسيو بواربيه	١١٠ر —

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة إليه من المعلومات فى شتى الموضوعات معروضة عرضا سهلا، يتقبله القارىء العادى، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات.
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان، وإشراك أكبر عدد من الناشرين فى نشرها.
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع.
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها.
* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء فى شتى الأمم، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم.
* افساح المجال أمام الشباب الطامح إلى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والأدبية.
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية، وتعويضهم تعويضا مجزيا.
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة.



الشذا المصرية للطباعة